

50  
years

الاداب

AL ADAB 2002

العدد ٦/٥ أيار (مايو) - حزيران (يونيو) ٢٠٠٢ - السنة ٥٠

Al-Adab vol.50 #5-6/2002

قصيدة النثر أو النثيرة - الحركات الإسلامية وقضايا الحداثة - سعيد عقل وإيمان الخطيب

فلسطين

وتحرير الشارع العربي

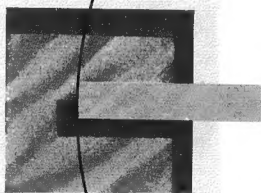
أسئلة المفارقة

Per.  
306

يوكو أوغاوا

# حوض السباحة

رواية



ترجمة: بسام حجار

دار الآداب



## الفهرس ٢٠٠٢

المعد ٦/٥ أيار (مايو) - حزيران (يونيو) ٢٠٠٢ - السنة ٥٠  
Al - Adab vol. 50 # 5-6/2002

### الافتتاحية

- ١ السلامة والتسليم والسلطة الرابطة ..... سماح إدريس

### المقالات

- ٤ المقاومة الشعبية للشركات الجامعة لـ «إسرائيل» ..... كيرستن شابد  
١٩ من الصهيونية وازمة التفوق العرقي اليهودي ..... جوزيف مسعد  
٣٣ قصيدة النثر أو «الشعرية»: الحقيقة خلف زكام الأوهام ..... محمد توفيق الصواف  
٤٦ واقع المثلث والمعارضة في الوطن العربي ..... رمزي تقيضة

- المثلث: «فلسطين وتحرير الشارع العربي» ..... (إعداد: سماح إدريس)

- ٥٣ تقديم ..... س.د.

- ٥٤ بيروت (١): رغبة طالبة إيرانية متاخضة للموت ..... لاله خليفي

- ٦١ بيروت (٢): لقاء انتفض الشارع، وكذا انفضأ ..... ماهر الهنائي

- ٦٣ نصائح مهمة إلى المتظاهرين العرب ..... Free Arab Voice

- ٦٤ مصر: المذهب الشعبي؟ إلى أين؟ ..... أحمد الخديسي

- ٦٩ عمان: ملاحظات على هامش الحركة المساندة للاندفاع ..... إبراهيم علوش

- ٧٣ سوريا: الربيع الفلسطيني ..... محمد نجاتي خبطة

- ٨٠ المغرب (١): حوار مع خالد السلياني حول فلسطين والشارع المغربي ..... أجراء: عبد الحق لبيش

- ٨٦ المغرب (٢): الشارع العربي - يوازي تخلق الرأي العام ..... المقرن أبو زيد الإدريسي

- ٩٣ سان فرانسيسكو وواشنطن: حركة التضامن مع الشعب الفلسطيني ..... ناصر البرغوثي

### القصائد

- ٣١ ما تيسر من سورة جثين ..... محمد الهادي بوقرة

- ٤٤ تعبت من الطيران ..... محمد عبيد الله

- ٥٠ العودة من غرابة ..... حسن فتح الباب

- ١٠٠ قياصة الأنا، غناء الآخر ..... لقا ترشحاني

### حوار

- ١٠١ مع محمد السريخيني: أي خصوصية للقصيدة المغربية؟ ..... أجراء: حسن مخافي

### القصص

- ١١٠ من يصدق الرسائل؟ ..... ياسين عدنان

- ١١٣ المثل الذي نقيا على المسرح ..... عبد الله المصفي

- ١١٤ على رصيف الحلم ..... بسمة الخطيب

### ندوة الآداب

- ١١٧ الحركات الإسلامية المغربية وقضايا الحداثة ..... محمد الطوخي، محمد الساسي، محمد بتيتم، عبد الحمي مودن (أعد الندوة: عبد الحق لبيش)

### أبواب متفرقة

- ١٧ أرقام الآداب ..... إعداد: ك. ش.

- ١٣٤ متذكرات: سعيد عقل وإيمان الخطيب ..... سهيل إدريس

- ١٣٧ يوميات: إحياءات وأهنة بالطمأنينة ..... عدنية شليفي

- ١٤١ فسحة قصيرة: إلى أين في معركة صراخنا، معركة الأرض والإنسان؟ ..... رشاد أبو شاو

- ١٤٤ ردود، عن الصهاينة واليهود ..... المكتب الإعلامي لسماعة

السيد محمد حسين فضل الله



# المقاطعة الشعبية للشركات الداعمة لـ «إسرائيل»

أسئلة يُكثّر طرحُها

كيسرتن شايد \*

الاقتصادية العربية. فالمقاطعة سوف تشجّع الناس على إظهار البضاعة المحلية، الأمر الذي يشجّع الصناعة المحلية ويضعها إلى أن تكون أكثر استجابة لحاجتنا ورغباتنا كمستهلكين.

## ٢ - هل نجاح المقاطعة ضد هذه الشركات العملاقة أمر واقعي؟

ليس ضرورياً أن تكون المقاطعة كاملة منذ البداية لكي يكون لها أثرٌ سياسيٌ فعلي. فالشركات لا تنتظر أن تختفي أرباحها تماماً لتبدأ بالتفكير في إجراء تغييرات جذرية. بل إن انخفاضاً بنسبة ١٠٪ يصيب الأرباح الصافية بنسبة أكبر. ويمكن أن يثبّع حملة الأسهم من الاستثمار في هذه الشركات، وهو ما سيضعفها كثيراً.

إن ما يجذب الاستثمارات هو توقعات زيادة الأرباح. ولهذا تعمل المقاطعة على التقليل من هذه التوقعات.

تاريخياً، لو لم تكن للمقاطعة القدرة على أن تكون أسلحةً جبّارةً لنا مُبْتَعَثَةً بقوة القانون في بعض البلدان. ففي أميركا مثلاً تُصرّف سنّ مواء قانونيّة على الشركات الأميركية والحكومات التي تتلقى معونات أميركيّة من الإسهام في

## ١ - هل لهذه المقاطعة أهداف واضحة؟

ستُجرّز المقاطعة معارضةً غالبية العرب للزعة العدوانية الإسرائيلية وزعة التفوّق اليهودي، المدعومتين من الولايات المتحدة الأميركية. وستشكّل عائقاً ضدّ المزيد من الاستثمارات العالمية في الشركات الداعمة لـ «إسرائيل». فالنجاح ضدّ هذه الشركات سيجعل ريفقاتها تفكر مرتين قبل أن تصبّ أموالها في الميزانيّة الإسرائيلية.

وستكون المقاطعة أداةً أساسيّةً لرفع الإحباط الذي أصاب كثيراً من العرب. فهي توصل رسالةً إلى الإنسان العربي وهي «أنك لمست عاجزاً». تستطيع أن تتحرك. كلّما اشتريت شيئاً فعلت شيئاً: فاجعل من فعلك هذا عملاً يصبّ في خدمة مصالحك ومصالح الشعب الفلسطيني». ويوضح أن هذه رسالةً جبّارةً تستطيع أن توجّه العرب نحو أهداف تتخطى الهدف المباشر المتمثّل في حماية الفلسطينيين.

لكنّ الهدف الأسمى للمقاطعة هو قطع علاقات التبعية التي تُقرّض العجز السياسي على الحكومات والفعاليات

تتشكّل في لبنان هذه الأيام حملة مقاطعة شعبية للشركات الداعمة للاقتصاد الإسرائيلي. وفي هذا المجال عُنُقَت سلسلة لقاءات في نادي الساحة، وفي نادي اللقاء، وفي الجامعة الأميركية في بيروت، ضمت عشرات الشابات والشبان الذين راعهم ما حلّ بفلسطين من تدمير ومجازر ألحقها بها آلة التدمير الإسرائيلية المصنوعة في أميركا بشكل أساسي.

في الصفحات التالية كتبت كيسرتن شايد، إحدى المشاركات في هذه الحملة وعضو الهيئة الإدارية في نادي الساحة، مقترحات لأجوبة عن أسئلة يُكثّر طرحها في موضوع المقاطعة. وتامل الأداب أن تكون هذه الصفحات مادة نقاش غنيّة في أوساط الناشطات والناشطين العرب وغير العرب، تهديداً لما نأمل أن يكون بياناً أو وثيقة للمقاطعة الشعبية لكل الشركات الداعمة لاقتصاد «إسرائيل»، وعلى رأسها الشركات الأميركية.

الإدباب

\* - طالبة دكتوراه أميركيّة في جامعة بريستون. عضو هيئة تحرير الأدباب والهيئة الإدارية في نادي الساحة (بيروت). والحملة الشعبية لمقاطعة الشركات الداعمة لـ «إسرائيل».

#### ٤ - كيف تلقف هذه الشركات عانقا امام تحصيل الحقوق الوطنية اللسطينية؟

هذا يتوقف على طبيعة علاقة كل شركة بالدولة العبرية. فبعض الشركات تشارك عمليا في الاحتلال الاستيطاني اللاشعري للضفة الغربية وغزة، وذلك ببناء مواقع لها في المستوطنات. وقد حاول بيرغر كينغ ذلك عام ١٩٩٩، ولم تسحب حتى الآن الرخصة من صاحب الامتياز<sup>(٦)</sup> وكذلك مازال بعض الموزعين الاميركيين والاوروبيين، امثال سلفريدج وهارونز، يشترون بضائعهم من مؤسسات عاملة في المستوطنات اليهودية<sup>(٧)</sup>.

وهناك شركات تصنيع تعمل داخل مناطق ٤٨، كشركة دلفا غليل التي تزود المحلات بماركات تشامبين ووالف لورين وهوغويس<sup>(٨)</sup> لا تقتفي بالعمل على اراضي فلسطينية صودرت لاشعريا منذ ٥٤ عامًا، بل تستفيد ايضا من الاحتلال

نعم. فمالهاتما غاندي، الزعيم الهندي للأعنف، استخدم مقاطعة البضائع البريطانية سلاشا ضد المستعمرين البريطانيين. وبين غاندي للبريطانيين أنهم يعتمدون على الهند أكثر مما تعتمد الهند على بريطانيا، وأصبح واحدا من أوائل القادة الذين حوّلوا بلانهم من الاستعمار. ولعل أشهر حملة مقاطعة هي التي قُرضت ضد نظام الفصل العنصري في جنوبي إفريقيا طوال أربعين عامًا. وقد أدت هذه الحملة إلى تضاعف عوامل سياسية كثيرة في العالم دفعت إلى الإطاحة بنظام الأبارتايد.

واخيرا لا أخرا، فإن حركة الحقوق المدنية في اميركا في الستينيات بدأت بمقاطعة الافارقة الاميركيين لنظام الاوتوبيسات في ألاباما. وإذا بالنظام الذي كان يُفرض اضطرارهم، فيرميمهم إلى مؤخرة الباص، يتجشف أنه لم يعد يستطيع الاستمرار بسبب اعتماده على الزبائن السود!

المقاطعة العربية ضد إسرائيل<sup>(٩)</sup> ولكن أمام الأفراد، وبخاصة في بلدان لا ترتبط بمعاهدات سلام مع الدولة العبرية مثل لبنان، فرصة كبيرة لكي يبيتوا للشركات التي تدعم الكيان الصهيوني إمكانية نجاح المقاطعة، ولكي يحثوا المواطنين في أماكن أخرى على عصيان قوانين حكوماتهم ومعاهداتهم الإنسانية.

وأخيرا، تشمل المقاطعة على عدة مستويات. فهي تتيج للمقاطعين أن يُذكروا مسؤوليهم الشخصية في كل عمل صغير يقومون به لصالح عالمهم. إن كل مقاطعة يمكن أن تكون الخطوة الأولى نحو زيادة معرفتنا بكيفية عمل الاقتصادات والسياسات والمجتمعات، وزيادة إحساسنا بتعاطف قوتنا أيضا.

#### ٣ - هل نبحث أي مقاطعة من هذا الحجم في السابق؟

١ - أقرت هذه القوانين في الأعوام ١٩٥٩، ١٩٦٠، ١٩٧٦، ١٩٧٧، ١٩٩١ (اثنان) من أجل الحد من فعالية المقاطعة العربية، التي رغم كل شيء، بقيت بالغة التأثير في رأي الحكومة الأميركية ووزارة الخارجية الإسرائيلية. انظر: "1996 National Economic Estimate: The Arab League (Boycott of Israel)," US Trade Reports, 1/4/96, [www.ustr.gov/reports/nre/1996/arab.html](http://www.ustr.gov/reports/nre/1996/arab.html); "Antiboycott Regulations," US Dept. of Antiboycott Compliance, [www.bxa.doc.gov/antiboycottcompliance](http://www.bxa.doc.gov/antiboycottcompliance); Mitchell Bard, "The Arab Boycott," Jewish Virtual Library, [www.us-israel.org/source](http://www.us-israel.org/source); World Jewish Congress, "The Revival of The Arab Boycott - Round 2," 3/10, H59, [www.wjc.org.il](http://www.wjc.org.il)

٢ - "Muslims Eye Renewed Burger King Boycott," Newswire Association, 14/6/00  
Amira Hass, "The 'Made in Israel' label is not as simple as it seems," *Ha'Aretz*, 24/9/00, [www.fiz.huji.ac.il/~damita/](http://www.fiz.huji.ac.il/~damita/)  
sitio\_pol/ISR\_PAL/Amira\_Hass24\_9.html; Ellis Shuman, "Harrods reinstates Israeli products," *Israelinsider*, 25/01/02

٤ - "Retailers," Delta Galil, [www.deltagalil.com/RetailersStory.htm](http://www.deltagalil.com/RetailersStory.htm)

اليهودي العنصري، وطرد السكان الأصليين، وشنّ حروب مستمرة تدوس دونما رحمة على كل موادّ موافق جنيف الدوليّة وعلى ما يُلبّ من ٧٠ قراراً من قرارات الأمم المتحدة. إنّ كل هذه الشركات تُشتم مادياً في قدرة الدولة الصهيونيّة على مواصلة سياساتها العنصريّة ضدّ الفلسطينيين والعرب الآخرين. وكلّها، تحت شعار «مُتَرِّ الشغل»، تُشتم في حتمّ العالم على غضّ النظر عن مظالم الصهيونيّة عبر التاريخ غير أنّ لا شركة من هذه الشركات مضطرة إلى البقاء، في فلسطين المحتلة وكما قال أحد الوُسطاء في مؤتمر لرجال الأعمال عُقد مؤخراً في «إسرائيل»: «لا شيء يدوم. ولكنّ مساعدات الناتج تفوق المخاطر فسوف نواصل الاستثمار في

على هذا الالتزام بالدولة الصهيونيّة<sup>(١)</sup> وهناك شركات تلحق برامج مساعدة المجتمع الإسرائيليّ. أمثال ماكدونالدز ودانون ولوريال<sup>(٢)</sup> وأخيراً هناك شركات أُخريّت بالعمل في «إسرائيل» بفضل وعود الاستقرار الناتج عن اتفاقيّات السلام والمعونات الحكوميّة الهائلة. وقد ساعدت هذه الشركات على رفع متوسط دخل الفرد الإسرائيليّ السنويّ من أحد عشر ألف دولار عام ١٩٩٠ إلى سبعة عشر ألف دولار عام ٢٠٠٠. وخُصّصت نسبة ديون الدولة الإسرائيليّة إلى الدخل للعام الوطنيّ ٢٥٪ - أيّ من ٨٣٢٪ إلى حوالي ١٠٠٪<sup>(٣)</sup>. إنّ كلّ هذه الشركات، رغم الفوارق بينها، ستستمرّ في مجتمع قائم على نزعة التفوّق

الصهيونيّ باستخدام العسّال الفلسطينيّين القادمين من الضفة وغزة لتشيغيهم في ظروف بائسة ومعدومة من أيّ حقوق نقابية<sup>(٤)</sup> وهناك شركات تُستخدم أرباحها لترويج التعاطف مع الصهيونيّة، ولتشجيع الشباب اليهوديّ في أميركا وكندا على التطوّر في جيش «الدفاع» الإسرائيليّ، على نحو ما تفعل بعضُ الشركات التي ترخّص بيع الأسلحة اليهوديّة الحلال (الكوشر) مثل «الاتحاد الأورثوذكسيّ»<sup>(٥)</sup> وهناك شركات استثمرت في الاقتصاد الإسرائيليّ في وقت كان العمل فيه في فلسطين المحتلة «هيبّ اكسّر» منه استثماراً<sup>(٦)</sup>. وتُعدّ شركات أمثل وپروكتور آند غاشيل وكوكاكولا نماذج

- ١ - "BTselem, "Human Rights Violations of Palestinians from the Occupied Territories Working in Israel and the Settlements" www.bselem.org
- ٢ - "International Public Action," Orthodox Union, www.ou.org/kosher/pr.htm
- ٣ - "Editorial: Economic Jubilee," *Jerusalem Post*, 15/10/98, www.jpost.com/Archive/15.oct.1998/Opinion/Article-0.htm
- ٤ - هذه الشركات هي بين ٧٨ شركة نالت، من بنيامين נתانياهو، الجائزة البيوليّة للمستثمرين الأجانب في ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٨، لكنها بفضل «استثماراتها وعلاقاتها التجارية أكثر» من عمل على تقوية الاقتصاد الإسرائيليّ. «واللائحة الأصليّة متوفرة في: www.jpost.com/com/Finance/jubawrecipients.html; cf. Boycott Israel Campaign www.inminds.com/boycott-jubilee-awards.html.
- ٥ - "Welcome to McDonalds Israel, First in the Middle East," www.mcdonalds.com/countries/israel/index.htm; Danone Institute Israel, www.danone-institute.org.il/danone/WhoEng/Default.asp?Flag=1; Eli Groner, *Jerusalem Post*, 6/15/99, www.jpost.com/Archive/15.Jun.1999/Business/Article-5.htm
- ٦ - David Klein (Gov., Bank of Israel), "The Israeli Economy, 1990-2000: Strategy for Change and Recent Developments," Report to the Chamber of Commerce Switzerland-Israel, www.mfa.gov.il/mfa/go.asp?MFAHOij90

إسرائيلي. <sup>(١)</sup> وإذا، وتحت شعار «مشرق الشغل» أيضاً، فلتبدأ حملة لسحب استثمارات هذه الشركات من الكيان الصهيوني.

## ٦ - ما المشكلة في أن تستثمر شركة اجنبية، كنسئله، في شركة إسرائيلية؟

حين تُستثمر شركة اجنبية شركة إسرائيلية بكاملها أو قسماً منها، فإنها تصبح المال في حسابات بنوك إسرائيلية، وتزيد القيمة الإجمالية للشركات الإسرائيلية على البورصة العالمية.

وبالنسبة إلى شركات التصنيع، مثل شركة اوسيم الإسرائيلية التابعة لنسكية السويسرية، يقدم هذا الارتباط بشركة اجنبية مساعدة تقنية هامة، وتوزيعاً دولياً.

ودعاً على المستوى العالمي للشركة الإسرائيلية <sup>(٢)</sup> إن الاستثمار، خلافاً للمساعدات، يؤدي عادةً إلى تحديث المعدات وزيادة الطاقة الصناعية، وإلى إنتاجية أعلى في نهاية المطاف. <sup>(٣)</sup> ومثل ذلك الارتباط بين الشركات الأجنبية والشركات الإسرائيلية مهم جداً للدولة العبرية في أوقات حروبها ضد العرب.

فالميزانية العسكرية الهائلة، التي تخطت ٤٠٪ من ميزانية «إسرائيل» العامة حتى نهاية التسعينيات، <sup>(٤)</sup> تعني أنه لم يبق مال كثير لخدمات حكومية أخرى. وحالياً تفكر الحكومة الإسرائيلية في اتخاذ إجراءات جذرية تقضي بوجود فئة من الناس تدفع ٦٠٠٥٪ ضريبة دخل، ويفرض «قروض حرب إجبارية» من أجل توليد دخل جديد للدولة. <sup>(٥)</sup> والمستثمرين

الذين قد لا تكون لهم مصلحة إيديولوجية في الاستثمار هناك يستفيدون من تقديمات مذهلة تأتي من الحكومتين الإسرائيلية والأميركية، فيُغفون مثلاً من الضرائب مدة عشر سنوات، ويحصلون على ضمانات على ٦٦٪ من التكلفة الأولية، ويُمنحون فرصة استخدام اللوائن مجاناً. <sup>(٦)</sup> وقد شنت «إسرائيل» هذه الاستثمارات الأجنبية تشميماً عالمياً، إلى حد أنها منحت عام ١٩٩٨ كل شركة استثمرت فيها بما قيمته ٥٠ مليون دولار وما فوق جائزة يوبيلية خاصة، رابطة بذلك ربطاً مباشراً بين بقاء الكيان الصهيوني على قيد الحياة طوال خمسين عاماً والنشاط الاقتصادي الذي بذلته هذه الشركات الأجنبية. <sup>(٧)</sup> وقد لاحظ تقرير صادر عن «لجنة النمو الاقتصادي

١ - Keren Tzuriel-Harari, "Mike Moritz: As long as the Results Exceed the Risks," *Globes Israel*, [www.globes.co.il](http://www.globes.co.il)

٢ - Y. Meir, "Israel's Resiliency Keeps Food Industry Going," *Kosher Today Newspaper*, 12/01, [www.koshertoday.com/kosher%20today%20archives/2001/1201/Israels%20keeps%20Food%20Industry%20Going.htm](http://www.koshertoday.com/kosher%20today%20archives/2001/1201/Israels%20keeps%20Food%20Industry%20Going.htm)

٣ - "The Jubilee Plan for Economic Freedom in Israel," Institute for Advanced Strategic and Policy Studies, [www.iasps.org.il/kemp9.htm](http://www.iasps.org.il/kemp9.htm)

٤ - Joseph Morgenstern, "The Origins of Israeli High-Tech," Jewish Virtual Library, [www.us-israel.org/jsource/Economy/hitech.html](http://www.us-israel.org/jsource/Economy/hitech.html)

٥ - Saul Singer, "Interesting Times: Operation Economic Suicide," *Jerusalem Post*, 29/4/02, [www.jpost.com](http://www.jpost.com); "Shalom tells nation to tighten its belt," *Ha'Aretz*, 25/4/02, [www.haaretzdaily.com](http://www.haaretzdaily.com); "Israeli Government Actions & Statements," Atid, from *Ha'Aretz*, 8/4/02, [www.atid-edi.com](http://www.atid-edi.com)

٦ - "Government of Israel Investment Incentives," Israel Export Institute, [www.export.org.il/IsraelExportInstitute](http://www.export.org.il/IsraelExportInstitute)

٧ - Benjamin Netanyahu, "Address by Prime Minister Benjamin Netanyahu Jubilee Economic Conference Jerusalem," 13/10/98, Israeli Ministry of Foreign Affairs, [www.mfa.gov.il](http://www.mfa.gov.il)



مستشكّل المقاطعة عائلًا ضدّ مزيد من الاستثمارات العالمية في الشركات الداعمة لـ «إسرائيل»

الثالث هو أنّ عدداً كبيراً من هذه الشركات تقدّم الخدمات مباشرة لحاجات النفاج، مستندة في الوقت نفسه إلى خبرات الجيش الإسرائيلي<sup>(١)</sup>. السبب الرابع، وهو تعبير عن سياسة هذا الكيان الأبارتايدية، هو أنّ قطاع الأبحاث والتنمية خالي من الموظفين الفلسطينيين؛ كما أنّ مكاتبه بعيدة جداً عن مسرح العمليات العسكرية<sup>(٢)</sup>. وهذا يعني أنّ هذا القطاع هو الأقلّ تأثراً بالانتفاضة سلبياً، وهو أيضاً الأكثر استثماراً من قبل رأس المال الأجنبي الجازف<sup>(٣)</sup>. ففي عام ٢٠٠٠ انصبّ ٨٦٪ من الاستثمارات الجديدة في هذا القطاع وخسرجت منه ٨٠٪ من الصادرات<sup>(٤)</sup>. شركة إنتل وحدها كانت

عقد ناجمة عن تدخل الدولتين الأمريكيتين والإسرائيلية. السبب الأول هو أنّ الشركات الأمريكية التي تفتتح مثل تلك المراكز تحصل على تمويل مباشر من الولايات المتحدة، وذلك عبر «الصندوق الإسرائيلي - الأميركي للأبحاث والتنمية الصناعية» - BIRD - F الذي يمول ما يصل إلى ٥٠٪ من كلفة المشاريع الجديدة؛ ويهذا لا يتّقى أمام المستثمر الأجنبي إلاّ أن يتّقى ٢٥٪ من كلفة المشروع، بعد أن تكفلت الحكومة الإسرائيلية بالـ ٢٥٪ الباقية<sup>(٥)</sup>. السبب الثاني هو أنّ آلاف اليهود الروس ذوي المهارات العالية زوّدوا تلك الشركات المستثمرة بخزّان ممتاز من اليد العاملة دونما تكلفة تعليمية<sup>(٦)</sup>. السبب

في إسرائيل عام ١٩٩٩ أنّ ٥٠٪ من كُبريات الشركات الإسرائيلية العملاقة كان يملكها مستثمرون أجانب، أو أنّ أكثر من ٢٧٠٥ مليون دولار قد سُخِّ إلى الاقتصاد الإسرائيلي بفضل هذه الشركات - وهو ما يعادل عشرين سنوات من المعونات الأميركية للدولة العبرية<sup>(٧)</sup>.

## ٧ - ما أهمية أنّ تفتّح شركة أجنبية، كإنتل ومايكروسوفت، مركز أبحاث وتنمية في الكيان الصهيوني؟

إسرائيل هي المكان الثاني الأكبر في العالم للأبحاث والتنمية، بعد كاليفورنيا. وقد صارت كذلك في التسعينيات لأسباب

١ - Elmer Winter, "How to Make Money in Israel," *March Newsletter*, Committee for Economic Growth Israel, 8/3/99, [www.cegi.org](http://www.cegi.org); compare with Shirli McArthur, "A Conservative Total for U.S. Aid to Israel: \$91 Billion-and Counting," in *Congress Watch*, 1/2/01, p 15-16.

٢ - Winter, ibid.; "Government of Israel Incentives," op.cit.

٣ - LLPSN, "Israel's New Economy and the Intifada: A note on the boycott campaign," Rekombinant, 3/4/02, [www.rekombinant.org/article.php?id=1643](http://www.rekombinant.org/article.php?id=1643)

٤ - Ibid., Cf. Seth Redniss, "Around-the-Globe: Nasdaq and Israeli Prosperity," *Forbes*, 11/1/00, [www.forbes.com](http://www.forbes.com).

٥ - Note that this language is used by the sector to advertise itself! See Winter, op. cit. Also, "Despite current events, Israeli industry continues to succeed," Ministry of Trade & Industry, 10/30/00, [www.mfa.gov.il/mfa/go.asp?MFAHOi4eO](http://www.mfa.gov.il/mfa/go.asp?MFAHOi4eO). The "Palestinianrein" status is in striking contrast to the sector's deliberate employment of Jordanian software programmers, a step towards political and economic integration of the two countries. See Larry Luxner, "Arab-Israeli Peace Could Unlock

Enormous Trade Potential," *The Washington Diplomat*, [www.washingtondiplomat.com/00-08/a2\\_8\\_00.htm](http://www.washingtondiplomat.com/00-08/a2_8_00.htm). Redniss, op.cit; Sharon Berger, "Survey sees direct VC investment by foreigners rise," *Jerusalem Post*, 19/2/02, [www.jpost.com/Editions/2002/02/19/Digital/Digital.43718.html](http://www.jpost.com/Editions/2002/02/19/Digital/Digital.43718.html)

٧ - David Rosenberg, "Ahead of the Game," Nanyang University, [www.nanyangmba.ntu.edu.sg/bsm/bsm\\_links/israel/jpp/jpp-htec2.htm](http://www.nanyangmba.ntu.edu.sg/bsm/bsm_links/israel/jpp/jpp-htec2.htm); Klein, "The Israeli Economy," op. cit;



مسؤولة عن ٢٥٪ من نمو الصادرات الصناعية في الكيان الصهيوني عام ٢٠٠٠ (١). ولكن لما كان هذا القطاع شديد الاعتماد على الاستثمارات الأجنبية بسبب ضيق السوق المحلية الإسرائيلية، فإنه شديد التأثر بالضغط الدولي: إنه كعب أخيل في جسد إسرائيل (٢).

#### ٨ - ليس إعطاء جمعية خيرية صهيونية مجرد عمل إنساني

التبرعات للجمعيات الخيرية مهمة اقتصادياً وسياسياً بسبب الطبيعة الخاصة لبنية الدولة الإسرائيلية: فحوالي ٤٠٪ من مصاريف الحكومة تُغلب إلى الجيش، في حين أن السوق المحلية صغيرة ولا تستطيع أن تقدم عائدات ضرائب كبيرة. وهكذا لا يُبقي إلا سال قليل للخدمات الاجتماعية الأخرى (٣) الجمعيات

الخيرية توفر أموالاً ضخمة على الدولة. فمثلاً جمعية اصدياء يادساره وفرت ٢٢٠ مليون دولار سنوياً على الحكومة الإسرائيلية بجمعها أموالاً لشراء الآلات طيبة ومستوصفات (٤). والحق أن هناك كثيراً من الخدمات الحكومية التقليدية التي تقدم في «إسرائيل» عبر منظمات غير حكومية. فمثلاً الصندوق القومي اليهودي الذي يدير ٩٣٪ من «أرض إسرائيل» يتطلب أن يكون الشاري أو المستأجر يهودياً من ٤ أجيال. ويفرّز هذا الصندوق بفضل ثروته الواسعة ظروف حياة كل الناس في «إسرائيل» ولكن لصالح المواطنين اليهود وحدهم (٥).

#### ٩ - ليس «الكوشرة» (الحلال اليهودي) مسألة دينية فقط

– الكوشرة هو حقاً مسألة دينية فقط، ولكن إعطاء الرخصة لا يتوقف عند هذه

الحدود. فثمن الترخيص بأن الطعام «كوشرة» هو نسبة مئوية من أرباح كل بضاعة مرخصة. ومع أن المستهلكين لا يلاحظون زيادة على سعر هذه البضائع بعد زيادة تلك النسبة، فإن الحجم المذهل لجموع البضائع المرخصة والمبيعة في كافة أنحاء العالم – من اللبن، إلى رقائق الاننيوم المعدنية، فمزيج الروائح الكريهة – يبلغ حوالي ٤٥ بليون دولار سنوياً (٦). والصالح أن المنظمات التي تُعطي هذا الترخيص مثل «الاتحاد الأورثوذكسي» أو «مجلس الحاخامات اليهود» تمثل الجاليات المحافظة اليهودية. وهي الجاليات الأكثر تليداً للصهيونية في الوقت نفسه. ولذلك تذهب أموال الترخيص في معظمها إلى أحب الأيتام إلى قلبها: «إسرائيل» (٧). فمثلاً، على كل قنينة من الكاتشاب الحلال أن تُرخص،

١ - Mary Anne Ostrom, "Israel's tech ties to valley strained by violence," *Mercury News*, 5/4/02, [www.siliconvalley.com/mld/siliconvalley/3009786.htm](http://www.siliconvalley.com/mld/siliconvalley/3009786.htm)

٢ - Ostrom, *ibid*; Berger, *op.cit*.

٣ - "Conflict Puts Israel in Recession: Straining Nation's Social Fabric," *Wall Street Journal*, 3/5/02, p. A8-A9; Charles Radin, "Israel's economy staggered by months of unrest", *Boston Globe*, 4/5/02, p. A1

٤ - "Yad Sarah, Friends of Activities," Tzedakah, Inc, [www.just-tzedakah.org/reports/YadSarah/basicinfo.html](http://www.just-tzedakah.org/reports/YadSarah/basicinfo.html)

٥ - Jewish National Fund, [www.jnf.org](http://www.jnf.org); David Arnov, "Just say 'no' to UJA?" *Tikkun*, 7-8/98

٦ - "Kosher Question & Answer," Orthodox Union, [www.ou.org/kosherqa/food.htm](http://www.ou.org/kosherqa/food.htm)

٧ - For example, The United Jewish Communities (Council of Orthodox Rabbis) [www.toronto.ujcfdweb.org/content\\_disaply.html?articleID=17533](http://www.toronto.ujcfdweb.org/content_disaply.html?articleID=17533); The Orthodox Union, [www.ou.org/koshet/pr.htm](http://www.ou.org/koshet/pr.htm) and [www.ou.org/centennial/weare.htm](http://www.ou.org/centennial/weare.htm)

الشركات: نسلية (لاستخدامها محتويات ذات احماس نووية DNA مجبلة جينياً من طرف مهتمين زراعيين، ولحملاتها الإعلانية الضلّلة التي أدت إلى موت الالب من الاطفال الرضع في افريقيا)، وكولفايت - بالموليف (بسبب مصانعها التي لوثت بيئة الكسكس، وإجرائاتها تجارب على الحيوانات)، وسارالي (لبيعها هوت دوجز مسيئاً، وللظروف الظالمة التي تُضخّص لها موظفيها)، وفيليب موريس (لأمور شتى تتراوح بين تخريب الصحة العامة، وتدمير البيئة، ودعم التهريب وعصابات المخدرات).<sup>(٢)</sup>

وأخيراً، فإن نوعية السلع ليست هي الأمر الأوحد الذي يقرّر نوعية حياتنا كبشر. وإذا كان ثمر السلعة يأتي على حساب حقوقنا واستقلالنا وأمننا، فربما كان التوفير غير «حذران»

الطازجة، واللحم، والمحارم الورقية وبعض المنسوجات)؛ ويعود السبب في ذلك إلى انعدام كلفة الشحن أو كلفة الماركة. كما أنّ بعض السلع المحلية أفضل نوعية من السلع المستوردة التي أعدت بطريقة خاصة لتسكنها من السفر الطويل. وهناك عدد كبير من المنتجات الصادرة عن الشركات المتعددة الجنسية لا تخضع لمعايير الفحص الدقيق من أجل التأكد من نوعية المحتويات، أو معاملة الموظفين، أو أثرها على البيئة.<sup>(٣)</sup> فهذه الشركات أضخم وأكثر انتشاراً من أن تخضع لولاية أي سلطة قضائية.<sup>(٤)</sup>

وهناك العديد من الشركات التي نتأشكك أن تقاطعوها والتي يقاطعها أيضاً معاداً للحرص على الصحة، والناشطون في مجال حقوق الإنسان والحيوان، وامنقاء البيئة. ومن هذه

ثم تُحسب كلّ تقنية مبيحة من أجل حساب الأرباح؛ ولهذا فإنّ كلّ الزبائن - لا اليهود الممارسين لشعائهم فقط، ولا الناس المؤيدين للصهيونية بالتاكيد - ينتهي بهم الأمر إلى دفع هذا التبرّع الهام للكيان الصهيوني.

ولهذا، وتجنيباً لدفع ضريبة تذهب إلى الدولة الصهيونية على الأغلب، انظر إلى رمز الكوشير، وهو خاصة علامة لا أو علامة COR ضمن دائرة قرب اسم السلعة أو شريط الشيفرة. فإذاً وجدت هذه العلامة، اشترِ سلعة أخرى.

١٠ - الآن نخضعنا المقاطعة إلى دفع اسعار أعلى، وللحصول على نوعية أقل؛

ليس بالضرورة، فبعض السلع المحلية أرخص (مثل النباتات والفضفاضا

١ - See Multinational Monitor ([www.essentialmonitor.org](http://www.essentialmonitor.org)), McSpotlight ([www.mcspotlight.org](http://www.mcspotlight.org)), Global Exchange ([www.globalexchange.org](http://www.globalexchange.org)), and Corpwatch ([www.corpwatch.org](http://www.corpwatch.org)).

٢ - Eric Schlosser, **Fastfood Nation**, (London: The Penguin Press, 2001); Michael Massing, "From Protest to Program," *American Prospect*, 2/7/01, [www.prospect.org/print/V12/I2/massing-m.html](http://www.prospect.org/print/V12/I2/massing-m.html)

٣ - On Nestle, see Organic Consumers Action, [www.organicconsumers.org/Organic/ov1n11.cfm](http://www.organicconsumers.org/Organic/ov1n11.cfm) and Baby Milk Action [www.babymilkaction.org](http://www.babymilkaction.org); on Colgate-Palmolive see Holley Knaus, "Behind the Lines, Dirty Colgate," *Multinational Monitor*, 5/92, [multinationalmonitor.org/hyper/issues/1992/05/mm0592\\_03.html](http://multinationalmonitor.org/hyper/issues/1992/05/mm0592_03.html) and People for the Ethical Treatment of Animals, [www.peta-online.org/liv/c/6.html](http://www.peta-online.org/liv/c/6.html); on Sara Lee see Sept-11 shut down the WEF, [www.s11.org/s11-dynamic.html?](http://www.s11.org/s11-dynamic.html?) and [www.s11.org/siss\\_sweatshops.html](http://www.s11.org/siss_sweatshops.html), also [cbae.nmsu.edu/~dboje/usas/pages/hanes\\_sara\\_lee\\_champion.htm](http://cbae.nmsu.edu/~dboje/usas/pages/hanes_sara_lee_champion.htm); on Philip Morris see Jessica Wohl and Brad Dorfman, "USA: Jury Orders Philip Morris to Pay Record \$3 Billion," *Reuters*, 7/06/01, [www.corpwatch.org/news/PND.jsp?articleid=91](http://www.corpwatch.org/news/PND.jsp?articleid=91), and Mark Schapiro, "Big Tobacco," *The Nation*, 6/5/02, [www.pbs.org/now/transcript/transcript\\_pm.html](http://www.pbs.org/now/transcript/transcript_pm.html)

١١ - **«يعتقد أحدُ حقاً أن بإمكان العرب أن يقطعوا علاقاتهم بالشركات الأميركية، وخاصة حين لا يكون هناك أي بدائل»**

ليس العرب مضطرون إلى قطع كلِّ علاقاتهم بالشركات الأميركية لكي تكون المقاطعة فعالة. إنَّ نجاح مقاطعة عددٍ من السلع سيؤسِّل تصديراً إلى للشركات الأخرى، كما سبق أن ذكرنا

ثم إنَّ أحد أهداف هذه المقاطعة هو قطع علاقات التبعيَّة لمصادر الإنتاج غير المحليَّة. وربما اليوم هو أفضل وقتٍ للعمل على خلق بيئة تشجِّع الإنتاج المحلي، بدلاً من الاعتماد على أنظمة حكم غريبة معادية نحن نعلم أنَّه في اليوم الذي كان رئيسُ الحكومة اللبنانية يوقع فيه اتفاقية بمبلغ ٢,٥ مليون دولار مع شركة مايكروسوفت، أوردت الصحافة العالميَّة أنَّ شروع مايكروسوفت في «إسرائيل» تشبَّرت على طول أوتستراد تلَّ أبوب لوحات إعلانات تعيِّر عن امتنانها لما يقوم به جيش الدفاع الإسرائيلي، وذلك يُخَيِّد اكتشاف مجزرة مخيَّم جنين<sup>(١)</sup> هنا

نساء: ألم يكن من الأفضل صرفُ هذا المبلغ على خلق مركز في لبنان للإبحاث والتنمية، بدلاً من أن نَنزَع إلى الهجرة خيرة شبابنا العاملين في هذا المجال؟

١٢ - **«هل ستُطرد المقاطعة المستفهمين الأجانب من البلدان العربية لمجرد حرمان «إسرائيل» من الكوكاكولا؟»**

إذا وضعنا جانباً أسئلةً كثيرةً عن المكاسب الفعلية التي تقفُّها الشركات المتعددة الجنسيَّة للجمهور عامة، فإنَّ السؤال الأساسي الذي علينا أن نتناوله هو: ما الذي أتى بهذه الشركات إلى هنا أصلاً؟ يقول المنطق الاقتصادي: إنَّ أيَّ شركة تفتِّح فرعاً لها في الخارج حين تبلغ للذي الأقصى لنموها في بلدها الأم فماكدونالدز، مثلاً، لا يستطيع أن يفتِّح فروعاً جديدةً له في الولايات المتحدة، وتكاد أوروبا أن تُبلِّغ مداهها الأقصى في استيعابها لهذه المطاعم<sup>(٢)</sup> وهكذا باتت الدولُ النامية في الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا هي أفاقُ النموِّ المرتجاة بالنسبة إلى مثل تلك الشركات

العربية. ولذلك حين يشنَّ الزبائن مقاطعةً ناجحةً لا تُرحل الشركات المستهفنة فجأةً وتزني كلَّ المصاريف التي دفعها في مرحلة التأسيس، وإنما تُعتمد إلى أخذ هبوم الزبائن في الاعتبار، فتُغيِّر من سياستها في إدارة أعمالها وهذا هو هدفنا في هذه الأني - أيَّ أن نُجْعَل هذه الشركات تُثِرُ أن الفلسطينيين، والعرب عامة، يشتر لهم مطالب إنسانية وسياسية واقتصادية محقَّة. وإما هدفنا الأقصى فليس منع الإسرائيليين من شرب الكوكاكولا بل منعهم من أن يُخرموا الفلسطينيين من حقوقهم الإنسانية والوطنية غير القابلة للتصرف.

١٣ - **«البيست المقاطعة، علاقات عامة، فقط، ولن تسبب أيَّ أذى حقيقيٍّ للدولة الصهيونية»**

تقدَّر الأضرار التي تكبُّها هذه الدولة من جراء المقاطعة العربية لها بـ ٤٤ بليون دولار، أيَّ أنها كانت تُخسّر سنوياً ما يساوي المبلغ الذي تنفقاه من الولايات المتحدة كمعونة مالية، بحسب تعبير

Ramsy Short, "Hariri agrees deal with Microsoft for use of latest software," *Daily Star*, 25/4/02, [www.dailystar.com.lb/business/25%5F04%5F02%5F0.htm](http://www.dailystar.com.lb/business/25%5F04%5F02%5F0.htm), and Moulouk Y. Ba-Isa, "Microsoft blames Israeli branch for outrageous advertisement," *Indymedia-Israel*, [www.indymedia.org.il/mc/israel/webcast/25130.htm](http://www.indymedia.org.il/mc/israel/webcast/25130.htm)

Schlösser, op. cit and Paul Taylor, "McDonald's learns the ropes of being an American icon abroad," *Financial Times*, ١٧/4/02, [news.ft.com/ft/gx.cgi?fic?pagenames=View&c=Article&cid=FT3JGQXB50D](http://news.ft.com/ft/gx.cgi?fic?pagenames=View&c=Article&cid=FT3JGQXB50D)



إن أصحاب الامتياز المحلي لا يستطيعون أن يرفض دفع حقوق الملكية للشركة الأم حتى لو أعطي قسم منها للمنظمات الصهيونية

من الأميركيين يشعرون أن على دولتهم أن تكون محايدة في الصراع الإسرائيلي-اللسطيني<sup>(١)</sup> إن هدف حملتنا ليس بالضرورة إغلاق كل شركة تتعامل مع الدولة العبرية، بل أن نشعر من يُؤسّس يدفع حسابات الشركة الغربية العملاقة أن الكيان الصهيوني قد غدا مشكلة غير مريحة. ومن أجل تحقيق هدفنا هذا يكفي أن نتراجع الأرباح والتوقعات الإسرائيلية بضع نقاط - وهذا ما يستطيع المستهلكين المؤيدون لللسطينيين أن يفعلوه بالتاكيد

١٤ - كيف تكون المقاطعة فعالة، وهإسرائيل، اخترقت بعض الأسواق العربية عبر المشاريع المشتركة مع بعض العرب، واللسطينيون أنفسهم يهتمون على التجارة الإسرائيلية،

الإسرائيلي هي: (٢) إن ٨٨٪ من الناتج المحلي الإسرائيلي يأتي من السلع المصدرة، ومع ذلك فإن نسبة الدين الحكومي تقارب ١٠٠٪ من الدخل الوطني العام (٣) وهذا يعني أن الاقتصاد الإسرائيلي عُرضة للحركة الخارجية، وقد يتضرر كثيراً بانخفاض التجارة، ويدين كبير كهذا، فإن انخفاضات طفيفة في النشاط الاقتصادي قد يكون لها آثار ضخمة في الاقتصاد الإسرائيلي. وكلما أعرقّت إسرائيل، نفسها في الوحدة الاقتصادية بتحويلها إلى منبوذ على مستوى العالم أجمع، كان على الولايات المتحدة أن ترمي إليها بمزيد من المال لتتخلّصها، وذلك في وقت يُهبط فيه التقليد الدولي لذلك الكيان هبوطاً مذهلاً. (في أميركا نفسها نذكر استطلاع للرأي أجراه شركة غلوب في ٢٠٠٢/٤/٣ أن ٧١٪

شيمون بيرس (١) فجّى بداية التسعينيات لم تستثمر علناً إلا سبع شركات عملاقة في الدولة الصهيونية من أصل الشركات الخمسة الكبرى في العالم (٢) فاضطرّ الإسرائيليون إلى تصميم مخططات للتفاخي من أجل تبوير السلع المرغوبة، وهذا رفع أسعار السلع في السوق الإسرائيلية بالكامل (٣) فمجرّد غياب السيارات اليابانية عن هذه السوق كلّف الإسرائيلي حتى منتصف التسعينيات حوالي ٢٢٤٣ دولاراً إضافياً عن كل سيارة (٤)

من أجل مكافحة آثار الأزمة الاقتصادية الحالية التي تواجه الكيان الصهيوني تُطالب المجموعات الأميركية الصهيونية كل عائلة يهودية بأن «تشتري بما قيمته ١٠ دولارات فقط من البضائع القادمة من إسرائيل» (٥) فالحق أن الاقتصاد

Motti Besok, "Last Days of the Boycott," in *Davar*, 1/2/94, p. 9, Israeli Ministry of Foreign Affairs, [www.mfa.gov.il](http://www.mfa.gov.il) and Shimon Peres, "Excerpts of Remarks by Foreign Minister Shimon Peres Before the Knesset Economic Committee on the Arab Boycott," Ministry of Foreign Affairs, 21/2/94, [www.mfa.gov.il](http://www.mfa.gov.il)

Besok, ibid. - ٢

ibid. - ٢

Chaim Fershtman and Neil Gandal, "The Effect of the Arab Boycott on Israel: The Automobile Market," in *The Rand Journal of Economics* v. 29, #1 (Spring 1998), p.193-214.

Jewish Solidarity Update, "Get Involved," [www.jafi.org.il/daily/involve.asp](http://www.jafi.org.il/daily/involve.asp) - ٥

Moti Bassok, "IMF Says Israel will grow 3.8% in 2003," *Ha'Aretz*, 21/4/02, [www.haaretzdaily.com](http://www.haaretzdaily.com); "Conflicts Put Israel in Recession," op.cit; Radin, op.cit

Klein, op. cit. - ٧

David W. Moore "Americans Favor Israelis in Current Conflict With Palestinians," *The Gallup Organization*, 4/4/02, [www.gallup.com/poll/releases/pr020404.asp](http://www.gallup.com/poll/releases/pr020404.asp) - ٨

كما أن الفلسطينيين أنفسهم ربما اتحدوا قليلاً أثناء بعض سنوات أوسلو بفضل التجارة مع الدول المجاورة، غير أن أرباحهم تراكمت مع نمو اعظم كثيراً للتجار الإسرائيليين<sup>(٦)</sup>، وبينت الأحداث الأخيرة أن ثمار «النمو» الفلسطيني أثناء الاحتلال عرضة للعولم السريع أمام القوة العسكرية والسياسية الإسرائيلية<sup>(٧)</sup>

#### ١٥ - إن تؤذي المقاطعة العمال العرب الذين يعملون حالياً في الشركات التي تستهدف مقاطعة؟

هذه الحجّة كثيراً ما تستعمل ضد كل حملات المقاطعة في العالم ولكن الحواف

والدائمات، وإنكسروا...<sup>(٨)</sup> إجراءات المقاطعة «إسرائيل»، نجد أن تجارة هذا الكيان مع بلدَيْن عربيَيْن قد زالت بعد زيارة شارون إلى الحرم الشريف.<sup>(٩)</sup> إن هذه المشاريع المشتركة هي التي تمنع عدداً من القادة العرب من العمل الحاسم في وجه التوسّع الصهيوني الاقتصادي، وسيكون هناك المزيد من هذه المشاريع إن لم تقاطع. ولنتذكّر أنّه حين جعلت ديزن في أحد معارضها من القدس عاصمةً للدولة العبرية، كان الوليد بن طلّال - وهو مالك أسهم أساسي فيها - هو من طُلب من للعرب ألا يقاطعوا الشركة.<sup>(١٠)</sup>

إن السوق الإسرائيلية شبيهة بسوق سويسرا، أي أنّها لا تشكّل فرصة اقتصادية كبيرة أمام معظم المستثمرين الأجانب. وإنّما تكمن الفرصة الكبرى في العلاقة التي يمكن أن تنشأ بين «إسرائيل» والأسواق العربية.<sup>(١١)</sup> فما يجذب المستثمرين الأجانب إلى الدولة الصهيونية ليس الوصول إلى ٦ ملايين إسرائيلي بل إلى ٢٨٠ مليون عربي<sup>(١٢)</sup> ولقد بدأ بعض المفاوضين ببناء تلك العلاقة. وهكذا، في الوقت الذي يُعاني فيه الاقتصاد الإسرائيلي خسارة كبيرة في السلع المصدّرة إلى أوروبا التي أخذت بعض دولها (كالنرويج،

١ - Estaban Alterman, "Salesman for the States," *Jerusalem Report*, 10/9/01, [www.jrep.com/Business/Article-4.html](http://www.jrep.com/Business/Article-4.html); Luxner, op.cit

Ibid. ٢

٣ - Reuters, "Israeli exporters complain of European boycott," *Forbes*, 5/5/02, [www.forbes.com/business/newswire/2002/05/05/rtr592583.html](http://www.forbes.com/business/newswire/2002/05/05/rtr592583.html); Gwen Ackerman, "Hi-tech company sees order frozen due to Defensive Shield," *Jerusalem Post*, 21/4/02, [www.jpost.com](http://www.jpost.com); David Horowitz, "Europe Buys the Big Lie," *Jerusalem Report*, 20/5/02, [www.jrep.com/Columnists/Article-0.htm](http://www.jrep.com/Columnists/Article-0.htm)

٤ - "Survey of Expectations in Industry, October-December 2001, Main Findings," Ref 230084, 16/10/01, Israeli Ministry of Industry and Trade, [www.industry.gov.il](http://www.industry.gov.il); Tal Muscal, "Exports to Arab countries up 8% in 2001," *Jerusalem Post*, 6/3/02, [www.jpost.com/Editions/2002/03/06/Digital/Digital.44705.html](http://www.jpost.com/Editions/2002/03/06/Digital/Digital.44705.html)

٥ - "Disney Promotes Israeli Occupation," Friends of Al-Aqsa, [www.aqsa.org.uk/activities/campaign2.html](http://www.aqsa.org.uk/activities/campaign2.html), "Walt Disney Co is a controlling shareholder in Euro Disney with a 39 percent stake," *Middle East Times*, [www.metimes.com/issue99-38/reg/disney...will.htm](http://www.metimes.com/issue99-38/reg/disney...will.htm)

٦ - Ghalia Alut, "Irbid's new industrial park leaves Jordanians divided," *Jordan Times*, December 13, 1997, <http://www.jordanembassyus.org/QZ121398.htm>

٧ - "Palestinian towns suffered \$300-\$400 million worth of damage, UNDP says," *Arabic News*, 9/5/02, [www.arabicnews.com/ansub/Daily/Day/020509/2002050915.html](http://www.arabicnews.com/ansub/Daily/Day/020509/2002050915.html)

من أن تفلق الشركات معاملها لعدم وجود سوق لبضاعتها ليس مبرراً على أي أساس اقتصادي ثابت، فالشركات تُجاري نبض المستهلكين، والإدارة الجيدة ستقوم بدراسة السوق لمعرفة سبب هبوط مبيعاتها قبل وقت كبير من انهيار هذه المبيعات إلى حد التفكير بإغلاق المعامل.

تحاول الشركات على الدوام أن تدافع عن الوضع الراهن عبر العلاقات العامة وحملات الإعلان، ولكن مزاعمها يجب ألا تعطي بمصداقية كاملة. يُذكر أحد الناشطين الجنوبيين ريدو الفعل على دعوتهم للقاطعة فيقول: «بين ليلة وضحايا حاول نظام الفصل العنصري والتجارة الدوليون وغيرهم أن يصولوا أنفسهم إلى أكثر أناس يهتمون بضحايا الأبارتايد!»<sup>(١)</sup>

أما المزايم بشأن غياب الوظائف المحلية فيجب أن توجه إلى الشركات العملاقة مثل ماكدونالدز التي تُستورد طعامها من الخارج، وتُدفع حقوق ملكية عن مبيعاتها إلى الشركة الأم، وفي النهاية تُطرد المنتجين المحليين من سوق العمل.<sup>(٢)</sup>

فموظفو هذه الشركات يُمكنهم أن يعملوا في مشاريع محلية لا تؤدي بحقوق الملكية هذه إلى الخارج.

#### ١٦ - إن يكون المتضرر من القاطعة هو الوكيل المحلي، لا الشركة الأم في الخارج؟

كلاما سيكون متضراً. شُذ مثلاً أصحاب الامتياز لسلسلة مطاعم امبركية تقدم وجبات سريعة. فهم يُدفعون مقدماً ما بين ٥٠٠ ألف دولار ومليون ونصف مليون دولار لكي يُفتحوا ماكدونالدز أو بيرغر كينج، وعليهم أيضاً أن يواصلوا شراء البضاعة من الخارج (كالطعام، والأكواب، والأكياس،...)، وأن يُعطوا جزءاً من أرباحهم إلى الشركة الأم شُراً لبراءة الاختراع.<sup>(٣)</sup> إن الامتيازات (Franchises) هي حقوق تؤول لأصحابها استخدام اسم الشركة ضمن ظروف قانونية محددة، ولا تدفعه أن يكون مالكا كاسال للفروع؛ وقد تُخلق الفروع إن هي حققت أقل مما يُدفع منها من الأرباح أو فُتت سياسات الشركة الأم أو صورتها.

ولنفترضُ جدلاً أن هذه المطاعم التي اشترت الامتيازَ مملوكة ١٠٠٪ من صاحب الامتياز اللبناني (أو العربي)، وأن كل ما يشتريه من طعام ومحامر وأكياس وأكواب (إلخ) قد أُلحق محلياً، فما هي الحاجة في هذه الحالة إلى اسم مستورد؟<sup>(٤)</sup> إن صاحب الامتياز المحلي لا يستطيع أن يُرفض دفع حقوق الملكية للشركة الأم حتى لو أُعطى قسم منها إلى المنظمات الصهيونية

حين يُفتح فرع جديد لماكدونالدز كل أربع ساعات، فهذا النمو إنمّا يصيب شركة ماكدونالدز الأم، لا للمتعامات المحلية المستهكلة.

#### ١٧ - ليس من الأفضل أن ندع الاقتصاد العربي ينمو عبر التجارة الدولية، ثم نستخدم المال الناتج من هذه التجارة من أجل دعم الفلسطينيين؟

كم من المال يكفي لشراء فذ الحصار عن شعب ما؟ حين يكون الفلسطينيون تحت الحصار فإنهم إن يستطيعوا أصلاً

١ - Abdul Minty, "The Anti-Apartheid Movement - what kind of history?" in The Anti-Apartheid Movement: A 40-year Perspective, 26/6/99, African National Congress, [www.anc.org.za/ancdocs/history/aam/symposium.html](http://www.anc.org.za/ancdocs/history/aam/symposium.html)  
 ٢ - Cf. Schlosser, op.cit and at McSpotlight, [www.mcspotlight.com](http://www.mcspotlight.com); Hassan Chaker, Head Mgr McDonalds-Lebanon, 11/05/02.  
 ٣ - Mahmood Kahn, Restaurant Franchising, (New York: Van Nostrand Reinhold), 1992.  
 ٤ - Neil MacFarquhar, "An Anti-American Boycott," *The New York Times*, 10/5/02, [www.nytimes.com](http://www.nytimes.com); Howard Schneider, "Arab Boycott Taking a Bite Out of U.S. Firms," *Washington Post*, 5/2/01, p.A16; Ibtisam Awadat, "Boycott campaigns in Arab World begin to bite," *Star*, 7-13/12/00, [Star.arabia.com/article/0,5596,25-190,00.html](http://Star.arabia.com/article/0,5596,25-190,00.html)  
 ٥ - "Corporate Partners," Jewish United Fund, [www.juf.org/ant/partners.asp](http://www.juf.org/ant/partners.asp).

استخدام أموال التبرعات لشراء حاجياتهم، بل إن تاتي هذه الحاجيات أصلاً إلى ككاكينهم ومستشفياتهم، فمادام هناك حصار فإن «إسرائيل» هي التي تفرّد ما يتخلل إلى الضفة وغزة، ومادامت تهيمن على الفلسطينيين فإن إمكانية حصارها إليهم وأردت على الدوام

وفي نهاية المطاف علينا أن نتذكّر أن العامل الأساسي الذي يعيق نمو الاقتصاد العربي هو وجود هذه الدولة الكاوتونية، التي لا تنفك تزعم المنطقة باحتلالها المتواصل للأراضي، وطريها للمواطنين، وضربها للاقتصادات الإقليمية النامية، وإجبار الدول العربية على تكريس قسم كبير من ميزانياتها لأغراض التسلح، وفيها الآف من الشباب العربي إلى حتفهم ليكر أو إلى أن يتحوّوا حياة مكروسة للقتال بدلاً من الإنتاج. إن المقاطعة لا يمكن أن تُصير اقتصاداتنا العربية أكثر مما نُقلع «إسرائيل»، حين تُرفض نفسها وجيشها ومجازرها علينا.

لا أحد يُطلب منك أن تتوقّفوا عن التبرع للجمعيات الخيرية الفلسطينية ولكن مادمت تفعلون ذلك، فالرجاء أن تُعطوا أيضاً ما يتعلّق بالتبرعات الأميركية أو الدولية الأخرى من الغدا إلى «إسرائيل».

## ١٨ - اليس إعلان المقاطعة الاقتصادية عملاً غير ديموقراطي؟

على العكس إنّه عمل ديموقراطي بامتياز. فالمقاطعة الاقتصادية عمل لاعنف، يتيح للمواطنين جميعهم التعبير عن آرائهم من خلال الإمكانات المتوفرة لديهم، ومن دون فرض هذه الآراء على الآخرين، ومن دون الحاجة إلى الانتماء الحزبي. من خلال المقاطعة يستطيع أيّ كان أن يستخدم ماله كما يشاء، فيحتال هذه السلعة ويوفّر تلك، والحق أن للمدين التفتيشي العلم أو ماله الأسهم في أيّ شركة متعديّة الجنسية قد لا يهتمّان بـ «الناخبين» أو «المواطنين»، ولكنهما مولّمان بـ «المستهلكين». ولهذا فإن ممارسة قوتكم كمستهلك هي فرصتكم المثلى للتأثير في الشركات التي تقرّر بينكم ولطعامكم وصحتكم وأمن مجتمعتكم.

## ١٩ - اليس الأجسدي أن تكون المقاطعة مبادرة حكوميّة بدلاً من أن تكون مبادرة شعبية؟

ليس شركاء أميركا العرب الرئيسيون في ميدان التجارة مؤلفين قانونياً بالدعوة إلى مقاطعة رسمية للدولة العبرية. فالبلديونا دولار تقريباً للذان تتألفها مصر، مثلاً، من المساعدات الأميركية سنوياً يقيان

إليها مشروطين بالأّ تُنشد الحكومة المصرية حروباً اقتصادية على أيّ دولة أخرى تتلقّى المساعدة الأميركية<sup>(١)</sup>. طبعا هذا لم يمنع «إسرائيل» من احتجاز الارصدة الفلسطينية، ومن تدمير البنى التحتية الاقتصادية للسلطة الفلسطينية وتعني في هذه الرحلة أن يُمكن ضبطنا الشعبي حكومتنا من إيجاد ذلك الهامش من التصرّك الذي أوجده الإسرائيليون لأنفسهم رغم حصولهم على المساعدات. لكنّ الأمم من ذلك هو أنّ معظم الحكام العرب والرأسماليين العرب لا يجهلون أنّ هذه المقاطعة هي في صالحهم أصلاً<sup>(٢)</sup>.

إنّنا إذ نناشد المنظمات النسائية والاتحادات والنقابات والمنظمات الشعبية الأخرى مشاركتنا في هذه الحملة، نسعى إلى إشراك الناس في هذه الفئات التي يمتدونها الأكثر أهمية وصنفيّة. كما نُشمل على أن نرسخ في أنفسنا وفي الآخرين إحساساً قوياً بالمسؤولية الشخصية والقدرة الشخصية على التغيير.

## ٢٠ - ألا تعبّر الدعوة إلى المقاطعة عن كرهنا للأميركيين أو لليهود؟

إنّ ما يدفعنا إلى المقاطعة ليس الكراهية. إنّنا لا نقاطع الأميركيين ولا اليهود، بل نقاطع متوجهات الشركات التي تمولّ

١ - وهذا نتيجة لتعديل دوجلاس - كينج «حرية البحار»، الذي اقترحه الكونغرس الأميركي عام ١٩٦٠.

٢ - "٨٦٠ billion, the volume of Arab sums abroad," *Arabic News*, 2/25/02, [www.arabicnews.com/ansub/Daily/Day/020225/](http://www.arabicnews.com/ansub/Daily/Day/020225/)



إن قضيتنا هي من الحق بحيث يلتحق بها كثير من أحرار العالم

ارفض شراء كل ما عليه ترخيص كوشرب (U) او (COR) ارفض كل سلعة تُنتجها شركة تستخدم أرباحها مباشرة من أجل دعم عنصرية «إسرائيل» وعدوانيتها. إختَر أي سلعة منجّعة مطبخاً، حتى لو كان سعرها أغلى قليلاً أو كانت نوعيتها أقل قليلاً

(٧) صوّت لاتصوت. ورّع النسيخ.

(٢) اكتب إلى المنتجين المحليين، وأخبرهم بدعمك لهم، وأطلب منهم أن يستجيبوا لرغبتنا في شراء سلع معينة.

(٤) ألقِ جدرانك بالتوقيع على عريضة موجهة إلى المخازن الغربية تحثها على إيجاد بدائل من البضاعة الداعمة لـ «إسرائيل»

(٥) تعلّم كيف تجد ارتباطات الشركات بهذا الكيان، وذلك من خلال استخدام الإنترنت والمكتبات وغير ذلك.

(٦) ناشِر المطاعم القريبة من مكان عملك أو سكنك أن تتجنّب استخدام بضائع تُدعم «إسرائيل».

(٧) اطلب من طبيبك أن يوصي باستخدام أدوية تُنتجها شركات لا تُدعم الصهيونية

(٨) لا تدع الإحباط يتسلّل إليك لجرّد أنك شخص واحد. تصرف على أساس أن ما تقوم به أمرٌ سيغيّر الكثير وسيغيّر الكثير! **بيروت**

قال: 'ليس الأمر شخصياً، إنّ الشغل هو ما يقضي ذلك'. إنّ هذا أمرٌ شخصي في الصميم، والجدير بالذكر أنّ سوارتز وأباه يملكان ٨٠٪ من أسهم الشركة (١)

بهذه الروحانية نفسها ندعونا نذكّر مديري الشركات وحاملي أسهمها أمثال السيد سوارتز بأنّ العرب بشر أيضاً، «مخاصة الآن» حين يواجهون المجازر والمصاص والاحتلال. فإذا شاء المدراء التنفيذيون أن يستخدموا شركاتهم ليروجوا المصالح الصهيونية فليس في وسعهم أن يتوقّعوا دعم المستهلكين المعادين للصهيونية. فقط حين تُصير الشركات على أن تعامل كل زبائننا على قدم المساواة سيكون بمقدور المستهلكين أن يُصلّوا بين كراهيتهم لمدراء الشركات وإنتاج سلعهم

## ٢٢ - كيف نُشهم فعلياً في إنجاح المقاطعة

بطرق عدّة. ولكنّ عليك أولاً أن تتقّ بانك نُشهم فعلياً كلّما صرفت ليرة واحدة في إنجاح المقاطعة، أو إفشالها.

(١) خذّ لائحة البضائع المستهدفة كما نعتيت للتبضع. انظر إلى ماركات السلعة لتكّم اسم الصنّف، وما إذا كانت كوشراً. إذا لم تكن متأكّداً من هذا الاسم، اسأل صاحب المحزن، وستضمن أن تسأله بصوت عالٍ!

السياسات الصهيونية. وسنواصل الإصرار على أنّنا لا نستهدف الأميركيين ولا اليهود في ذاتهم، كيلاً نتخطّ حركتنا الوليدة إلى محض حملة من الكراهية. إنّنا نؤمن أنّ قضيتنا هي من الحقّ بحيث يلتحق بها كثيرٌ من أحرار العالم بمن فيهم الأميركيون واليهود المعادين للصهيونية، فتزداد حركتنا قوّة على قوّة كما أنّ أعمالنا اللاعنافية ستعرض «العرب» على البحث عن تفسير آخر غير «كراهية العرب لنا» فيُطرح على نفسه أسئلة أعمق عن مخاطر دعمه للصهيونية.

## ٢١ - لا تستهدف هذه المقاطعة شركات لجرّد معتقدات أصحابها الشخصية

حين يصير المديرون التنفيذيون لشركات جبّارة على استخدام قوّة شركاتهم المالية ومصادقتهم من أجل دعم الاقتصاد الإسرائيلي فلا خرّج علينا - نحن الزبائن - إن اعترضنا عليهم. لقد أعلن جيفري سوارتز، بصفتة «المدير التنفيذي لشركة ثيبرلاند»، دعمه للكيان الصهيوني، وبيّنه فُتح مخازن جديدة لتعبرلاند هناك، «مخاصة الآن»، وعزمه على تعبئة اليهود الأميركيين من أجل «مساعدة اقتصاد إسرائيل المريض». ثم أُرّف. ولقد كان العراب (مارلون براندو) على خطأ حين

Elgar Lefkowitz, "Timberland boss: Israeli message is not reaching US," *Jerusalem Post*, 26/4/02, [www.jpost.com/](http://www.jpost.com/) ١ Editions/2002/04/26/News/News.47805.html; "Jeffrey B. Swartz, President & CEO," *Hoovers*, [www.hoovers.com/co/capsule/40,2163,12390,00.html](http://www.hoovers.com/co/capsule/40,2163,12390,00.html)



# أرقام الآداب

إعداد: كش.

- عدد الشركات، من بين ٥٠٠ شركة عملاقة في العالم، تعاملت مع إسرائيل قبل تراخي المقاطعة العربية: ٧
- قيمة الخزانة الذي فرضته أميركا على شركة لورال خرقها القوانين المضادة للمقاطعة عام ١٩٨٦ بـ ١٤ مليون دولار
- المبلغ التقديري لكلفة المقاطعة العربية لـ «إسرائيل» حتى عام ١٩٩٤: ٤٤ بليون دولار
- عدد القوانين المضادة للمقاطعة التي سنتها أميركا بين عامي ١٩٥٩ و ١٩٩١ من أجل إبطال مفعول المقاطعة العربية: ٦
- عدد البلدان الأخرى التي أقرت قوانين ضد المقاطعة بعد توقيع أوسلو: ٥
- عدد الدول العربية التي تدعم حالياً إعادة تفعيل المقاطعة العربية الرسمية للدولة العبرية: ٤
- نسبة النمو في الاستثمارات الأجنبية في «إسرائيل» بعد انتخاب «داعية السلام» ابهرت باراك: ٣٨٪
- نسبة هذا النمو الناجمة عن شراء إنتل لشركة DSP الإسرائيلية بمبلغ ١.٦ بليون دولار: ٤٠٪
- عدد الفلسطينيين (بحسب سجلات الأمم المتحدة) الذين ينتظرون عودتهم إلى الأراضي التي تقام عليها الشركة المذكورة: ١٤٣٤٥٠
- قيمة البضاعة المستوردة من أميركا إلى «إسرائيل» عام ٢٠٠٠: ٩٧٥ بليون دولار
- قيمة البضاعة المصدرة من أميركا إلى «إسرائيل» عام ٢٠٠٠: ٧.٥ بليون دولار
- قيمة البضاعة المصدرة من أميركا إلى السعودية ومصر: ٩.٧٠ بليون دولار
- العدد التقديري للشركات الإسرائيلية العاملة في مصر عام ٢٠٠٠: ٣٠
- نسبة نمو الواردات من «إسرائيل» إلى السعودية لعام ٢٠٠٠: ٢٨
- نسبة التجارة الأردنية - الإسرائيلية من مجمل التجارة العربية - الإسرائيلية لعام ٢٠٠٠: ٥١٪
- نسبة التجارة التي تتم بين الدول العربية من مجمل التجارة العربية مع بقية أنحاء العالم: ٨٪
- نسبة المنتجات المحلية المباعة في مكدونالدز - إسرائيل، إلى المنتجات المحلية المباعة في مكدونالدز - لبنان: ٨٠ صفر
- عدد الشيكات التي أعطاها مكدونالدز - إسرائيل لجمعية خيرية إسرائيلية للأطفال منذ افتتاح مطاعمه عام ١٩٩٣: مئات الآلاف
- عدد الأسابيع التي أعطى خلالها مكدونالدز - الأردن ١٠٪ من أرباحه لجمعية خيرية تعنى بالفلسطينيين: ٢
- مرتبة مكدونالدز بين الشركاء المتحدين في الصندوق اليهودي الموحد، وهو مساهم في الصندوق القومي اليهودي: ٣
- الترتيبات على المنتجات الأميركية في لبنان بسبب الدعوات إلى المقاطعة: ٥٠
- نسبة اللبنانيين الذين ورد أنهم يقاطعون بشكل قاطع المنتجات الأميركية في استطلاع في ٦ أيار (مايو) ٢٠٠٢: ٢٥٪
- نسبة الذين وصفوا أنفسهم بـ «دعاة» للشركات الأميركية الداعمة لـ إسرائيل، إلى الذين قالوا إنهم وجدوا بدائل للمصالح الأميركية: ١٢
- نسبة اللبنانيين الذين يفضلون بضاعة محلية لأسباب وطنية، إلى الذين يفضلون بضاعة أجنبية بسبب النوعية: ٢: ١
- من ٢٠ ألف علبة مارلبورو كانت تباع يومياً في لبنان، عدد العلب المباعة حتى ٣٠ نيسان (أبريل) ٢٠٠٢: ٥٠٠
- نسبة انخفاض مبيعات كاتناكي فرايد تشيكن ومكدونالدز، على التوالي، في مسقط في الشهور الأربعة الأولى من عام ٢٠٠٢: ٤٥٪ و ٦٥٪
- نسبة انخفاض مبيعات هروكول أند غامبل، وبيبي كولا، وكوكاكولا، على التوالي، في جدة حتى أيار (مايو) ٢٠٠٢: ٣٥٪ و ٤٥٪ و ٦٠٪
- عدد اتصالات المصالح الأوروبية التي أعلنت حتى ١٥ أيار (مايو) ٢٠٠٢ رفضها التعامل مع البضائع الإسرائيلية: ٣
- عدد الجامعات الأميركية التي بدأ طلاب وأساتذة فيها حركات لم سحب استثمارات جامعاتهم من «إسرائيل»: ٣٠
- نسبة انخفاض استيراد مخازن ماركس أند سبنسر لبضاعة دلتا غلب الإسرائيلية، وهي زهورها الأصفر، عام ٢٠٠١: ٢٣٪

إعداد: ك.ش.

- 1, 3, 5) Motti Besok, "Last Days of the Boycott," *Davar*, 1/02/94, p.9
- 2) Eli Groner, *Jerusalem Post*, [www.jpost.com/com/Archive/15.June.1999/Business/Article-5.html](http://www.jpost.com/com/Archive/15.June.1999/Business/Article-5.html)
- 4) "Fighting the Arab Boycott," Jewish Virtual Library, [www.us-israel.org/jsource/US-Israel/Fighting\\_the\\_boycott.html](http://www.us-israel.org/jsource/US-Israel/Fighting_the_boycott.html)
- 6) Dina Ezzat, "The Arab View: Boycott? Not so simple," *Al-Ahram Weekly*, 24/04/02
- 7-8) Hillel Goldberg & Simon Gruver, "Peace Dividend: Israel set for growth," *International Jewish News*, [www.ijn.com/specials/152.htm](http://www.ijn.com/specials/152.htm)
- 9) UNRWA, via Palestine Remembered, [www.palestineremembered.com/Gaza/Iraq-al-Manshiyya](http://www.palestineremembered.com/Gaza/Iraq-al-Manshiyya)
- 10) "U.S. Trade with Israel," Jewish Virtual Library, [www.us-israel.org/jsource/US-Israel/U.S.\\_Trade\\_with\\_Israel.html](http://www.us-israel.org/jsource/US-Israel/U.S._Trade_with_Israel.html)
- 11) Esteban Alterman, "Salesman for the States," *Jerusalem Report*, 10/9/01, [www.jrep.com/Business/Article-4.html](http://www.jrep.com/Business/Article-4.html)
- 12) Hugh Pope, "Arab nations fuel a boycott of US goods," *Dow Jones Newswires* 21/4/02, [www.globes.co.il/serveEN/globes/docview.asp?did=579094&fid=942](http://www.globes.co.il/serveEN/globes/docview.asp?did=579094&fid=942)
- 13) Larry Luxner, "Arab-Israeli Peace Could Unlock Enormous Trade Potential," *The Washington Diplomat*, [www.washingtondiplomat.com/00-08/a2\\_8\\_00.htm](http://www.washingtondiplomat.com/00-08/a2_8_00.htm)
- 14-15) Tal Muscal, "Exports to Arab countries up 8% in 2001," *Jerusalem Post*, 6/03/02, [www.jpost.com/Editions/2002/03/06/Digital/Digital.44705.html](http://www.jpost.com/Editions/2002/03/06/Digital/Digital.44705.html)
- 16) "\$800 Billion: the volume of Arab sums abroad," *Arabic News*, 25/02/02, [www.arabicnews.com/ansub/Daily/Day/020225/2002022524.html](http://www.arabicnews.com/ansub/Daily/Day/020225/2002022524.html)
- 17) McDonalds-Israel, [www.mcdonalds.com/countries/israel/index.htm](http://www.mcdonalds.com/countries/israel/index.htm); Hassan Chaker, Head Manager, McDonalds Lebanon, personal communication, 5/11/02
- 18) McDonalds-Israel, [www.mcdonalds.com/countries/israel/index.htm](http://www.mcdonalds.com/countries/israel/index.htm)
- 19, 27) Lachlan Carmichael, "Arab Boycott Campaign Worries US Businesses," *Arab News*, 1/05/02, [www.palestinecampaign.org](http://www.palestinecampaign.org)
- 20) "Corporate Partners," Jewish United Fund, [www.juf.org/cent/partners.asp](http://www.juf.org/cent/partners.asp)
- 21) وشركات أميركية تلقت على المقاطعة بخفض أسعارها بنسبة ٥٠ بالمئة، *المستقبل*، ٢٠٠٢/٥/١، ص ٨.
- 22-24) *الدولية للمعلومات تسأل اللبنانيين عن المقاطعة، النهار*، ٢٠٠٢/٥/١٢، ص ٥.
- 25) *أيهيك وكامبر؟ وجماعات الطالب في الولايات المتحدة، المستقبل*، ٢٠٠٢/٥/١، ص ٨.
- 26) Nadim Ladki, "Arab Campaign to Boycott U.S. Goods Picks Up Steam," *Reuters*, 29/04/02, [www.story.news.yahoo.com](http://www.story.news.yahoo.com)
- 28) BBC, "Israeli Boycott calls grow," 7/4/02, [news.bbc.co.uk](http://news.bbc.co.uk); "Unions demand boycott of Israeli products," 10/4/02, [www.Norwaypost.no](http://www.Norwaypost.no); Gween Ackerman, "Hi-tech company sees order frozen due to Defensive Shield," *Jerusalem Post*, 21/04/02, [www.jpost.com](http://www.jpost.com)
- 29) Eric Hoover, "A Diverse Pro-Palestinian Movement Emerges on College Campuses," *Chronicle of Higher Education*, 17/05/02, [chronicle.com/free/48/36/36a04101.htm](http://chronicle.com/free/48/36/36a04101.htm)
- 30) "Delta Galil Announces 4th Qtr & Yr 2001 Results," *Delta Galil*, 3/05/02, [www.deltagalil.cp/PublicStory.asp?Id=37](http://www.deltagalil.cp/PublicStory.asp?Id=37)

# عن الصهيونية ونزعة التفوق العرقي اليهودي

من أجل عملية سلام حقيقية

• جوزيف مسمد •

## براغماتية أم عرقية؟

هل مسألة عودة اللاجئين الفلسطينيين غير عملية لأن إسرائيل أصغر من أن تحتمل ذلك من الناحية الديموغرافية؟ يبدو واقع الأمر على هذا النحو، ذلك لأن إسرائيل تواصل تسويق نفسها بوصفها ملاً أخيراً للآيين من يهود الشتات في الأميركيتين وفي روسيا، الذين كان اهتمامهم بالهجرة إلى فلسطين - برغم الجهود الصهيونية الحثيئة - فاتراً (باستثناء أولئك الذين هاجروا من روسيا بين عامي ١٩٩٠ و٢٠٠٠، والكثير منهم لم يكونوا يهوداً على الإطلاق كما أضح). وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠١، وفي الوقت الذي كان الجيش الإسرائيلي يواصل فيه قتل المقاومين الفلسطينيين في الأراضي المحتلة رقمضهم واغتالهم، كان رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون يتعهد بـ جلب مليون يهودي إضافي إلى إسرائيل وقيل إن شارون قد يخشع، مع قرب تصويت بشر اليهود الروس، أن يشجع نصف مليون يهودي أرجنتيني على اللجوء والاستيطان في الدولة اليهودية. بعد أن أثر اليهود الأميركيون بغالبيتهم الساحقة أن لا يُخطوا بنعمة «الخلاص» في إسرائيل بل أن يعوضوا الإسرائيليون اليهود عن ذلك

النحو التالي، ليس من البراغماتية (العملانية) إعطاء اللاجئين حق العودة ولا إعادة ممتلكاتهم إليهم؛ ولا تفكيك المستوطنات في الأراضي المحتلة؛ ولا إعادة المناطق المحتلة إلى السيطرة الفلسطينية؛ ولا إنهاء جوانب الاحتلال الإسرائيلي كافة. علاوة على ذلك تم الجهر دوماً بأن تحويل إسرائيل إلى دولة غير يهودية (اقرأ: غير عنصرية) ليس هو الآخر امراً براغماتياً، علماً أن الهوية اليهودية لإسرائيل لم تكن يوماً جزءاً من المفاوضات الجارية

وفي المقابل شددت حجج هذا الخطاب على الأمور «البراغماتية» التالية: سيكون براغماتياً أن يتخلى الفلسطينيون عن حق العودة وأن يتقبلوا العيش في دولة تنقسم بنزعة التفوق اليهودي كمواطنين من الدرجة الثالثة؛ وأن يعيشوا في بانتوسستانات (معازل) يصاصرها الإسرائيليون ويتحكمون بها بدلاً من أن يختاروا الاستقلال؛ وأن تبقى إسرائيل دولة تسود فيها نزعة التفوق العرقي اليهودي. وعليه، فإن تحديد المعايير التي يحكم فيها على هذه الحلول بالعملانية أو اللاعملانية هو السؤال الذي مفتت يترجف نفسه بالحاج

لا جدال بعد اليوم، حتى في أوساط كثير من الإسرائيليين، في أن واقع الصهيونية على الشعب الفلسطيني خلال الأعوام المئة الأخيرة يشمل طرد غالبية الفلسطينيين من أراضيهم وبيوتهم، ومن ثم مصادرة ممتلكاتهم لصالح اليهود حصراً، ومنح اللاجئين من العودة. كما يشمل فرض نظام إدارتي عسكري على الفلسطينيين الباقين داخل حدود ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٦، حين تحول بعد هذا التاريخ إلى نظام تمييز مني. تسم بنزعة التفوق العرقي اليهودي. وهو يشمل أيضاً إخضاع الضفة الغربية وقطاع غزة وسكانيهما لاحتلال عسكري ولنظام إدارتي طوال الأعوام الخمسة والثلاثين الأخيرة، والاستعمار متواصل لهذه الأراضي المحتلة. فهل يمكن إيجاد حل للصراع الذي جات به الصهيونية من أوروبا وفرضته على شعب غالبية من الغالخن؟

مذ أن بدأت العملية السلمية، في أوسلو عام ١٩٩٣ ما انكسرت معظم السجلات في الخطاب الرسمي الإسرائيلي والأميركي والفلسطيني الدائرة حول كيفية إنهاء الصراع بين الصهيونية والفلسطينيين. تتبدد على مسألة البراغماتية في مواجهة الختالية وجاء منطلق هذا الخطاب على

♦ استاذ العلوم السياسية في جامعة كرومبيا في نيويورك كتابه اثار استعمارية: إنشاء الهوية الوطنية في الأردن نشر بالكتيرية عام ٢٠٠١.

بان يقدموا من «مفاهيم» الأميركي دعماً ماديّاً وسياسيّاً لدولة الإپارتايد اليهودية<sup>(١)</sup> فمن البين، إذن، أنّ إسرائيل التي تستطيع أن تستوعب في حدودها الضيقة ملايين إسرائيليّين من اليهود تستطيع أن تفعل الأمر نفسه باللاجئين الفلسطينيين الذين طرّتهم من أرضهم التي تدعو أركان اليهود الجدد إلى استيطانها!

ولكنّ كلّ الحلول التي قدّمها الفلسطينيون واليهود الإسرائيليّون، الرسميون وغير الرسميين، لعلاج «مشكلة» اللاجئين يبدو أنها تنفّذ على لاصحان عريضة اللاجئين إلى أراضيهم. وتشمل الأمثلة الحديثة على مثل هذه الاقتراحات كتاب دونا آرّز من لاجئين إلى مواطنين: الفلسطينيون ونهاسية الصمراع المصريّ - الإسرائيليّ والانتراخ الذي فسّره

«برنامج جامعة هارفرد عن تحليل الصراع الدوليّ وحله»، وقد ناقشته فريق من الفلسطينيين والإسرائيليّين، وكتبه كلّ من خليل شقافلي وجوزيف ألّز<sup>(٢)</sup> فالغرض للخطر بالنسبة إلى وأعضائي هذه الاقتراحات وكثير غيرهم إنّما هي محافظة إسرائيل على تفوّقها العرقيّ اليهوديّ (اللقب بـ «هويّتها اليهودية»). بل إنّ ياسر عرفات نفسه، وفي محاولاته المتواصلة للحفاظ على سلطته على حساب أرواح شعبه وحقوقهم، فوّض في تشرين الثاني (نوفمبر) واحداً من موظفيه هو سري نسّيج، ممثّل السلطة الفلسطينية في القدس الشرقية، بالتخلّي عن حقّ اللاجئين الفلسطينيين في العودة. وقد أكدّ نسّيج أيضاً، أمام فريق من أعضاء الكنيست الإسرائيليّ يمثّلون حزب ميريتز اليساريّ، ما يلي: «إذا أراد الفلسطينيون حلاً، فإنّ

علينا أن نلخّذ رفض إسرائيل [السماع للفلسطينيين بالعودة] في الاعتبار». وهذا تنازل سارخ أعضاء الكنيست إلى الترحيب به وتلقّوه جديراً بـ «الدس»<sup>(٣)</sup> ورهبت صحيفة هاروتس الليبرالية الإسرائيلية بهذا التنازل فوراً، كما فعل واحد من صحفييها الرئيسيين هو داني روينشتاين (الذي يُعتبر عادة متعاطفاً مع الفلسطينيين)، ولكنّه أضيف لأن لا يكون نسّيج ممثلاً للبالبة الرأي العام الفلسطيني<sup>(٤)</sup> غير أنّ شيئاً من هذا لم ينعكس على المستوى الرسميّ الإسرائيليّ. وفيّ عرفات من أن لا تتعامل إسرائيل جديّاً مع تنازل نسّيج، فحسب بنفسه صراحةً عن «تفهّمه» و«احترامه» لحاجة إسرائيل إلى الحفاظ على نزعة تفوّقها العرقيّ اليهودية، وذلك في مقالة نشرتها في جريدة فيسويويوك تايمز في هذه

١ - Emma Brookes and Ewen MacAskill, "Sharon Wants 1m New Jews for Israel," *The Guardian*, November 7, 2001.

٢ - Donna E. Arz, *Refugees into Citizens, Palestinians and the End of the Arab-Israeli Conflict* (New York: Council on Foreign Relations, 1997); and Joseph Alpher and Khalil Shikaki, "The Palestinian Refugee Problem and the Right of Return," Working Paper Series, No. 98-7, Weatherhead Center for International Affairs, Harvard University, May 1998.

وحده نبيل قسيس لم يشارك في الصياغة النهائية للتقرير، من بين أفراد الفريق الفلسطينيّ الذي ضمّ (بالإضافة إلى خليل شقافلي) براغمايين فلسطينيين آخرين وهم غسان الخطيب، وإبراهيم دقاق، ويزيد سامي، ونديم روحانا، ونبل قسيس (انظر صفحة ٢). ومن بين المشاركين الإسرائيليّين واليهود الأميركيّين جوزيف ألّز، وغابرييل بن دور، ويوسي كاتز، وموشي ملون، وزئيف شيف، وشيمون شامير، وهيرتس كلّمان.

٣ - أسعد تلحمي، «فلسطينيون يهزمون السلطة بإطلاق بالون اختبار بشأن قضية اللاجئين، وإسرائيليّون يرحّبون بالواقعية»، جريدة الحياة ١٦ تشرين الثاني، ٢٠٠١، ص ٨.

٤ - المصدر السابق.

المقالة يؤكّد عرفات، دونما خجل، «أننا ننقّم مخاوف إسرائيل الديموغرافية، وننقّمهم أنّ على حقّ عودة اللاجئين الفلسطينيين، الذي كُفّله القانون الدولي» وقرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤، أن يطبّق بطريقة تأخذ هذه المخاوف في الاعتبار.<sup>(١)</sup> ومخفى عرفات يقول إنّه يتطلّع إلى التفاوض مع إسرائيل حول حلول خلاقة للنسبة اللاجئين مع احترام مخاوف إسرائيل الديموغرافية، «أي بالأحرى احترام مخاوفها التثوقية العرقية اليهودية». غير أنّ ما يجعل عودة اللاجئين الفلسطينيين الذين طردتهم إسرائيل، وسرقت وماتزال تسرق أراضيهم، أمراً غير عملي ليس في الواقع اعتبارات جغرافية أو ديموغرافية، ولا عوائق بيئية أو لوجيستية، وإنما كونهم غير يهود<sup>(٢)</sup> كما يُساري البعض في أنّه لا يُمكن لإسرائيل أن تكون دولة لكل مواطنيها لأنّ هذا يعني أنّها لن تستطيع أن تبقى دولة يهودية بل ستصبح دولة إسرائيلية، والحقّ أنّ الكلام العنصري عن «الخطر الديموغرافي» الذي يشكّله الفلسطينيون

على إسرائيل يهودية عرقية متفوّقة لا يتحصّر فقط بأرييل شارون وباليمن اليهودي الإسرائيلي (الذي يشكّل في كلّ حال غالبية في إسرائيل اليهودية) بل يطول اليهود الإسرائيليين الليبراليين واليساريين أيضاً. ففي كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٠، عقّد «معهد السياسة والإستراتيجية» في مركز هرتليا المتداخل المناهج في إسرائيل مؤتمره الأوّل ضمن ما سيكون سلسلة من المؤتمرات السنوية التي تُعنى بقوة إسرائيل وأمنها، ولاسيّما في ما يخصّ الحفاظ على هوية إسرائيل المُقسّمة بالنزعة التثوقية العرقية اليهودية وكانت واحدة من النقاط الأساسية في التقرير الذي صُنّف عن هذا المؤتمر هي القلق من ضخامة أعداد اليهود الراجع وجوبهم للمحافظة على تلك النزعة في إسرائيل: «إنّ معدّل الولادة العالمي للصّغير داخل حدود ١٩٤٨ يُطرح السؤال عن مستقبل إسرائيل كمولة يهودية». وأمام إسرائيل إستراتيجيتان بديلتان: التكيّف أو الاستيعاب. الاستراتيجية الأخيرة تتطلّب سياسة

ديموغرافية صهيونية حيوية بعيدة المدى تُضخّم آثارها السياسية والاقتصادية والتربوية الطليعة اليهودية لإسرائيل.<sup>(٣)</sup> ويضيف التقرير بنبذة تأكيدية أنّ «أولئك الذين يُدعمون الحفاظ على هوية إسرائيل.. يوصفها دولة يهودية للأمة اليهودية». يشكّلون غالبية بين السكان اليهود في إسرائيل.»

لم يكن المؤتمر المذكور جهداً فردياً؛ فترئيس إسرائيل نفسه، موشيه كاتساف، هو من رُحّب بالحمس. وشارك في رعاية هذا المؤتمر كلّ من اللجنة الأميركية اليهودية، ومركز إسرائيل للنمو الاجتماعي والاقتصادي، ووزارة الدفاع الإسرائيلية، والوكالة اليهودية، والمنظمة الصهيونية العالمية، ومعهد الأمن القومي في جامعة حيفا، ومجلس الأمن القومي الإسرائيلي التابع لمكتب رئيس الوزراء. وقدم المؤتمر خمسين متحدثاً، بمن فيهم مسؤولون حكوميون وعسكريون رفيعو المستوى، رؤساء وزارة سابقون ولحقون، وأساتذة جامعات، وشخصيات من عالم المال والإعلام، علاوة على

١ - Yasser Arafat, "The Palestinian Vision of Peace," *New York Times*, 3 February, 2002.

٢ - للتوسّع في معرفة كلّ الحلول المقترحة لمشكلة اللاجئين انظر: Joseph Massad, "Return of Permanent Exile," in Nasser Aruri, ed., *Palestinian Refugees and the Right of Return* (London: Pluto Press, 2001).

٣ - لمقاطع مختارة من تقرير المؤتمر انظر: "The Herzlia Conference on the Balance of National Strength and Security in Israel," *Journal of Palestine Studies*, No. 121, Autumn 2001, p. 50-61.



فؤاد عرفات سري نسيجه بالتختي عن حق العودة، واك «نقلهم مخاوف إسرائيل الديموغرافية»

«اليهودية»، تبدى في حادثة شهيرة. فحين اكتشف المستعمرون الصهيونية عام ١٩٠٨ أن شجيرات إحدى الغابات، التي أنشئت في منطقة بن شimon قرب اللد إحياءً لذكرى ثيودور هرتزل، كان العرب هم من زرعوها، قاموا باستئصالها ثم أعادوا زرعها من جديد (١)

وحقيقة الأمر أن الحرس على التلّوق العربي اليهودي في إسرائيل ساند في جميع المراحل، بحيث نُشرت الجريدة الإسرائيلية الرسمية البارزة نوفوسيتي في كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٠ مقالة بقلم إحدى صحافياتها البارزات، وهي ماريان بيلنكي، بعنوان «كيف تُحبرهم على الرحيل»، وفيها اقترحت أن تُهدد الحكومة الإسرائيلية بضخ العرب من أجل دفعهم إلى سفارة البلاد. وبحسب الجريدة الإسرائيلية هاريس فابن المؤلفة اقترحت أيضاً: «أن تُطلق الطريقة الصبئية لخفض معدلات الولادة على السكان العرب في إسرائيل من أجل خفض معدلات ولادتهم هم أيضاً. وبحسب هذه الطريقة يُسرّم

ويُزرو لهم وظائف في بلدان الجوار، وأن يحرموهم في الوقت نفسه من أي وظيفة في بلدنا نحن... وعلى عملية المصادرة وعملية إزاحة الفقراء أن تُجرى بكمّ وحذر... فليتوفّم أصحاب الممتلكات غير المنقولة أنهم يفشوننا ببيعهم إيماناً أشياء أغلى بكثير من قيمتها الفعلية غير أننا لن نعود ونبيعهم شيئاً منها» (٢)

ولكن قبل إخراج السكان الأصليين من بلادهم سيحتاج إليهم للقيام ببعض المهام الضرورية. «إذا انتقلنا إلى منطقة فيها حيوانات متوحشة لم يُقتلها اليهود - كما الأقاعي الضخمة وما إلى هنالك - فسيستُخدم السكان الأصليون. قبل أن أعطيهم وظائف في دول الجوار، من أجل إيداع هذه الحيوانات. وسيقدم اليهود مكافآت شئنة مقابل جلود الأقاعي، وغير ذلك، ومقابل بيعها أيضاً» (٣). غير أن هذه الخطة لم تتم بالتكتم والحدس اللذين أمل بهما هرتزل. بل إن جزءاً من «غروهم لسوق للعمل»، الذي كان يُقترح بموجبه أن يُشمل اليهود وحدهم في الأرض

أكاديميين أميركيين يهود وعناصر مؤثرة في اللوبي الصهيوني الأميركي.

لم تكن نتائج بحث هذا المؤتمّر ولا التزاماته ظاهرة جسيمة في الفكر الصهيوني على الإطلاق. ذلك أن الحرس على التلّوق الديموغرافي اليهودي قديم قديم الحركة الصهيونية نفسها. فقد كان مؤسس هذه الحركة، ثيودور هرتزل، هو من قسّم أن على اليهود الأوروبيين أن يشكّلوا أغلبية إثنية - عرقية عبر تفوق ديموغرافي. إذ أكد هرتزل، وبقار أن «تسلّل [اليهود] محكوم بنهاية سيئة. فهو سيتواصل حتى يلغ الألفة المحتومة، حين يُشعّر السكان الأصليون أنهم مهذّون فيجب عليهم الحكومة على وقف تدفق يهود جدد. إن الهجرة، تبعاً لذلك، لا جدوى لها إلا إذا كان لنا الحق المطلق في مواصلة مثل هذه الهجرة» (٤). ولتحقيق هذا ينبغي على المستوطنين اليهود أن يصابروا «بلطف مع ملاكح السكان الأصليين وأن يحاولوا أن يُشكّلوا السكان المعنويين على مغادرة الحدود. وذلك بأن

١ - Theodor Herzl, *The Jewish State* (New York: Dover Publications, 1988), p. 95.

٢ - Theodor, Herzl, *The Complete Diaries of Theodor Herzl*, edited by Raphael Patai, and translated by Harry Zohn, Volume I (New York: Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960), p. 88.

Ibid., p. 98.

٤ - See David Hirst, *The Gun and the Olive Branch, The Roots of Violence in the Middle East* (London: Faber and Faber, 1984), p. 25.

الأشخاص الذين لهم أكثر من ولد من فوائد مختلفة، ويُحسرون وظائفهم، ويسلب عليهم خطر النفي. كما سيتم تقديم مكافآت نقدية للشبان الذين يوافقون طوعاً على أن يُحسروا...»

لاحقاً قال محررُ الجريدة إن نشر هذه المقالة كان خطأ فادحاً،<sup>١</sup> وفصلَ المحررُ المسؤولَ عن نشرها مدة ثلاثة شهور. غير أن هارثس استغفرت ألا تتلقى الجريدة «أي ردود من القراء أو من المثليين العلنيين للجالية الروسية في إسرائيل»<sup>(٢)</sup> ولكن المستغرب هو أن شتغفرب هارثس من هذه الظاهرة على الإطلاق. فوزيرُ المباحة بني ألون (من حزب موليديت)، الذي حلّ مؤخرًا محلَّ الوزير الإسرائيلي رحيبعام زئيفي الذي اغتيل، اقترح - شأن سلفه - في ١ شباط (فبراير) ٢٠٠٢ أن يُطرد جميعٌ للمواطنين العرب من إسرائيل.<sup>(٣)</sup>

وبالإضافة إلى الفلسطينيين الذين قُهِموا الصهيونية على ما هي عليه حشاً

وقاوموها منذ نشأتها في نهاية القرن التاسع عشر،<sup>(٤)</sup> ثمة عدد كبير من اليهود الذين رفضوا الحركة الصهيونية لرفضهم خطتها المعلن لليهود والفلسطينيين أيضاً. ففي زمن ميكر يعود إلى عام ١٩١٩ قدم جوليس كائ، وهو عضو يهودي في الكونغرس عن ولاية سان فرانسيسكو، بياناً إلى الرئيس ويلسون، صوّق عليه ٢٩٩ يهودياً، حاخامات وعلمانيين. وقد رفضت الوثيقة، التي دانت الصهاينة لمحاولتهم فصل اليهود عن الأغيار ولتأليب مجرى التاريخ السائر باتجاه التخصر، قيام دولة في فلسطين تقتصر على اليهود لكون هذا تقييماً لـ «مبادئ الديموقراطية».<sup>(٥)</sup> والحق أن هناك عدداً من اليهود الأميركيين البارزين لم يتوقفوا عن الإحساس بالرعب حيال الخطط الصهيونية على امتداد أربعينيات القرن العشرين. فجايمس ن. روزنبرغ من اللجنة الأميركية اليهودية دان المخططات الصهيونية لإقامة دولة يهودية صرفة على

اعتبار ذلك عملاً غير ديموقراطي. وفي مقالة مثيرة ظهرت لاحقاً في الصحافة الأميركية وثّقتُ الحنج الصهيونية، اعترض روزنبرغ على إلغاء حقوق غير اليهود نتيجة لإنشاء دولة تتسم بنزعة التفوق العرقي اليهودي.<sup>(٦)</sup> ويسبب السياسات الصهيونية في إسكات أي نقر يهودي داخل المنظمات اليهودية الأميركية، وفي تهديد أعضائها في المؤتمر المركزي للحاخامات الأميركيين في حزيران (يونيو) ١٩٤٣، تصوف الصاخام الإصلاحي لئوي والتي (المسادي للصهيونية عداءً ضارياً) من أن يكون الحاخام الصهيوني الأمريكي ستيفان وايز قد كُشف، بالطفيان الذي مارسه على الحاخامات الذين لم يتوقفوا للإجماع، ما قد يُلحق الصهاينة بالحرب.<sup>(٧)</sup> هذا وقد واصل الأميركيون اليهود الممانين للصهيونية حتى حلول عام ١٩٤٨ دعمهم للخطط العرقية التفوقية اليهودية التي وضعتها

١ - Lily Galili, *Ha'Aretz*, January 28, 2002.

٢ - انظر «خليفة زئيفي يُعمر لرحيل الفلسطينيين»، في جريدة الحقائق، ٢ شباط ٢٠٠٢، ص ٤.

٣ - عن المقاومة الفلسطينية انظر: Rashid Khalidi, *Palestinian Identity, The Construction of Modern National Consciousness* (New York: Columbia University Press, 1997), and David Hirst, op. cit.

٤ - "Protest to Wilson Against Zionist State," *New York Times*, 5 March 1919, p. 7, cited in Thomas Kolsky, *Jews Against Zionism, The American Council For Judaism, 1942-1948* (Philadelphia: Temple University Press, 1990), p. 31.

٥ - Ibid, p. 41.

٦ - Ibid., p. 73.

الصهيونية، ويعد ذلك التاريخ تقلص أكثر الدعم الذي كانوا قد تلقوه في العقود السابقة أمام حقيقة المذابح النازية (الْحَرْقَة) وقيام الدولة ذات النزعة العرقية اليهودية في فلسطين

أما القوانين التي تحمي التفوق العرقي اليهودي في إسرائيل، فهي قانون العودة (١٩٥٠)، وقانون المواطنة (١٩٥٢)، وقانون الوضع الشرعي (١٩٥٢)، وقانون الممتلكات التفضيلية (١٩٥٠)، وقانون ممتلكات الدولة (١٩٥٨)، وقانون إدارة الأراضي في إسرائيل (١٩٦٠)، وقانون الإنشاء والبناء (١٩٦٥)، وقانون أخرى لا تحصى، فضلاً عن الرمزية اليهودية الحصرية التي تستعرضها إسرائيل والتي تمتد من عظمها اليهودي ونشيدها الوطني (الذي لا يُحاطب إلا اليهود) إلى أعيادها الوطنية والممارسات التمييزية المُستَعمَسة ضد مواطنيها العرب غير اليهود في كل

جانب من جوانب الحياة. وبالإضافة إلى كل هذا يواصل المجتمع اليهودي في إسرائيل والقيادات اليهودية اعتبار نزعة التفوق العرقي اليهودي أمراً بالغاً التقديس وغير قابل للتفاوض.<sup>(١)</sup> فمؤخراً عبر شيمون بيريز، وهو من «مخاض» إسرائيل الرسمية، عن قلقه حيال «الخطر الديموغرافي الفلسطيني» لكون الخط الأخضر الفاصل بين إسرائيل والضفة الغربية قد بدأ «يقتفي... الأثر» الذي قد يؤدي إلى زلزال مصائر فلسطيني الضفة الغربية بالإسرائيليين العرب. وأمل أن يجعل وصول مئة ألف يهودي إلى إسرائيل من هذا «الخطر الديموغرافي» عشرين سنوات قائمة لأن «الديموغرافيا ستؤثر جغرافياً» في نهاية المطاف.<sup>(٢)</sup> والحق أن شمة القليل جداً مما يمكن تمييزه بين توجهات كل من بيريز وشارون من جهة بخصوص هذه النزعة، وتوجهات غولد

مائير من جهة ثانية وهي التي لم يكن باستطاعتها التوهم في أوائل السبعينيات بسبب رعبها من أعداد الفلسطينيين الذين يؤيدون ويحتلون كل ليلة<sup>(٣)</sup>

وتضمي الصبح الإسرائيلي إلى القول إنه ليس بقدر إسرائيل إنهاء احتلال الضفة الغربية وغزة لأن عليها حماية المستوطنين اليهود هناك، ومواصلة سيطرتها التامة على المياه الفلسطينية من أجل استخدام اليهود لها، وضمان أمن إسرائيل كدولة يهودية من التهديدات التي قد تأتي من دولة فلسطينية مستقلة على الضفة الغربية وغزة. وقد كان هذا الخطاب ركيزة أساسية لـ «العملية السلمية» التي بدأت في مدريد عام ١٩٩١ وتوجت بعملية أوسلو عام ١٩٩٣، وركيزة أساسية أيضاً للنشاز الكارثية التي طال الفلسطينيين يُضخِّعون لها طوال السنوات العشر الأخيرة من مفاوضات «السلام»<sup>(٤)</sup>

١ - عن قوانين إسرائيل العنصرية ومعاملتها لمواطنيها العرب الفلسطينيين، انظر: Sabn Jiryis, *The Arabs in Israel* (New York: Monthly Review Press, 1976), and Ian Lustick, *Arabs in the Jewish State, Israel's Control of a National Minority* (Austin: University of Texas Press, 1980).

٢ - الحياة، ٢٤ آب، ٢٠٠١، ص ٣ «بيريز يحذر من الخطر الديموغرافي الفلسطيني» ويشن هجوماً جاداً على النزاع العرب في الكويت.

٣ - David Hirst, op. cit., p. 242-243.

٤ - عن الخطاب «البراغماتي» الذي تبناه المثقفون الفلسطينيون أنفسهم بعد أوسلو، انظر Joseph Massad, "Political Realists or Comprador Intellectuals: Palestinian Intellectuals and the National Struggle," *Critique*, Fall 1997.

وقد نشر هذا المقال في العربية تحت عنوان «مسألة واقعيون أم مثقفون كبرادويريين المثقفون الفلسطينيون والصراع الوطني»، في مجلة كنعان، رقم ١٥، ١٩٩٧.



## الصهيونية والاسامية

استعارت نزعة التفوق العرقي اليهودي في الفكر الصهيوني منذ ولادتها، الكثير من الخطاب المعادي للسامية. فبرزت مثلاً لم يكتف بموافقة المعادين للسامية على أن اليهود هم من «سبّوا» العدا للسامية - بقوله حديث لا توجد [للسامية] فإن لليهود يَحْمِلُونها في سياق مجراتهم. إن اليهود البانسين يَحْمِلُون في انكثارت الآن بذور العدا للسامية، وكانوا قد أَشْغَلُوا قَبْلَ إلى أميركا<sup>(١)</sup> - بل يتفق معهم أيضاً في أن نهاية العدا للسامية لا يكون إلا بإخراج اليهود من المجتمعات غير اليهودية (ومن هنا تولّى هرتزل الصائب بارئ المعادين للسامية سيهوب فوراً إلى دعم الصهاينة، وهو ما فعلوه حقاً)<sup>(٢)</sup> وما هم اليهود الإسرائيليون التفوقيون يَحْمِلُون الأفكار المعادية للسامية التي انتشرت عند منعت القرن وأهمست اليهود بالسعي إلى السيطرة على العالم. ومن كتباً بروتوكولات حكماء صهيون السيئ الصيت الذي صدر زمن قيصر روسيا، إلى الدعاية النازية الإبادية، كان مفهوماً اليهود كتعب «منعطف» إلى القوة جزاً لا

يتجزأ من متجم الحقد المعادي للسامية. واليوم يبدو أن اليهود الإسرائيليون التفوقيين يتفقون مع المعادين للسامية في أنه لو صح أن اليهود لا يسيطرون على العالم فهم يسيطرون على أميركا على الأقل. ففي أيلول (سبتمبر) ١٩٩٤، نشرت الجريدة الإسرائيلية هعاريف تقريراً عن «اليهود الذين يديرون حكومة كليتون» ولاحظت نمواً في «القوة اليهودية» داخل حكومة الولايات المتحدة منذ سنوات حكم الرئيس ريغان. ومع أن الجريدة أكدت أن اليهود الأميركيين كانوا يتمتعون بمواقع أساسية في ما يخص سياسة الولايات المتحدة إزاء الشرق الأوسط قبل قدوم كليتون، فإن «القوة لليهودية» توسعت بشكل ملحوظ أثناء إدارة هذا الأخير. إذ علاوة على نائب مستشار الأمن القومي صموئيل برغر، ومستشار نائب الرئيس للأمن القومي ليون برث، ثمة ٧ من أصل ١١ من أعضاء مجلس الأمن القومي يهود وقد ومنعهم كليتون خصيصاً في أكثر المفاصل الحساسة في الإدارات الأمنية والخارجية الأميركية. وتُعلن المقالة بفخر كيف أن اليهود الأميركيين يَحْمِلُون قسماً

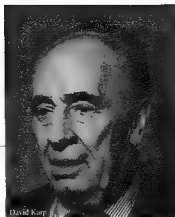
الناصب التي تتولى سياسة الولايات المتحدة لا في الشرق الأوسط وحده بل في أفريقيا وجنوبي آسيا وأوروبا الغربية وأميركا اللاتينية أيضاً. وتزود المقالة قراءها بنيدخ عن عدد كبير ممن يسمون «اليهود الدافسين» أي اليهود الذين يتمتعون مع المصالح اليهودية المعركة بأنها مصالح إسرائيلية. ولكي لا نُنظر أن هذه «القوة اليهودية» المزعومة مقهورة على الحزب الديموقراطي وبند، فإن المقالة تُشرح أن هناك الكثير من اليهود الدافسين الذين يتجهون إلى تولي مناصب عليا في الحزب الجمهوري أيضاً. وتورد المقالة أن حاشاشاً مقهراً في واشنطن دي سي يؤكّد «أثنا للمرة الأولى في التاريخ الأميركي... لا نشعر أننا نعيش في الشتات فلم يُنقذ للولايات المتحدة حكومة من الأضيوار (الغويم)، بل باتت لها إدارة، اليهود فيها شركاء، كاطلون في صناعة القرار على المستويات كافة...<sup>(٣)</sup> وقد تملأ كاتب المقالة اليهودي الإسرائيلي إعجاباً شديداً بدمى «يهودية» الحكومة الأميركية في زمنه، إلى حد أنه حين تُصل متاضياً بوزارة الخارجية يُلقب سوجراً من

١ - Theodor Herzl, *The Jewish State*, op. cit., p. 75.

٢ - Ibid., p. 93.

٣ - Avinoam Bar-Yosef, "The Jews who Run Clinton's Cabinet," *Ma'ariv*, 2 September 1994. Reproduced in *Journal of*

*Palestine Studies*, no. 94, (Winter 1995), p. 148-151.



بيريز هلق من الخطر السكاني الفلسطيني، وماكيز لم تدم بسبب رعيها من اعداء الفلسطينيين الذين يولعون ويضمون كل ليلة

نهاية السبعينيات<sup>(٣)</sup> ولكن ما نُظفه هذه المهنومات المعادية للسامية هو أن «اللوبي اليهودي» ليس جباراً في الولايات المتحدة إلا لأن دعاواه الأساسية تدور حول نفع مصالح الولايات المتحدة قُدماً، ولأن دعم تلك الدعاوى لإسرائيل تأتي في سياق دعمها للإسقاطات الإسرائيلية الأمريكية الشاملة في الشرق الأوسط. وبهذا يؤدي «اللوبي اليهودي» الدور الذي سبق للوبي الصيني أن أدّاه في الخمسينيات من القرن العشرين، ومازال اللوبي الكوري يؤديه حتى اليوم. وحقيقة أن اللوبي اليهودي أعطى من أي لوبي آخر في واشنطن إثمًا تُشهد على أهمية إسرائيل في الإستراتيجية الأميركية، لا على وجود «قوة» يهودية مزعومة مستقلة. وغريباً عن «المصالح القومية» الأميركية حين يُقبل التفويض الإسرائيليون توصيات اليهود المعادية للسامية والمناغاة

الأميركيين سيفعلون كذا وكذا. أريد أن أخبرك شيئاً بوضوح شديد: لا تلقّ بشئ الضغط الأميركي على إسرائيل فنحن، الشعب اليهودي، نسيطر على أمريكا، والأميركيون يعرفون هذا.<sup>(٤)</sup>

هذا التلاقي الإيديولوجي الكبير بين المعادين للسامية واليهود التفرّقيين في إسرائيل لا يدعو إلى العجب كثيراً إذا فهمنا أن المشروع الصهيوني لا يقتصر عن أن يكون تصويلاً لليهودي إلى لاسامية<sup>(٥)</sup> من اليقين أنه لم يكن لزعيم أميركي يهودي أو لجزيرة أميركية مستعزّة، يهودية أو غير يهودية، أن ينشروا مقالة معادية للسامية من عيار مقالة معاويات المذكورة أعلاه. غير أن هذا لا يعني أن قيادة اللوبي المؤيد لإسرائيل في الولايات المتحدة لا يتفكّن عن القباصي بتأثيرهم الحاسم على السياسة الأميركية في الكونغرس والبيت الأبيض. وهذا ما فعلوه بشكل منتظم منذ

الشخص المعني من أزمة هايتي في ذلك الوقت أحالوه على يهودا ميرسكي. فحزبتُ من نفسي أمام سكرتيره. فجأة التفتُ أحدهم سماعة الهانك، ثم سمعتُ صوتاً يقول بلهجة عبرية إسرائيلية مُقننة: «صباح الخير. كيف استطع أن أساعدك؟ لوهلة ظننتُ أنني أقصصتُ خطأ بوزارة الخارجية الإسرائيلية».

كما نذكر الردود المتبادلة التي جرت في نهاية أيلول (سبتمبر) عام ٢٠٠١ أثناء نقاش لاذع انطلق في أحد الاجتماعات الأسبوعية للحكومة الإسرائيلية بين رئيس الوزراء أرييل شارون ووزير خارجيته شيمون بيريز. فقد كان بيريز يحذّر شارون من أن رفضه الانسحاب إلى المطالب الأميركية بوقف إطلاق النار قد يعرض المصالح الإسرائيلية للخطر. «هنا يُهبطُ الولايات المتحدة ضحكاً». هنا صرّخ شارون على بيريز بعد أن تقدّم بصيحه: «كلّ مرة تفعل شيئاً تقول لي إنّ

١ - Radio Israel "Kol Yisrael," 3 October 2001; the Independent Palestinian Information Network, 4 October 2001.

٢ - عن نوايا الصهيونية مع اللسامية، واستخدامها اللساميين نموذجاً، انظر: Michael Selzer, *The Aryanzation of the Jewish State* (New York: Black Star, 1967). Also see Joseph Massad, "The 'Post-Colonial' Colony, Time, Space and Bodies in Palestine/Israel," in *The Pre-Occupation of Post-Colonial Studies*, edited by Fawzia Afzal-Khan and Kalpana Seshadri-Crooks (North Carolina: Duke University Press, 2000).

٣ - عن اللوبي المؤيد لإسرائيل في الولايات المتحدة، انظر: Paul Findley, *They Dare to Speak Out: People and Institutions Confront Israel's Lobby* (New York: Lawrence Hill and Company, 1985), and Edward Tivnan, *The Lobby: Jewish Political Power and American Foreign Policy* (New York: Touchstone Books, 1988).

للعقل والعائلة بأن اليهود «يتحكسون بالعالم»، فإنهم يُخفّون في أن يروا أن المدى البعيد الذي بلغه الأميركيون اليهود في أن يتمثّلوا في الحكومة الأميركية إنما هو المدى الذي تمّ استيعابهم فيه ليكونوا جزءاً من طبقة أميركية بيضاء، ويُخفّون أيضاً في أن يروا إلى أي حدّ تمّ تغيّر يهوديتهم - سواء أكانت «دافئة» أم باردة - في الهوية الأميركية<sup>(١)</sup> فالحق أن اليهود الأميركيين الذين يُشملون في الحكومة الأميركية ليسوا أكثر تاييداً لإسرائيل من نظرائهم المسيحيين؛ ولكنّ حدّث أنهم أكثر منهم تاييداً لإسرائيل فذلك يعود بالأحرى إلى إيمانهم بأنّ دعم إسرائيل يُندرج في خدمة مصالح أميركا العليا والخطر الحقيقيّ للناجم عن هذه الآراء التفرّقة العرقية المعادية للسامية يُجسّن في الآخر الذي قد تُسبّبه لحيوات وأرزاق اليهود الأميركيين (مؤمنين بتلك

الزعة كانوا أو غير مؤمنين) إنّ تبنّاها الأميركيون المعادين للسامية واصفقاؤهم فحسب نظرة أصحاب هذه الزعة إلى العالم، وبالتساوق مع الخطاب المعادي للسامية، لن يكون اليهود متفوّقين على السكّان الفلسطينيين الأصليين الذين احتلّوا أراضيتهم ويجب أن يواصلوا احتلالهم إيّاهم، فحسب، وإنّما سيُقال إنّ اليهود سيكونون متفوّقين على مستوى الكرة الأرضية جميعاً. وهكذا يكون التواطؤ بين الصهيونية والاسامية قد بلغ أقصى مداه

أما بصدد المشروع الصهيونيّ القاضى بتحويل اليهود إلى لاساميين فقد كان ذلك واضحاً منذ وقت مبكر حين قيل مفكرون يهود من الهاسكلاه (فكر النهضة اليهودية الأوروبية في القرن التاسع عشر) أو المسكليم، أمثال

غوربون وسمولسكين، ممّن كانوا ذوي تأثير كبير في المفكرين الصهاينة، توصيفات لليهود معادية للسامية، كالقول إنّ اليهود «مسخون» و«فريشويون» و«خرافيون» و«متخفّون». وقد وصّف هرتزل نفسه اليهود الفرنسيين في يومياته على الشكل التالي: «القيّد نظرة على يهود باريس فرايت شيئاً في وجوههم كأنهم ينتمون إلى عائلة واحدة. أنوف مشوّهة وبارزة» ويعيّن شُكْلُها «ماكرا»<sup>(٢)</sup> فعن أجل تحويل اليهود من «رجال مخلّطين»، كما عدّهم الصهيونية والزعة المعادية للسامية، إلى رجال تكويريين مصمّمين تبعاً للنموذج المعادي للسامية، بنى ماكس نورداو المنظّر الصهيونيّ عند منطف القرن العشرين نواديّ جمنازيّة للرجال اليهود<sup>(٣)</sup>. وقد تبنّت هندسة «نوادي باركوبيا» النوردوية

١ - في هذا الصدد، انظر Karen Brodtkin, *How Jews Became White Folks & What That Says About Race in America* (New Brunswick: Rutgers University Press, 1998).

٢ - The Complete Diaries of Theodor Herzl, op. cit., Vol. I, p. 111.

٣ - See Max Nordau, "Jewry of Muscle," translation of "Muskeldudentum," in *Juedische Turnzeitung* (June 1903), in Paul Mendes-Flohr and Jehuda Reinharz, eds., *The Jew in the Modern World, A Documentary History* (Oxford: Oxford University Press, 1980), p. 434-435.

وانظر أيضاً دراسة على فكر نورداو السياسي، انظر George Mosse, *Confronting the Nation, Jewish and Western Nationalism* (Hanover: Brandeis University Press, published by the University Press of New England, 1993), p. 161-175. Also see Paul Breines, *Tough Jews, Political Fantasies and the Moral Dilemma of American Jewry* (New York: Basic Books,

1991).

من أجل «إعادة» الذكر اليهود جسدياً إلى ما كان عليه - زَغَمًا - أسلافهم العبرانيون الذين كانوا محاربين رياضيين كالإغريق. وقد نجح هذا المشروع إلى حدٍّ أن الجنود الإسرائيليّين المنخرطين في إخماد الانتفاضة الفلسطينية الثانية عُنُوا على ما يُلقبهم في سابقه لاسمائيّة، هي الهجوم النازي على غيتو وارسو أثناء الحرب العالميّة الثانية. فيحسب الجريدة الإسرائيلية هارتس:

«من أجل الإعداد المناسب للحملة القادمة، قال أحد الضباط الإسرائيليين العاملين في المناطق [المحتلّة] منذ زمن ليس بالبعيد: «إنّه من الميسّر، بل من الضروري في واقع الأمر، أن تتعلّم من كلّ مصدرٍ مُمكننا التعلّم منه. فإذا كانت المهمة هي السيطرة على مخيمٍ للاجئين عالي الكثافة، أو السيطرة على العمّ القويّ في نابلس، وإذا كان من واجب قائد المهمة أن يحاول أن ينفذها من دون ضحايا على الجانبين، فإنّ عليه أولاً أن يطلّ وأن يُستشعِلَ دروس الحروب السابقة - بما في ذلك، وإن بدا مساً ساقطه صامداً للأذن، كيف حارب الجيش الألماني في غيتو وارسو». لقد أُلحَ هذا الضابط في صمّام الآخرين

حقاً، وذلك يعود جزئياً إلى أنّه لم يكن وَحده مَنْ اتَّبَعَ هذا الأسلوب: فكثيرٌ من رفائقه يشاطرونه الرأي في أنّه من أجل إنقاذ الإسرائيليين اليوم سيكون من الصواب استخدام المعرفة التي انبثقت من هذه الحرب الرهيبة التي كان ضحاياها من أقرانهم.»<sup>(١)</sup>

ولا شك أنّ كتابة الأرقام على انواع الالف الفلسطينية الذين رَجَّت بهم إسرائيل في محتلاتها في الشهر الماضي ترمز الانطباع بأنّ النظام النازي هو مثال يُحتذى بالنسبة إلى الجيش الإسرائيلي.

أما بشأن نزعة التفوق العرقي اليهودي على الفلسطينيين فقد باتت هذه جزءاً لا يتجزأ من خطاب عالمي عن التمييز العرقي اليهودي، اخترق للمفكر الأكاديمي نفسه. ويندرج في هذا السياق «سنتيه» ورقة بحث أساسية جديدة من مجلة علميّة بارزة هي مجلة هيمومان إيميونولوجي [للمناعات البشرية]. وتبيّن الورقة أنّ اليهود والفلسطينيين متطابقون تقريباً من الناحية الجينيّة (الوراثيّة). وتضمّن هذه الورقة، وعنوانها «أصل الفلسطينيين وعلاقتهم الجينيّة بشعوب متوسطيّة أخرى»، دراسة الاختلافات الوراثيّة في جينات الأجهزة المنيعية بين شعوب الشرق

الوسط. وبحسب صحيفة لندن أوبزيرفر «فإنّ الفريق، على غرار أبحاث سكرّة، لم يجد أيّ معطيات تدعّم فكرة تمييز للشعب اليهودي جينيّاً عن الشعوب الأخرى في المنطقة. وبهذا يتحدّى الفريق المزايع التي تقول بأنّ اليهود شعبٌ مميّز ومختار، وبأنّ اليهوديّة لا يمكن إلا أن تورث». ولكنّ نظراً لاعتراضات ضخمة، ولتهديدات عدد كبير من أعضاء هيئة تحرير المجلة بالاستقالة، ردت رئيسة تحرير المجلة بسرعة قائلة: «لقد تمّ حثّ الأكاديميين الذين تلقوا تأسيساً من هيمومان إيميونولوجي على تعزيز الصلحات المؤهّنة ورشيحها». هنا «هلّ» المؤلف الرئيسي للمقالة، وهو عالم الوراثة الإسباني البروفيسور أنطونيو أرنيز - فيينا. وتضيف لندن أوبزيرفر:

«تدعي رئيسة تحرير المجلة نيكول سوسيو - فوكا من جامعة كولومبيا في نيويورك أنّ المقالة أثارت عاصفة من الاحتجاجات على خطأها السياسي المتطّرف إلى حدٍّ أنّها أُجبرت على إنكارها. فازيلت القسالة من موقع هيمومان إيميونولوجي على شبكة الإنترنت، وبعثت رسائل إلى المكتبات والجامعات في العالم أجمع تطلب منها

أن تتجاهل أو الأفضل أن تلتزم  
انتزاعاً الصفحات المتطرفة بهذا الأمر  
وقد صُرف أربيز - فيينا من هيئة تحرير  
المجلة .<sup>(١)</sup>

#### حلول عملية

صُور الصحافة الدولية والخطاب  
الرسمي الإسرائيلي ولحق إسرائيل  
المواصل لتبدل طبيعتها اليهودية العرقية  
التفوقية، أو لتبديل سياساتها العنصرية  
تجاه الشعب الفلسطيني، على أنه دافع  
عن مبادئ إسرائيل الديمقراطية، وعن  
شعب يهودي مُثَقَّف أصطناعه التاريخي  
لجزء دخول الصهيونية على الخط، ولكن  
السبيل الوحيد لكي تكتمب هذه الأقوال  
أي قوة إشا هو في سياق الالتزام الدولي  
(إفراً: الغريبي) بالتفوقية اليهودية.  
فالحجج الأساس في الفكر التفرقي  
العربي اليهودي هو الالتزام بإنشاء دولة  
يهودية يكن لليهود فيها (أكانوا «سعيًا  
مستشاراً» أم أوروبيين يتحلمون رسالة

تمديدية<sup>(٢)</sup>، أم مجموعة مضطهدة تاريخياً  
يُتبعي تحريرها أيًا يكن للثمن)<sup>(٣)</sup> حقوق  
تُفوق حقوق الأغيار. إن التفوقية اليهودية  
هي ما يجعل قضية إسرائيل، بوصف هذه  
الدولة يهودية بدلاً من أن تكون إسرائيلية،  
أمراً بالغ المقدس لا يُمكن تبديله لأن ذلك  
سيكون شاملاً غير عملي. وإن التزام هذه  
الفرقة هو ما يجعل من عودة اللاجئين  
الفلسطينيين «خطراً ديموغرافياً» يهدد  
الغالبية اليهودية في إسرائيل (وهي غالبية)  
باتت كذلك تحديداً لأن الفلسطينيين الذين  
يسعون اليوم إلى العودة إلى أراضيهم  
وبيوتهم قد سبق أن طردوا منها أصلاً)  
وإن ذلك الالتزام هو الذي يواصل شرعية  
معاملة الفلسطينيين داخل حدود ١٩٤٨  
مواطنين من الدرجة الثالثة وهو الذي  
يشرع استعراز الاحتلال هيئات أمان  
أصام التهديدات الموجهة إلى إسرائيل  
كدولة عرقية تميدية يهودية.  
فإذا أزلنا ذلك الالتزام غداً أسهل بكثير  
إيجاد حل للصراع الذي فُرضته

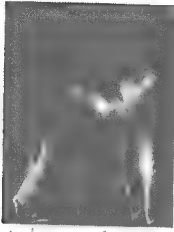
الصهيونية على الفلسطينيين فلتختل  
عالمًا لا يهود فيه غالبية اليهود  
الإسرائيليون ويهود الشتات ومن يدعمهم  
من الأغيار ملتزمين نزع التفوق العرقي  
اليهودي. في هذه الحال ستصبح  
إسرائيل دولة ثنائية القومية تعالج  
مواطنيها على قدم المساواة، فتسحق  
للأجانب الفلسطينيين بالعودة إليها لأنهم  
أن يُشكلوا خطراً ديموغرافياً على نزع  
الهيمنة اليهودية العرقية. وإن يكن على  
إسرائيل أن تحتل الضفة الغربية وقطاع  
غزة، لأنها لن تعود إذاً ملتزمة سياسة  
الاستعمار اليهودي للأرض الفلسطينية  
أو سياسة سرقة المياه الفلسطينية لأن  
إسرائيل لن تخشى بعد ذلك على أمنها.  
وإذاً يستطيع الفلسطينيون أن تكون لهم  
دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة،  
(أو قد يختارون - جنباً إلى جنب مع  
الإسرائيليين - دولة ثنائية القومية على  
كامل حدود فلسطين التاريخية  
كيف يتأني ذلك؟

١. Robn Mckie, science editor, *The Observer*, "Journal Axes Gene Research on Jews and Palestinians," 25 November 2001.

٢. تحدث هرتزل عن مستقبل الدولة اليهودية كـ «جزء من متراس لأوروبا ضد آسيا، وكقاعدة أساسية للحضارة في مواجهة البربرية» انظر  
*The Jewish State*, op.cit., p. 96.

٣. عن استخدام الصهيونية للاضطهاد اليهودي، بما في ذلك الهولوكوست، تيرورا لجرائتها، انظر: Joseph Massad, "Palestinians and Jewish  
History: Recognition or Submission," *Journal of Palestine Studies*, No. 117, Fall 2000.

وقد أعيد نشر هذا المقال في ملحق جريدة النهار على حقتين: «الفلسطينيون والمحركة اليهودية الإيديولوجيا الصهيونية غلبت الحقيقة»، ٨ أيلول  
٢٠٠١، والنكية الفلسطينية والمحركة اليهودية- الربط للصتحيل، ٦ تشرين الأول ٢٠٠١.



من أجل تحويل اليهود من «محتلين»، كما عنهم الصهيونية واللاسامية، إلى رجال تكويرية، بنى ماكس نوريدو نواصي جملانية

اليهودية في إسرائيل سنشأ لا محالة. وما لم يصبح إلنا هذه النزعة هو الهدف الرئيسي لـ «عملية سلام» حقيقية، فإن كل الحلول الأخرى لن تؤدي إلا إلى تأبيد الصراع

#### نيمبورك

ثقافياً وسياسياً، وعزله ديبلوماسياً على مستوى العالم. عندها، وعندها فقط سيشتت غالبية الإسرائيليين اليهود بأن كلفة هذه النزعة ابهط من أن يتحملوها، ويصبحون أكثر استعداداً للتبرؤ علناً منها، وأكثر راحة في الزعم - شلن نظرائهم البيض في جنوبي أفريقيا والولايات المتحدة - أنهم لم يدعموها يوماً أصلاً

من المؤسف جداً أن تكون إسرائيل قد حظيت منذ نهاية السبعينيات بالاعتراف بحقها الزعوم في أن تكون دولة يهودية عنصرية من قبيل محسر، ومنذ أوائل التسعينيات من قبيل الأرمن ومنظمة التحرير الفلسطينية ذاتها. وفي شباط/فبراير الماضي، حظيت إسرائيل باستعداد العالم العربي أجمع، المجتمع في قمته المنعقدة في بيروت، بالاعتراف بحقها الزعوم في أن تكون دولة عنصرية شريطة أن تنسحب من الأراضي الفلسطينية التي احتلتها عام ١٩٦٧.

في هذا السياق السياسي الدولي الراهن، قد يبدو الحل المطروح في هذه الورقة «غير عملي»، غير أنه ليس أقل عملية من «العملية السلمية» اللاداعية التي يتواصل تسويقها للعالم وللشعب الفلسطيني بوصفها أمراً عملياً. إن كل الحلول التي تتجاهل الإنفاذ على نزعة الهيمنة العرقية

لقد انتهت الهيمنة البيضاء المُتأسسة في الولايات المتحدة وفي جنوبي أفريقيا حين باتت كلفة المحافظة عليها ابهط من أن يتحملها العنصريون البيض في كلا البلدين. واليوم لن يجد لمرء إلا أقلية ضئيلة من الناس يجهرن بارتياح بأنهم دعموا يوماً نزعة التفوق العرقي الأبيض، مع أنهم سبق أن جهرُوا بذلك وبارتياح كبير قبل بضع سنوات. والحال أن التفوقيين الإسرائيليين، حكاماً ومواطنين، لم يدعموا كثيراً ثمن احتفاظهم بهذه النزعة. وهم اليوم لا يكتفون بالاحتفاظ بالأرض التي استلبوها بل يواصلون توسيعها، ولا يكتفون بانتزاع ما يقيم أودعهم بل ازدهروا على كافة الصُّفد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية

لقد كان على الفلسطينيين أن يقدموا بأنفسهم، وإلى يومنا هذا، ثمن الحفاظ على التفوقية العرقية اليهودية. وإن يتخلى اليهود الإسرائيليون عن هذه التفوقية إلا بعد جمل كلفتها باهظة جداً وهذا يكون بمواصلة مقاومة الفلسطينيين داخل إسرائيل وفي المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ لكافة المؤسسات المدنية والعسكرية الداعمة لنزعة الهيمنة العرقية اليهودية، وبممارسة مختلف أشكال الضغوط الدولية بما في ذلك: سحب الاستثمارات الدولية من إسرائيل، وفرض حصار اقتصادي عالمي على هذا البلد، ومقاطعة

# قصيدة النثر أو «النشيرة»

الحقيقة خلف ركاب الأوهام

محمد توفيق الصواف \*

## ١ - تقديم: التسميات المختلفة

حار في تصديدها مؤلفوها ونشأها، وكذلك مؤيدوهم ومعارضوهم. فالصوريون على رفع شأنها إلى مرتبة الشعر قالوا: هي شعر منشور. وما كانوا يفعلون حتى عارضهم من لم يحنوا فيها للشعر اثرًا ولا رائحة. مؤكدين أنها - في أحسن نماذجها - لا تعدو أن تكون لونا من ألوان النثر الفني<sup>(١)</sup> وأنه إذا كان لا بد أن توهي تسميتها بوجود نسب ما بينها وبين الشعر فلتنسب بـ «النثر المشعور» لأن النثر فيها غالب

أما من لم تعجبه هاتان التسميتان، فقد اجتهد، فافتى، فقال هي «شعر حر». ونحن نسؤل المزيد من البيان، ألتصيح شوضاً: أقصد أنها شعر بلا وزن ولا قافية. ولا يرى مؤلفوها ضرورة الالتزام في كتابتها بأي نوع من أنواع القيود وأما من لم يجد في كل ما سبق من تسميات ما يدل على هذا الضرب المحدث

من القول دلالة بقيقة. فقد اجتهد وفكر، ثم عبس وبسر، ثم أقبل وأتجر، إلى أن توهم أن قد غر على الاسم الصحيح: «قصيدة نثر»<sup>(٢)</sup> فسارح ينمعه بين البشر. تيمناً بمشوره عليه. تية من جاء بالبدب من ذلك، وقد غل جاهلاً أو تغافل عامداً عن انتفاء اللفظ والانسجام، فتيلاً ومنطقياً. بين طرفي هذه التسمية، وخصوصاً في نظر من لم يجد شبيهاً لصفة القصيد بالنثر إلا صلة الأكل بالهوا<sup>(٣)</sup>

وأخيراً، ثمة من نظر في هذا الضرب من القول، فراه مذبذباً بين الشعر والنثر. لا ينتمي إلى أيهما صراحةً. فوصفه بـ «الخلطى»<sup>(٤)</sup> وهو وصف يعيب إلى

الذاكرة بيتاً قاله المرحوم وجيه البارودي هارثاً بنظم أحد معاصريه: «قلت: شعراً، قلت: نثراً / قلت: حاشا ثم حاشا»

ويعد، ربما هناك تسميات أخرى لم نلقها علمي المتواضع. لذا أرجو أن لا أنهم بتعمد انتقاص شأن ما سميت منها. أو شأن مقلتيها، إن لنا لم نذكرها.

ورأى شخبث، فعبب إن يحار مؤلفو هذا الضرب من الكتابة ويعجزون عن التوصل إلى تسمية بقيقة له. وفيهم الكثير ممن يزعمون أنهم جهابذة العربية للعاصرون<sup>(٥)</sup>. لهذا، ولقناعتي بأن العجز لا يسوغ الاستسلام، ثم لإيماني بأن الله سبحانه وتعالى قد يضع سره في أضعف خلقه، ولظني بأنني ذلك الأضعف، فقد توهمت في نفسي القدرة على بلوغ ما عجز عنه أولئك الجهابذة فكان لي، وبقليل جهد، ما أردت. فوكد مصطلح «النشيرة» على يدي - والحمد لله - في غرة الشهر الأخير من عام ٢٠٠٠ الفات

وقد كانت بداية تفكيرتي بتوليد هذا المصطلح قناعتي بأن لغتنا الجميلة مطواعة، وتسمح لنا باختصار كلمتين أو أكثر في كلمة واحدة - وهو ما يسعى في الصُرف العربي بـ «النص الكبار». ولذا زعمت أنني قد لا أكون مخطئ لو حاولت أن أخت من كلمتي «نثر» و«شعر» كلمة

\* باحث وإعلامي سوري، متخصص في السياسة والأدب الإسرائيليين.

١ - وهذا هو رأي الشاعر الكويتي يعقوب الرشيد. وقد ورد في حوار أجراه معه فؤاد مسعد في صحيفة الثورة، الصادرة بتاريخ ٢٢/١٠/٢٠٠٠، ص ١١

٢ - ورد هذا المصطلح، بالإضافة إلى مصطلحي «شعر منشور» و«نثر مشعور»، في كتاب د. عبد الإله الصانع، دلالة المكان في قصيدة النثر (دمشق دار الاهالي، ١٩٩٩)، ص ١٣ - ١٤

٣ - انظر المرحع السابق، ص ٩. وانظر عن الدين المناصرة، صحيفة الرأي الأردنية الصادرة بتاريخ ١٨/٢/١٩٩٧ و ١٤/٣/١٩٩٧

٤ - وفي مقدمتهم اللبناني شوقي أبي شقرا، كما رعم هو ومذاهبه في السهرة التلفزيونية التي استضافه فيها زاهي وهبي ضمن برنامجه الأسبوعي «حايك بالبيت» في تلفزيون المستقبل، مساء، يوم ٢٧/٦/٢٠٠٠

جديدة تأخذ من كليتهما وتدلّ، في الوقت نفسه، على مغايرتهما معاً فكانت «النتشيرة» هي تلك الكلمة التي وُثِّقَتْ إليها<sup>(١)</sup>

وما أراني، بعد الآن، ايصروا وصا لمصطلح «نتشيرة» الذي نصّه، إلا لقتاعتي بأنه الأرقّ دلالةً، فضلاً عن كونه مؤلفاً من كلمة واحدة يسهل تصريفها والنسبة إليها. فمن المصدر «نتشيرة» الذي يعني نشتر الشعر أو شعرته النثر، يمكننا أن نشقّق ماذهباً رابعاً هو «نُتْشَر» أما بالنسبة لاسم الفاعل فلنا في «منتشّير» لفظاً لا غبار على اشتقاقه، فإذا جنحنا إلى الخروج على القياس الصوّفي، نزولاً عند رغبة من يترأى لوهمهم الحدائري أن لفظة «منتشّر» غليظة الدم ثقيلة على اللسان، فما علينا إلا أن نستبدلها بلفظة «نتشور» التي قد تتراءى لهؤلاء مُتوسِّقة خفيفة الدم والنطق

هذا بالنسبة إلى اشتقاق الفرد. أما بالنسبة للجمع، فلا اظنني أجاوبُ

القياس إذا جمعتُ نتشيرة على نتشيرات، ونتشور على نتشاعير، ونتشورة على نتشورات، والله اعلم.

وربّ سائل يسأل: أمّا كان الأوّل بنةً إن تستخدم المصدر «نتشيرة» للدلالة على قصيدة النثر، بدلاً من كلمة «نتشيرة» التي يحار المرء في تعليل وجود هذه الياء الزائدة التي حُسِّرتْها بين عينها ورائها؟ وأبدر إلى القول: هي ياء زائدة فعلاً، وقد حُسِّرتْها في بنية «النتشيرة» لابل بطريقه حدائرية على أنها ضربٌ قولي زائد حُسِّره قائلوه، دون وجوه حق، بين الشعر والنثر، رغم عدم انتمائه إلى أي منهما، كما سيبيّن لاحقاً

## II - سماتُ النتشيرة

في ضوعٍ مجمل ما سبق، يمكن تعريف النتشيرة بالقول: إنها ضربٌ شُذِّت من القول، لا هو بالشعر فيُطْرَب، ولا بالنثر فيُعْجَب، بل خنثى بينهما. وللنتشيرة سماتٌ تميّزها، فنأ وعضوئها، أمثها

١ - **الطلاق مع موسيقى الشعر.** يرفض النّثاعير، وبإزراء، التزام أيّ من أوزان الشعر العربيّ المعروفة. وإذا ما نَعَزّا إلى أقلّ من ذلك، كالتزام التفعيلة مثلاً في ما يكتسبون، تراهم يتلففون، وباستعمال يُقلّتون طلاق كلّ ما يمتّ إلى الإيقاع الشعريّ بصله<sup>(٢)</sup> ذلك لأنّ التزام أيّ وزن، أو مراعاة أيّ إيقاع موسيقيّ، يشكّلان قيداً يحدّ من انطلاق «مواهبهم» إلى حيث لا يقدّم أحدٌ غيرهم والراسخون في نقد نتشيراتهم لكنّ هذا التعليل ما يلبث أن يتهاافت أمام حقيقة عَجَز معظمهم عن التزام الوزن والإيقاع في نتشيراتهم. كما اعترف بذلك صراحةً اثنان من أكابرهم هما: شوقي أبي شقرا<sup>(٣)</sup> وأسي الحاج<sup>(٤)</sup>

على أيّ حال، فلا اظنّ من الخطأ القول: إنّ خلط نتشيراتهم من أيّ نظام موسيقيّ يَجْطِها خارج الساحة الدلالية لكلمة «شعر» لأنّ «بين معنى الشعر وموسيقاه ارتباطاً حيويّاً»<sup>(٥)</sup> كما يَؤكِّد إمام الشعراء

- ١ - قد يسأل سائل. لم قلتُ «نتشيرة» ولم نقل «نتشيرة» والجواب لأنني أرى أنّ الهمزة «قصيدة نثر» هي أقرب إلى النثر منها إلى الشعر.
- ٢ - انظر في هذا المجال دراسة ليّان صفدي بعنوان «مدخل إلى تكوين قصيدة النثر» ملحق **الثورة الثقافية**، ٧/٢٠٠٠، ص ٧
- ٣ - اعترف أبي شقرا بذلك في كتابها **الثقافة التلفزيونية** المذكور سابقاً.
- ٤ - انظر دراسة لعبد الكريم الناعم بعنوان «في قضية قصيدة النثر» مجلة **الموقف الأدبي**، العدد ٨١ كانون الثاني ١٩٧٨، ص ٩٩ ويقول الناعم إنّ الحاج اعترف لأحمد دحبور بأنه لا يُحسن الوزن، ولو فعل لكتب الشعر الموزون
- ٥ - د. محمد النويهي، **قضية الشعر الجديد** (بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٢، ١٩٧١)، ص ٢٠. وتجد في هذا الكتاب ترجمة لمعظم محاضرة اليوت التي ألقاها في جامعة غلاسكو عام ١٩٤٢



المُحدِّثين في العالم ت. س. إليوت. ولا أدل على قوة هذا الارتباط من ضياع جانب كبير من جمالية القصيدة حين تترجم من لغة إلى أخرى بكلمات منشورة وربما لإيمان إليوت بهذه الحقيقة التي اكتشفها متأخراً، لم يتردد في الاعتراف «بأن أكثر ما كتبه، في فترة من حياته، لم يكن يعدو كونه نثراً عاديّاً، بينما كان يظنّ أنه الإبداع»<sup>(١)</sup>.

إنّ، وعلى خلفيّة القناعة بضرورة الموسيقى للشعر، ثم نظراً لوجود ثروة إبداعية كبيرة في غروضا العربي، فإنّ دعوة النقاد إلى التخلي عن هذه الثروة تبدو في نظر كثيرين محض جنون. ولأننا نرفض الجنون، ترانا نضمّ صوتنا إلى صوت الشعراء محمود درويش، وهو يطرح على النقاد سؤاله الاستنكاري: «لماذا نفرط بشروتنا الإبداعية»<sup>(٢)</sup>.

ولعلّ من المثير للدهشة والشفقة ممّا أن يسارع بعض النقاد إلى الإجابة عن هذا السؤال بالقول: ومنّ قال إنّ شعيرتنا

خلوّ من أيّ موسيقى؟ إنّ لها موسيقاها الخاصة، وهي موسيقى داخلية مهموسة، استغنينا بها عن ثروتكم الإبداعية ذات الضجيج المزعج! لكنّ ميهات، لأن نتائج البحث الموسوعي في ركاب هائل من الشعيرات يؤكّد خلوّ معظمها من أيّ موسيقى داخلية أو خارجية أو حتى ما تحت صوتية. لا بل إنّ بعض الشعيرات يقترب في بنيتها من نثرية الخبر الصحفي أحياناً، كما في شعيرة «موت الشاعر» للشاعر عبد اللطيف خطاب: «مرت بهم/ ويعد موروك بالأقدام الثقيلة، والإذاعات التي لا تصمت، وضجعت/ نفسك، وإحساسك، وشعورك وحالاتك الإدراكية، وأظافرك، وشعر/ بيّك، في محرقه لم ترها في وادي الجسيم...»<sup>(٣)</sup> وثمة شعيرات كثيرة مماثلة كتبها نقادهم من أمثال هادي دانيال،<sup>(٤)</sup> وفايز مقسمي،<sup>(٥)</sup> وغيرهما، وكلّها يخلو تماماً من أيّ موسيقى. بل يمكن القول إنّ في سنج الكهان، وخطب القدياء، ومقاماتهم، من

الإيقاع، أكثر ممّا في الكثير من هذه الشعيرات.<sup>(٦)</sup> والغريب أنّه رغم غنى هذه النماذج النثرية القديمة بالموسيقى الداخلية، لم نسمع أحداً غنّها شعراً.

لن تقدّم شعوراً، أو ناقداً مؤيِّداً للتشعر، يبادر إلى رفع سبّابته في وجوهنا معذراً: كفّاكم! فالمسألة ليست مسألة وزن وإيقاع، كما تتوفّسون أيها المتخلّفون، بل مسألة حدائق. والحدائق تعني تحرُّر شاعر اليوم من أيّ التزام وظيفي. أفلا تفتلون؟

لأدرك نفسي تهمة الاتّقاء على الشعيرة ونشاعيرها، وتهمة العداوة للحدائق والتسلسل، أرى ترك الردّ على هذه السفسة لادونيس، الذي لا يقلّ احترامي له فكاً وناقداً عن احترام الذين يُكفون انفسهم اتّباعاً له من تناعب اليوم وتناعبهم يقول أدونيس: «الحدائق ليست مجرد تقنية، نثرية أو وزنية، وإنّا هي رؤيا شاملة للمناسبة، ما أكثر ما يستسهل قراءتنا الحدائق كلما راوا نصّاً شعريّاً بل وزن أو

١ - د. أحمد سليمان الأحمد، هذا الشعر الحديث (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ١٩٧٤)، ص ١٩٦.

٢ - نقلاً عن كتاب عبد الدين المناصرة، القصيدة المنثر: جنس كتابي خفي (رام الله: بيت الشعر، ١٩٩٨)، ص ١٥.

٣ - مجلة النقاد، ج ١١، أيار ١٩٩٨، ص ٤٥.

٤ - المصدر السابق، ص ٣٩.

٥ - الموقف الأدبي، أيار ١٩٨٠، ص ٧٦.

٦ - راجع على سبيل المثال، خبطة قسن بن ساعدة الأيادي المشهورة، وسجّ الكهان قبل الإسلام، وشطحاء بعض كبار الموفيين من أمثال أبي يزيد البسطاميّ وجلال الدين الروميّ والنفريّ والحلاج وغيرهم.



البوت يؤكد أن بين معنى الشعر وموسيقاه ارتباطاً حيوياً، ومحمود درويش استنكر أن «تأليف بروتونا الإيقاعية»

ويقتر ما كان التركيب اللغز - عمداً - لصور شعيرة علي سفر هذه هو مصدّر الغرائبية فيها وفي مثيلاتها، كان الخيال السقيم للشعور فأنز العراقي هو مصدّر الغرائبية في الصورة التي ضمتها مطلع تشعيرته «النشيد الأول»: «من جديد/ ساكنيك أيتها الأبدية/ فوق قدور السماء النحاسية»<sup>(١)</sup>

لكن تبهر هذه الصورة مشيرة للسخرية والشذفة معاً، خصوصاً حين لا يجد القارئ تفسيراً مقبولاً، منطقيّاً أو جماليّاً، لعبارة «قدور السماء النحاسية»، وقد لا يتردد في أن يسمّل ساخرًا: ولماذا كانت هذه القدور نحاسية، لا حديدية أو رصاصية أو برونزية مثلاً، ثم لماذا هي قدور وليست أبريق أو كؤوساً أو صحنين؟ لا أدري، ولكن ما أنا على يقين منه أن هذه الصورة، التي أظنّها مصنوعة ومفتحة لإثارة استغراب القارئ لا أكثر، تقشقر إلى الحد الأدنى من الجماليّة المؤثرة والموجبة، هذا فضلاً عن كونها مجانيّة لا وظيفة لها، كأن تسمى مثلاً، إلى إيصال معنى أو فكرة أو شعور إلى القارئ، وحتى لو وافقنا أدونيس على رأيه في أن مهمة الشاعر الحدائري إثارة

الرؤية الشعرية واللغة الشعرية من دائرة الشعر وسمّوه «نظاماً» وبالمقابل، أطلقوا صفة «النثر الفني» على النصوص النثرية الزاخرة بالصور الشعرية والمكتوبة بلغة شعرية موحية: أي أنهم لم يعمدوها شعراً هي أيضاً لاعتقادهم أن الشعر طائر لا يطير إلا بجناحين هما الصورة الشعرية الموحية والإيقاع الموسيقي اللطرب أما نشاعير اليوم فيصيرين على تسمية ما يتكسبه شعراً وإن خلا من أي إيقاع، مؤكدين أن الصورة الموحية وحدها قادرة على التأثير في القارئ وتحويله.

ومع عدم القناعة بهذا الافتراض، فليت النشاعير تقدروا بما وضعوه لانتسهم من تنظيرات، فلم يستغنوا عن الصورة الشعرية الموحية هي أيضاً، ليقتلوا أنفسهم بصور من أبرز سماتها:

١ - غرائبية لا جمال فيها، كهذه الصور التي حشّتها النشاعير علي سفر في تغيرته «غناء» التي يقول فيها: «وسمعتهم يصلحون فداهة القفز/ فجهت آخر أفعالكم/ ثم انتقلت دفقة الكرة النطاطة درجتي/ أو أدنى من سلم الجدد/ يوانيك ضروس نظافة/ من شبهة المستحيل»<sup>(٢)</sup>

قافية سمّوها «حديثاً» هذا فهم خاطئ، إن لم يكن جهلاً. إن معظم النصوص التي كتبت اليوم، نثرًا، باسم الحدائرية، لا علاقة لها بالحدائرية إطلاقاً...<sup>(٣)</sup> ومن ثم، فإن الحدائرية الشعرية، كما يؤكد أدونيس، ليست محصورة في النثر وحده، اللهم إلا في رأي بعض الأشخاص الذين كتبوا الشعر نثرًا وهو رأي يمثل في نظر أدونيس «الوجه الآخر للعمودية الجمالية» فمقابل القول لا شعر إلا للموزن القفي، يقول أصحاب هذا الرأي: لا شعر إلا للنثر. وأظن أن هذا بحث آخر، وظام آخر، عدا أنه يكشف عن فهم خاطئ للشعر والحدائرية معاً.<sup>(٤)</sup>

٢ - الميلالية في التنظير لأهمية الصورة. يسوّغ بعض النشاعير نسبة التشعيرية إلى الشعر بالقول: إذا كان الشعر ليس إيقاعاً وموسيقى فحسب بل صورة فنيّة ذات خصائص معيّنة أيضاً، وإذا كان الوزن قد اتاح حديثاً لخصائص عمويّة كثيرة أن توصف بالشعر رغم خلوها من أي صورة شعورية، فلماذا لا تتبع الصورة الشعرية للتشعيرية الأصفاء بالشعر حتى وإن خلت من الوزن والإيقاع؟ الواقع أن نغاد العرب القدماي مؤزرا بين الشعر والنظم، فأخرجوا كل مفتقر إلى

١ - من لقاء أجراه معه جوزيف كيروز عام ١٩٧٨، ونُشر في الأسبوع العربي، بتاريخ ٨/٧/١٩٧٨، بعنوان «زمن الانهيار»، ص ٥٥.

٢ - من مجموعته صمت (دمشق: دار الشمس، ط١، ١٩٩٩)، ص ٥٧

٤ - من نشيرة «النشيد الأول»، في مجموعته أناشيد الأبدية (دمشق: منشورات دار الجليل، ط١، ١٩٨٦)، ص ٨

رغبة البحث عن معنى في نفس المتلقي وعقله، لا تقديم للمعنى جاهزاً له،<sup>(١)</sup> فإبنا نلاحظ أن النشعيرتين الألفئتي الذكر، ومثلهما كثير، لا تستطيعان تحريضاً شاربهما على البحث عن أي معنى في تلافيف غموضهما الدامس. وهذا يعود إلى سبب بسيط جداً، هو افتقارهما إلى المعنى أصلاً: وفادف الشيء لا يعطيه

ب ـ السماجة والفتح. ثمة نماذج من النشعيرات بمعنى قارئها لو أنها خلكت من الصور تماماً، لسماجة وقبح ما تتفق عنه خيالاً كاتبها من عبور. كذلك التي تضمثها نشعيرة «مؤسسة الحب» للنشعور خليل صويلح التي يقول فيها: «كم كيسة/ من إسمعت القبلات/ يكفي/ لبناء مؤسسة الحب»<sup>(٢)</sup>

الحمدة لله أن رغم التجديد عند هذا النشعور لم ينفذ إلى صياغة تصورات الإسمتية لمأطلة الحب في شكل مسالة رياضية. كان يطلع علينا قاتلاً إذا كان كل كيس من إسمعت القبلات يزن طنّاً من غلاظة المشاعر، وإذا كان كل متر مربع من مؤسسة الحب يحتاج إلى كيسين من إسمعت القبلات، فكم كيسة يحتاج بناء هذه

المؤسسة إذا كانت مساحتها بحجم بلاطة مشاعر النشعور الذي كتب هذه النشعيرة؟

ألا إن يقد هذه النشعيرة عن الشعر بقدر يقد الإسمت وقساوته عن الحب وركته، ويقد يقد عفويته وتحرره من كل قيد عن مفهوم المؤسسة الجامد. إنه خيال سقيم خال من حساسية الجمال ورقة النشعور، هو خيال ذلك الذي كغف هذه النشعيرة والتي - على عيوبها الكثيرة - قيل لي إنها ليست للنشعور صويلح أصلاً، بل ملطوشة من مجموعة نشعور آخر رجاني ألا أنكر اسم؟

وإذا أرينا مثلاً آخر على السماجة ومجاناة الذائقة الجمالية، فما علينا إلا قراءة ما كتبه النشعور فوزي كريم في نشعيرته «قصيدة حب»<sup>(٣)</sup> التي يبدو أن لا علاقة لها بالحب، بل بالجندية ومفرداتها العسكرية. وهو ما يتضح في قوله: «أجند حبه لي، واحتراسي من الحب/ هذا الفم القروي/ أجنده/ ووعسك أن لا أعود وهبيد/ أجند طير الحطاط فوق المصاييح/ والفتح في دهات المخافر...»

ويظل هذا النشعور يجند ما لا ادري من المشاعر ومظاهر الطبيعة، لتحقيق هدف

واحد بسيط وهو أن يتكلم، فتصوّروا! ورغم تفهيل النشعور لنشعيرته هذه بالإشارة إلى أن مكان إبداعها هو لندن، فإني أجنتي مثلاً إلى الاعتقاد بأن سبب هيمنة أجواء الجندية ومفرداتها على هذه النشعيرة هو تزامن كتابتها مع تانية شعورها لخدمته العسكرية.

ج - غياب الصورة تماماً عند بعض النشاعير، بذريعة إطلاق ما يستوونه حريتهم في التعبير والإبداع إلى أقصى حد ممكن، إلى الاستغناء عن الصور تماماً، كما فعل النشعور محمد فؤاد في نشعيرته «ملاغوت الكلام، التي يقول في أحد مقاطعها، «هل كانت، هكذا، البداية»/ ليست، تماماً، كانت كل البدايات/ ولا شيء يمنع أن تختلف قليلاً في الخطوط العريضة أو/الخطوط الطويلة للموقف...»<sup>(٤)</sup>

ويعد، فبالله عليكم، سداني النشاعير والقرآن، لو قارنا الصور الواردة في النشعيرات الأتفة الذكر بهذا المقطع من رواية الجسيم لهزني باريوس: «إنني وحيد هذه الليلة، سامر أمام طاولتي مصباحي يطرق كالصيف في المحفل أرفع عيني. النجوم تتباعد وتدفغ السماء

١ - كما قال في مقابلة أخيرة أجراها معه تلفزيون المستقبل ليلة ٢٠٠١/٤/١٠

٢ - من كتابه الافتتاحيات (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٨٢)، ص ٣٩

٣ - من مجموعته غزوات الظاهر (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د.ح)، ص ١٦

٤ - مجلة النقاد، مصدر مذكور، ص ٥٥.

فوقي، والمبدية تُفَرِّق أمام قديمي، والأفق يُهَرَّب أبداً إلى جانبي. الظلال والأشوار تشكل دائرة لاستنهاية، ما سمت أنا هنا...<sup>(١)</sup> افطن يبدو واضحاً أن فيه من الشاعرية أكثر ممّا في النشعيرات الثلاث؛ ومع ذلك لم يزعمُ باريوس أن روايته، أو بعض مقاطعها، شعرٌ منظّر أو نثرٌ مشعور.

٣ - تَعَمُّدُ الغموض والإفهام. رحم الله ذلك الزمان الذي كان الله يُعَدِّونُ الغموضَ عيباً فنياً، إنَّ أصابَ شعرٌ أحدهم، سهواً أو عجزاً، سلبه النقادُ بالسخرِ حاد، فقد صرنا إلى زمن يتعمدُ نشاعيرُهُ الغموض، ويخاضرون بالإفهام والإنهام، إلى حدِّ اعتبارِ قُومٍ المتلفي لما ينثره بعضهم فشلاً، كما يقولُ النفعور: «هل شاول مغاير؟» إنَّ قصيدتي إذا وصلت لأحدٍ فمعنى ذلك أنها فشلت.<sup>(٢)</sup>

وهنا، لِنَسْتَمِعَ لي النشعور قول بالسؤال: إذا كنت يا سيدي لا تريد لأحد أن يُفهم نشعيراتك فلماذا تنشرها؟ وإذا كان قُومٌ إحداهما يعني فشلها، أقلنا نخشى أن يبعث الله عليها - وهو القادر على كل شيء - من يفهمها جميعاً؟ لهذا أناشدنا يا سيدي أن تُبقي نشعيراتك في نرج

مكتبة، خشية أن يطلُع أحدٌ على بعضها فيفهمه، فيكتشف مثلاً أن سرَّ غرامك، وأمتاك من الناعير، بالغموض المتعمد، لا يعود إلى العمق كما تدعون. فإن كنتَ ما تزال - وغيرك، في ريبٍ ممّا القول، فلْتُرني أين العمق في مثل هذه العبارات التي تضمنتها نشعيرة بعنوان «مغامرات نبع» للنشعور شوقي أبي شقرا الذي لا اظنك تُجِدُ علو كعبه في عالم النشعرة: «أنا مصطفى/أهوى الفساور والاختصار/أُظِلُّ في الحائط وأُخرج منه/حفظت الجغرافيا/بنت في الخطِّ والفسيفساء، علامات جيدة/نجحت في الفناء/صنعت لي والذي كعكمتُ كجيرة فاكلتها وأنا مائل/ ككتبتُ فروض العلة/مزحت مع الماشية/مررت تحت الدير فصنع الراهبان/اتكون من الأوجاع العصبية؟/يظنني الحطابُ هرة سوداء/عودة الجردان والعصافير/أحبّ ذي الأمير فخر الدين/كان الأمير قصيراً كالقوة/يُكره الزحام والصفيح/يضي فترك أيضاً جواله.<sup>(٣)</sup>

أين عمق المعنى في هذه العبارات المشوّشة المتداخلة تدلّخُ عِيَّاس يديّاس؟ بل أين المعنى نفسه، أو مجرد التحريض

على اكتشافه، وهل هذه هي الحداثة التي يتشعّق النشاعيرُ في الحديث عنها ويتفلاخون في اتعاء الانتماء إليها؟ فإن كان الجواب نعم، وكانت تُشارُ أحداثكم من طينة هذه النشعيرة، فلأني أولُ كافٍ بها، لأنها لا تمدو كونها ورقة تين لستر ضحالة الموهبة عند كبار الناعير. أما بالنسبة إلى صغارهم، فالمصيبة أعظم ومن يُردّ الدليل فليقرّ معي هذه العبارات التي تضمنتها نشعيرة «ارتجالات» للنشعور علي سفر الذي يقول في مقطعها الأول «ريقٌ شقّ سائلٌ بركتك/نظر اللفافة الملوّنة فضاءً يحنني ثم يبتهل انشداك من/لحدود يار/أربع أحجار مازجها حرفٌ لاتيني/وعودتك المسماة/تفرقن عريات أيبة تُثري في إطار الزجاج لندام مسرة/قيام الاحتمال بما يكلفه رب السلطة/هدم الغرف ومكتبة فسجيج اللغة»<sup>(٤)</sup>

لأني لا أكون مجالفاً أو مغترفاً لو زعمتُ أن هذه العبارات تُعدُّ أفضل مثال للدلالة على معنى كلمة «نثر». بل أزعم أن التزايد السرطانيّ لثيلاتها على سطح ساحتنا الأبيّة هو أحد الأسباب الرئيسة لانتفاض الناس عن النشاعير، ومن ثمّ

١ - هنري باريوس، الجحيم، ترجمة جورج طرابيشي (بيروت: دار الآداب، ط٤، ١٩٧٩)، ص ٢٠٧.

٢ - من مقال بيان صفدي، مصدر مذكور.

٣ - التي أبي شقرا هذه النشعيرة في اللغة، التلفزيوني للذكر أنفاً

٤ - من مجموعة صمت، مصدر مذكور، ص ٢١.

انصرافهم عن الشعراء الجيدين أنفسهم، ظناً منهم أنَّ الانحطاط الشعري قد أتى على أخضر الشعر ويابسه وبعد، هل كان الهُزْنُ الثمرة المُرَّة الوحيدة لتعمد النشاعر الغموض سترًا لفجالة مراهبهم، أو لاندماها أحيانًا؟ بالتأكيد لا، فثمة ثمارٌ أخرى لا تقل عن الهُزْنِ مرارةً، وفي مقدمتها الهراء.

من المعروف أنَّه لا بدَّ لأيِّ كلام من معنى، حتى ولو كان قائمهً أميًا، فإنَّ خلا من المعنى، فسرعان ما نبادر إلى وصف ما يقوله بالهراء، وهو وصفٌ يوافق قول المتنبي في تعريف الكلام الضالي من المعنى: «ولو لا كونكم في الناس كانوا/ هراء، كالكلام بلا معاني».

وكمثال على التعميرات الهرائية واحدة للشعور أنسي الحاج في مجموعة لن، يقول فيها: «الحياة حيَّة، العين نرج، العين حُصْب، العين سوق سوداء/ عيني تُشعّ تفشّز منه الريح ولا يصيبه/ هل اعوي الصراخ/ بلا حبل. هناك أريكة وسأصعد.»<sup>(١)</sup>

ألا يمثل هذا فلياح الأبناء والنشأ بالمتعة لتعريف الهراء الحدائري في أدبنا العربي المسكين. ولا شك أنَّ مضمّون هذه التعميرة يُعدُّ أيضًا نموذجًا دالًّا على ما يُمكن وصفه بالعبث اللغوي المجاني، وهو وصفٌ يؤكِّده الحاج نفسه في معرض حديثه عن تجربته الشعرية، فيقول: «يوجد لديّ عيب في الكتابة، شجون، لعبٌ في اللغة. أحيانًا يكون هذا اللعب جامعيًا إلى حد اللهلو المجاني، وكأنه أرجوحة وأنت تحاول الذهاب بها إلى الأقصى.»<sup>(٢)</sup>

ويبدو أنَّ اتجاه عدد من كبار النشاعر إلى الهراء في بعض شعيراتهم قد شجّع الكثير من صغار النشاعر على أن يحذو حذوهم، كما نجد في تمهيرة «عود نقاب يحترق» للشعور لقمان ديري: «أنا الرافض المرتبك/ الذي نهض لأجلك/ وفي علبه السردين المصنوعة في المغرب/ أنا رأس الفلفل الحار/ الذي يرميه كلُّ من يفتح العلبة في/ المشرق.»<sup>(٣)</sup>

ويصل الانحطاط الهرائي عند نشاعير آخرين إلى حد ممارسة العواء، كما فعل

الشعور فائز العراقي في تمهيرته «سفر في غابة العواء» التي يقول في بعض سطورها: «يا رجل الليل/ ادلهجحت الغابة/ والظناب سُدَّت منافذ الطرق/ عيون زجاجية حمراء/ واشلاء تتناثر تنقأ/ عووو... عووو... عووو...»<sup>(٤)</sup>

ألا إله اندحارٌ مؤلِّمٌ هذا الذي يلغ بعض النشاعير، وهم يتوهمون أنَّ مراهم هذا دليلٌ واقعيّتهم في التعبير تارةً، ودليلٌ انتماء ما يهذونهم إلى الحدائق تارةً أخرى فلو قبلنا أنَّ تكون ثمارُ الحدائق على نحو ما يُنظرُحون في شعيراتهم، فليس يلام تتابعٌ الغد إذا ما استخدم أحدهم كلمتي «هششش» أو «حأأأ» مناديا على حماره أو بغل ليلف أو ليمشي، أو إذا ما استخدّم شعورٌ مستقبلًا إخر كلمة «نووو» للحديث عن قطته التي يُؤمِّن بها لصيبتها، ويهذا تصبح كلمة «نووو» معادلا رمزيًا في عرّفه لكلمة «حبيبي».

ويبدو أنَّ الشعور فائز العراقي، لتوهمه أنَّ الكتابة على هذا النحو تجعله أكثرَ حدائريًا، راح يبدعهم<sup>(٥)</sup> تارةً، وتارةً

١ - أنسي الحاج، لنَّ (بيروت: دار الجديد، ط ٣، ١٩٩٤)، ص ٢٨.

٢ - المحرر نفوز، ٢٥/٢ - ٢٢/٢، ٢٠٠٠، ص ١٨.

٣ - ملحق تشعيرين الأسبوعي، العدد ١٧٣، تشرين الأول ٢٠٠٠، ص ٥٢.

٤ - من مجموعته أناشيد الأبدية (بمشق دار الجليل، ط ١، ١٩٨٦)، ص ٧٢.

٥ - كما في تمهيرته دمر في أسبعية شتائية التي يقول فيها: «نقرعها خطوات الشاعر الواثقة/ نئم.. نئم.. نئم» انظر مجموعته كريفونة الغيلاب (بمشق منشورات الأملاني، ط ١، ١٩٨٩)، ص ٤٠.



بعض التعابير لا يلبس شظرا وإنما الحاج يعد نموذجاً دالاً على العبث اللغوي المجاني

ما يصلح بمالم القراء: «لا أخطب أحداً ولا أقيم حواراً مع أحد.»<sup>(١)</sup>  
تُسبِر في هذا المجال أخيراً إلى أن  
الشاعير كثيراً ما يسوِّغ غموضهم  
بالإككا، على «أسوء» حسنة يجدونها في  
شعر المتصوفة القدامى، من أمثال  
الفنري والحلاج وابن عربي.<sup>(٢)</sup> لكن  
مقارنة تعبيراتهم بقصائد أولئك المتصوفة  
تؤكد أن القليل جداً من هذه التعابير  
يجوز تشبيه غموضه بغموض شعر  
المتصوفة القدامى. وأما غلايتها العظمى  
فلا علاقة لها بالتصوف، اللهم إلا من  
ناحية التقليد الشكلاني المضطك الذي  
حاوله بعض الشعاعير لبعض نماذج  
الشعر الصوفي، كما في شاعرية فايز  
مقسي المسماة «طوطم»، والتي يقول  
فيها: «فتاجات بمفاجأة المفاجئ فتفاجأ  
بمفاجئتي/لم يجهن يفاجئني فتفاجأت ولو  
جاء يفاجئني/لما فتاجأت/جاء، جال من  
أجل جلي رغباني.»<sup>(٣)</sup>

باللغ عليكم أفيدوني، يا سادتي القراء،  
بأي لغة كُتِبَ هذا الشعر؟ مقلته السابق؟  
أبالعربية حقاً؟ وإن كان بها، فهل قرأتم  
أرداً من هذه العبارات المفككة التي لا  
معنى لها ولا معنى، ولا يتميِّز لها رأس  
من نذب؟ ألا إنها نموذج جديد، بل نمط  
مقفود، من الهراء الشعيري القائم على  
أساس هُفسر الطلاسم والألفاظ في  
تراكيب بالغة الرككة، وعبارات غير قابلة  
للخواب في أي محلول نوقتي. وما ذلك إلا  
لأن مؤلفها يتوهم، وأمثاله، أن ما ينتعده  
موجة إلى خاصة الخاصة من متخلفي  
الهراء، لا إلى أمثالي ممن لا يُشرفون  
الخمس من الطمسة في عالم الغموض  
الشعيري الحدائوي  
ولا داعي لإعطاء أمثلة أخرى على هذا  
النمط من الغموض الذي يؤذي إلى  
انقطاع الصلة تماماً بين الشعر والمطلَّي  
لكن من الدهش فعلاً أن تجد بعض كبار  
الشاعير يفاخر بهذه القطيعة، كما يفعل  
بول شاول الذي يقول متجسِّماً بقطع كلِّ

أخرى يتكك،<sup>(٤)</sup> وتارة ثالثة يصهبه،<sup>(٥)</sup>  
وهكذا. فلا حول ولا قوة إلا بالله  
وبل أن انهي إطلائي السريعة هذه على  
الهراء الشعيري، أود أن أتوقف عند شاعرية  
بعنوان «أختي المروسة للشعور حمتان  
عزت، يقول في مطلعها المثلث: «يا أختي  
العروس الطالعة بالأمطار/والخمر/ المراكب  
الحري وأحمال البهار/من أشرع الحرام  
ومنع نجمة السوسن/طعمك الأخ صهال  
العلاوات/الشابق بالخلاصة والكنة»<sup>(٦)</sup>  
وبعد هذا الملح الشهي الذي تلقى الشعر  
أحماً شئ من البهار فوق عبارته، على  
أمل أن تصبح سائفة الطعم والرائحة فلا  
تُلبّ شعدة القارئ وهو يحاول فهمها  
وهضتها، إذا بالبهار يُفعل أول إفاعيله  
في رأس هذا الشعر نفسه، فيُسكِّره  
إعجاباً بما أقرن من هوس سقيمة، ثم  
يُطلق لسانه بشعر هرائي يُبَلِّغ ذروة  
غموضه في قوله: «يا مـتـنـ العز/واشتعلت يبادر الغلات لات نا/يا  
أيا يات ياتنا/يا صعب.»<sup>(٧)</sup>

- ١ - كما في شاعرية «السؤال» المنشورة في مجموعته كريفونة الغياب أيضاً، والتي يقول فيها: «إنهض، نَمْ، نَمْ، إنهض/تككك/تد/تد» ص ٩
- ٢ - كما في شاعرية «حين يطس الشاعر وجه قصيدته» المنشورة في مجموعته كريفونة الغياب أيضاً، والتي يقول فيها: «صنة - صنة/صنة/ملانة الشعر ناتمة/لا توقظها بيسمكة» ص ٥٠.
- ٣ - مجلة **الثاقب**، مصدر مذكور، ص ٥٠.
- ٤ - المصدر السابق والصفحة نفسها
- ٥ - من مقال بيان صفدي، مرجع سبق ذكره.
- ٦ - للإطلاع والتوسع، انظر كتاب يرفس حامد جابر، **قضايا الإبداع في قصيدة النثر** (دمشق: دار الحصاد، ط ١٩٩١)، ص ١٦ - ١٧
- ٧ - من دراسة بعنوان «فايز مقسي مشروع تجريبي خاسر في القصيدة النثرية» مجلة **الوفاق الأدبي**، العدد ١٠٩، أيار ١٩٨٠، ص ٧٧

لَكُمْ تبدو هذه الجانحة المفتعلة الغثة والركيكة مسخاً تافهاً أمام روعة الأصل الحلاجي القديم: «لي حبيبٌ جَبُّ حَشْوِ الحشا/ إنَّ ينسا يمشي على قلبي مشي/ رويحُه رويحي، ورويحي رويحُه/ إنَّ ينسا شئت، وإنَّ شئت ينسا».

لكم تبدو ظالمة مقارنةً شائعة الحلاج الرائعة والواقعية هذه ببساطة فايز مقدسي البائسة، التي لا أرى أن تُقارَن إلا بشائشة تلك الدعاية اللفظية التي كُتبتَ نتجدي بعضها بعضاً - ونحن صغار - في ترديد كلماتها بسرعة وبدون خطأ: «شريف وشَرْفٌ اشتريا شرفين، قاس شريف شرفه على شرف شرف، فإذا بشرف شرف أطول من شرف شرف بشرفين وشرف شرف، اليس في هذه الدعاية الشرسيفية من الإيقاع والمعنى أكثر ممَّا في نثيرة مقدسي الجاهلية بلى وكُلُّكم أصاب الناقد محمد جمال باروت حين وصف تلك النثيرة بأنها «لغو لاشعري»، وأنها لدى مقارنتها بقصيدة الحلاج تدعو «بناؤ لغويّاً مضطرباً، لا علاقة له من قريب أو بعيد بالشعر»<sup>(١)</sup>.

٤ - **الانسجام الانحطاطوي وبين الشكل والمضمون**: ليس فايز مقدسي

ببعاً بين النماذج الذين تمكنوا من تحقيق هذا القدر من الانسجام الانحطاطوي المدهش بين شكل نثيراتهم ومضمونها بل إنَّ معظمهم استطاع اجتراح هذه المعجزة، لا فضل لكبيرهم علي صغيرهم إلا بكونه أكثر قسرة على الإسفاف في المضمون، والتجمل من كل قيد أخلاقي، إلى حدِّ الإباحية التي تُصنم النوق والحسن السليمين، بقدر ما تُصدِّمهما الصياغة للركيكة للعبارات التي صيغت بها هذه الإباحية. ويكفي مثلاً على ذلك هذه العبارات اللاوطنية البنيئة للثمنور انسي الصاج: «يا بلادي في الموت إذا استدعيتك، فلرحمك أوسعها لأرفع عَمَلَك عُشْوِي، أوهمك ذلك (مسيحي أنا) أشبعك بوهج أن عضوي أنت، تصليق، وترتاح اعصابك، عضوي أنت! عضوي أنت...»<sup>(٢)</sup>.

٥ - **التقليعات الشكلانية في كتابة النثيرة**: كثيرة جداً هي الحملات الضعواء التي سُفِّها النماذج ونُفِّدوا على الأوزان العروضية القديمة، ثم على التزام التفعيلة الواحدة في القصيدة، مؤكِّنين أنَّ التزام هذه الأشكال جميعاً يحض من انطلاق مواهبهم. ويعد أن صدقنا دعاوهم هذه، إذا بتنا فاجاً وقد حدا

بعضهم، في التزام ما لا يُلزم، حذو الكثير من القدماء المقيدين بحروض الخليل، بل حذو شعراء ما يُسمَّى، افتراءً، عصر الانحطاط، يقلد صغارهم في هذا الالتزام كبارهم، عن غير وعي ولا إدراك غالباً. فإنَّ ترك أحد كبار النماذج يواضعا على يمن إحدى نثيراته أو شمالها أو بين سطورها، تبارى الصغار يوسعون مساحة البياض في مجموعاتهم النثيرية، حتى صار عدد الكلمات في بعض هذه المجموعات لا يتجاوز عدد كلمات مقالةٍ صغيرةٍ في صحيفة يومية، رغم أنَّ عدد صفحات هذه المجموعة يصل إلى الستين أحياناً، وذلك لكثرة البياض المتروك فيها عمداً لإسباغ صفة الحداثوة عليها. ونحن نترك بعض النماذج المشهورين سطوراً فارغة في بعض نثيراتهم - رصوها بالنقاط بدلاً من الكلمات - صار ترك السطور فارغة تقليعةً نثيريةً واجبة التقليد على كل نثور صغير. وليس ثمة حاجة لإيراد شواهد دالة على هذه التقليعة النثيرية وسابقتها، إذ بإمكان أيِّ من القُروء على ما لا يُخص من الشواهد عليها في أيِّ مجموعة نثيرية يفتحها

١ - المرجع السابق، ص ٧٨. ومثل هذا يصبح أيضاً على نثيرة أخرى وصفها باروت بـ «الهاتهة»، وفيها فايز مقدسي «رويت سا أهوازنا/ هوى الأموا، ان أهوى متواني الهوة/ فاعوى هوتها وهواي في هرواها بهوى كتهاري/ هي هوتها الهارية وهي مائة في هرواها».

٢ - انسي الحاج، لئن، مصدر مذكور، ص ٨٤.

وتشاء موهباً شعور كبير آخر أن يوزع سطر شعيرته على شكل هندسي معين<sup>(١)</sup> وما تَكَاد هذه الشعيرة المعجزة ترى النور حتى تجد كل منْهُ وبمَنْهُ من صفاير الناعير يشترن اللَّبَّ الهندسيَّة لاستخدام محتوياتها في رسم أشكال شتى، يوزعون عليها كلماتهم الجوفاء، ويظنُّ بعضهم ببالغ في اصطناع هذه الأساليب تحت ستار المداينة، إلى درجة نكَّره معها كل ما يمت إلى المداينة وإتباعها بصله، وذلك لأنَّ ما وصل إليه مقلو هذه الأساليب يَنكَّرُ، كما يقول الناقد المغربي محمد السورغيني، بـ «الكتابة الشعرية في عصر ما اصطُح على تسميته بعصر الانحطاط في تاريخ الشعر العربي»، حيث تقرأ القصيدة طويلاً وعكساً بمعنىين مختلفين، أو من اليمين إلى اليسار وبالعكس، أو من أعلى إلى أسفل وبالعكس، بمعنىين مختلفين كذلك. وهو ما يَطلُب مهارة فائقة في الصنعة.<sup>(٢)</sup>

رشة تقليبة أخرى لتنتشر استخدائها في نتاج الناعير، كباراً وصغاراً، انتشاراً النار في الهشيم، وهي تقليبة إبدال ال التعريف على الفعل المضارع ذلك أنَّ

صفاير الناعير، بشكل خاص، راحوا يخلطون هذه الـ «ال» على أيِّ فمسل يصابفونه في طريقهم، مضارباً كان أو غير مضارب، بمناسبة وبغير مناسبة، أملين أن يصلوا باستخدامها المكثف إلى امتلاك ناصية المداينة. من ذلك مثلاً ما فعله الناعور علي صفر في قوله: «بلا صكوك غفران القلب/ السَّرِقَةُ المعامرة»<sup>(٣)</sup> وهنا لا بد من تسأله: إذا كنَّا نَقْصُر الشاعر القديم في إبدال هذه الـ «ال» على الفعل لضرورة وصَنَفَها ابن هشام بالفيحة<sup>(٤)</sup> كما في قول الفرزدق المشهور: «ما أنبت بالكمَّ القُرْصُ حُكْمُهُ / ولا الأصيل ولا ذي الرأي والجعل»، فما هو عذرُ الناعير في اللجوء إلى هذا الاضطراب الوزني؟ وهم الذين تخلَّوا عن كل وزن وإيقاع لتضمن انطلاق مواهبهم ومن التحليلات الشكلانيَّة أيضاً ما يُمكن تسميته بالناعورة القصيرة جداً، فبعد ظهور فرِّ القصبة القصيرة جداً، غار الناعير، كما يبدو، من القاصدين - ومن لا يشار جمار ويظَّهر أنَّ الناعور سعد الأبطح من المعجبين جداً بهذه الشعيرة، وأظنه من

روايتها، لكثرة ما حشد من نماذجها في مجموعته الناعورية ضلالات الساري وهي نماذج يَتميز معظمها بـ «طوله» الذي لا يتجاوز الجملة الواحدة أحياناً، يشدُّها هذا الناعور ويصطَّها، ويبحثر كلماتها بسقوة على طول الصفحة وعرضها، كما في ناعوره حقيقة التي يقول فيها: «أَيْهَا الموتى/ ما/ معنى/ أن/ تَحَلُّوا/ أحلامكم/ على/ الفريز/ نافذتي»<sup>(٥)</sup>

عزيزي القارئ، صَحِّقْ أولاً تصدِّقْ، هذه الكلمات العشر فقط هي كلُّ قوام ناعورة «حقيقة» التي لا يمت مضمونها إلى أيِّ حقيفة في العالم بصلة!

٦ - **الانكاس على شرف المضمعون.** في السبعينيَّات والثمانينيَّات من القرن الماضي، حين صار الحديث عن الشورة والسجن والقتال والمبارك جواز مرور إجبارياً إلى منابر النشر الضخيفة الألق، صار كلُّ ضعل الموهبة يظنُّ أنه إذا تحدث عن هذه الموضوعات بأنَّ لغةً وبأيِّ أسلوب مهما كان ركيكاً لا بدَّ أن ينال إعجاب الجمهور واحترام النقاد، وأن يَشقَّ طريقه

١ - انظر نماذج لهذا التشكيل البصري للقصيدة الحديثة في دراسة بعنوان «تشكيل فضاء النص الشعريّ بصرى» لفنّان علوي الهاشمي، مجلة الوحدة، العدد ٨٢، تموز - آب ١٩٩١، ص ٩٢ وما بعدها.

٢ - من دراسة له بعنوان «الشعر والقنطرة»، منشورة في مجلة الوحدة، المصدر السابق، ص ١٢٤

٣ - من مجموعته صفت، مصدر مذكور، ص ٦٦.

٤ - عبد الله جمال الدين بن هشام الانصاري، شرح فنون الذهب في معرفة كلام العرب (دار الكتب العربية ودار الكتاب، دت)، ص ٢١

٥ - من مجموعته ضلالات الساري (محسن دار جفرا، ١٩٩٥)، ص ٥١



إلى عالم النشر والشهرة. وهكذا تراكمت في المكتبة العربية كم هائل من النشعيرات والقصائد المكتبة على شرف مضمونها الإيديولوجي أو الوطني، والخيالية - في الوقت نفسه - من أي جمالية فنية

ومن الأمثلة القوية الدلالة على هذا النمط من النشعيرات نشعيرة بعنوان "جبهة"، نثر مؤلفها جليل حيدر أنه إذا كتب عن الرصاص صار شاعر الثورة والتمرد، حتى ولو كان ما يكتبه على النحو التالي «إلى الرصاص نثر/إلى الرصاص أولًا/إلى الرصاص ثانيًا/إلى الرصاص ثالثًا/إلى الرصاص رابعًا/إلى الرصاص خامسًا/ إلى القتال سانسًا/إلى النضال سابعًا/إلى الرصاص ثمرًا/إلى الرصاص والأخير/إلى الرصاص/فإلى الرصاص/سبيلنا الأول والأخير للخلاص»<sup>(١)</sup>

كلما قرأت هذه النشعيرة حمدت الله على أن نفس نشعورنا العرجي هذا توقف عند الرقم سبعة. إذ ما كان بإمكاننا أن نفعل لو أن أنفسنا طال فامتنع به الاعد إلى الألف أو المليون مثلاً؟

ومن هذا النمط نشعيرة «حصار»<sup>(٢)</sup> لمؤلفها بندر عبد الحميد، الذي نلّن أن مجرد

ذكره للسادات وإسرائيل في نشعيرته تلك يكفي لتجارتها من المسقوط في هوة البؤس الفني. ولا يتجو النشعور فجور يعقوب من عيب الانكفاء على شرف المضمون هو أيضاً، في بعض نشعيرات مجموعته **النوم في شرفة الجنرال**<sup>(٣)</sup>، وإن كان لا يسف فيها إسفاف جليل حيدر مثلاً

٧ - **القصصية**. من السمات البارزة في نتاج عبدكبير من النشاعير نفي أسلوب القص وسريته لشاعرية الصورة. وهذا ما نجده مثلاً في نشعيرة «كوكاكولا» للنشعور بندر عبد الحميد، التي يمكن اعتبارها قصة قصيرة جداً، لا علاقة لها بالشعر للنثر أو القصور: «عندما صرخ أرخميس/وجبتها/ اجتمع مجلس الإدارة/في شركة كوكا كولا/واتخذ قراراً سريعاً/لأن أرخميس يعرف كل شيء/كلن يصرخ أحبيبات/ويصمت كثيرًا/ليعكر ويسال/ماذا سيحدث/ويقف على الشاطئ/ يتأمل البحر ويهز رأسه/ بعد أيام/ وجد أرخميس مقولاً/ وإلى جانبه فقس دامية»<sup>(٤)</sup>

ويهيمن أسلوب القص وسريته على شاعرية النص النشعيري في مجموعة

**سيرة العائلة**<sup>(٥)</sup> **النشعور** حكم البابا، التي لا أراها تزيد عن كونها خواطر وجدانية نثرها مؤلفها قصة تحكي تاريخ أسرته، وبسلوب لا يصل - رغم رفقته وجساشيته - إلى مستوى الشعر بحال.

### III - خاتمة

من المؤكد أنني لم أكتب هذه الدراسة لكوني أحد حراس الشعر المؤذنين، ولم أكتبها لأثني ضدّ الحداثة والجدة. ولكنني كتبتها لأبقى الباب مفتوحاً أمام قرائها عساهم يهتدون إلى الإجابة الصحيحة عن السؤال الهامّ للتالي هل النشعيرات الواردة في هذه الدراسة ومثيلاتها تُخدم اللغة العربية وأدبها، أم لا؟

وأخيراً، كتبتُ اثني أن تتسع هذه الدراسة لعرض ومناقشة جميع ما عثرت عليه من سمات النشعيرة، ولكنها لم تتسع: فاملتُ الحديث عنها، وعن بعض الموضوعات الأخرى ذات الصلة بالنشعيرة (كموضوع مكشائورية الشاعر في منابر النشر المعاصرة)، إلى كتاب أرجو أن يُصدر قريباً.

**دمشق**

١ - من مجموعته **رماد الكافي** (دمشق: دار منشورات صبرا للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٨٥)، ص ٨٥ - ٨٦.

٢ - من مجموعته **مغامرات الأصابع والعيون** (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨١)، ص ٧٧.

٣ - **فجر يعقوب، النوم في شرفة الجنرال** (دمشق: دار الجليل، ١٩٨٦).

٤ - **مغامرات الأصابع والعيون**، مصدر مذكور، ص ٣٦ - ٣٧.

٥ - **سيرة العائلة** (دمشق: دار الأهالي، ط ١، ١٩٨٩).

## تعبت من الطيران

محمد صبيد الله .

دائماً في اغترابي النبل،  
السَّماءُ البعيدةُ أفقي

البحارُ ترانيمٌ روحي،  
أنا النورسُ المستباحُ.

الرياحُ

تهبُّ،

أطيرُ

بلا وطنٍ أو رفيقٍ

وأحلمُ... أحلمُ.

لكنَ دُفعرَ عمري يذكّرني

بهمومٍ

نشيتُ لو أنّها عانقتني

ومضت للبعد البعيد .

إلى آخر الأرض وحدي أطيّرُ

وأعلو

كأنّي تعبْتُ،

كأنّ جناحيّ قد هرما .

هل أكتفي

وأقولُ لروحي

كلّى غربةً

وحينئذٍ؟

تعبتُ من الحلمِ

ما أبعدَ الحلمَ عني،

ما أبعدَ البيتَ .

♦ ♦

بيني المضاءُ بما شاء قلبي من الروعِ

لا بيتَ لي

فالنورسُ دوماً يدونُ بيوتَ

تهبُّ للكائناتِ مشاهدُ بيضاءَ  
ثمُ تموتُ .

يا إلهي

الصباحُ بعيدُ

فكيف إياي

إلى موطنٍ يتوقُّ بي

إلى شاطئٍ لا يغفون؟

السَّماءُ البعيدةُ تنأى،

الرياحُ تلاحقني

وكانَ الرحيلُ كتابي،

كانَ الرحيلُ تمجيداً أُنّي لروحي .

أذكرُ ما كانَ

أخشى الذي سيكونُ

وأغبطُ كلَّ الطيورِ عداي

تعودُ إلى بيتها

أنا لا أعودُ !

تعانقُ أبناءها كلَّ يومٍ

أنا لا أعانقُ غيرَ شباهيتِ مطلقاً

أو تصاويرَ للراحلين !

♦ ♦

بماذا حلمتُ

لكي يهربَ الحلمُ مني؟

أردتُ فضاءَ مضاءَ

أردتُ مصاحفَ طاهرةً

لا تمسّ طهارتها

غيرَ روحي .

أنا النورسُ الطفلُ

وحدي يكتُبُ

وَقَلْتُ لِقَلْبِي

لَيْسَ أَوَّلُكَ هَذَا

فَكُفُّ عَنِ الْحُلُمِ وَالتَّبَعِي،

لَكِنَّهُ مَا اسْتَجَابَ .

فَكُمُ حَقِيقَةً يَا إِلَهِي

أَطِيرُ؟

وَكَمْ لَيْلَةً سَوْفَ أَحْلُمُ مِنْ بَعْدِ

حَتَّى أَعَانِقَ وَجْهَهَا حُلُمْتُ بِهِ أَلْفَ عَامٍ

تَمَنَيْتُ - لَوْ مَرَّةً -

فِي الطَّرِيقِ يَمَاجِئِي وَيَهَيْبُ؟

فَكَيْفَ أَطْلُ وَحِيدًا؟

وَهَذَا الْفَوَادِ النَّبِيُّ، لَنْ سَوْفَ أُعْطِيهِ؟

مَنْ يَأْخُذُ الْعَمَرَ وَالسَّنَوَاتِ

وَأَمْنَعُهُ وَرَدَّةَ الْأَنْبِيَاءِ؟

♦ ♦

تَمَبَّتْ مِنَ الطَّيْرَانِ

كَأَنِّي هَرَمْتُ

كَأَنِّي تَرَكْتُ الرِّيحَ

تَرَكْتُ الْعَوَاصِفَ بِأَكْيَافٍ،

وَتَرَكْتُ السَّيْنَ

تَكْفُفُكَ إِحْزَانَهَا

وَتَوَدَّعَ عِنْدَ الْمَسَاءِ

آخِرَ الشَّعْرَاءِ .

مَا الَّذِي ظَلَّ لِي؟

حُلْمِي بِكِتَابِ الْوَيْلِ مَوْتَايَ فِيهِ

وَأَخَرُ

أَكْتُبُ فِيهِ الْكَوَاكِبَ وَالنَّاسَ

أَكْتُبُ قَيْسًا وَلَيْلَى وَكُلَّ الْهَيْبِينَ،

أَكْتُبُ قَلْبِي إِيْمَانًا لَهُمْ

وَأَمُوتُ

شَهِيدًا طَرِيدًا .

♦ ♦

وَأَسْمِعُ مِنْ ظِلْمَةِ الْقَبْرِ هَمِّمَةً

وَانْتِعَابًا

يَا مُحَمَّدُ:

مَتَ أَنْتَظَرُ... وَمَتَ نَبِيًّا وَحِيدًا

سَلَامًا عَلَى رُوحِهِ... وَسَلَامًا عَلَيَّ

فَقَدْ كَانَ، كُنْتُ، وَحِيدًا وَحِيدًا وَحِيدًا

تَمَامًا .

عَمَّانَ

# واقع المثقف والمعارضة في الوطن العربي

أين المثقف العاضضوي العسري؟

• رمزي تضيضه •

## اسئلة المثقف

ما هو الدور الذي يُمكن أن يمارسه المثقف اليوم على المستوى الاجتماعي؟ ما هي المساحات التي استثمرها المثقف في الحقل السياسي؟ ما هي الإضافة التي حقّقها المثقف لترسيخ القناعة بضرورة الانفتاح اقتصادياً على الدول الأوروبية؟ هذه الاسئلة وغيرها قد تُقضي بنا إلى إجابات تُكشف عمق الهوة التي تُفصل المثقف عن محيطه

## في الممارسة السياسية

ففي مجال الممارسة السياسية يكاد يكون حضور المثقف متعديلاً، باستثناء الدور الاستراتيجي الذي يمارسه التكنوقراطيون في توجيه سياسة الدولة وتصديق خياراتها، على الرغم من أن الدولة قد وفّرت مساحاتاً رحبة يُمكن المثقف استغلالها وتأكيد حضوره الجاد داخلها ولا يُمكن تفسير هروب المثقف العربي من الانخراط في اللعبة السياسية إلا بحجوزه عن بلورة موقف واضح تجاه القضايا المصيرية التي تواجهها الدولة فمحمل الآراء والتصورات التي يصوغها المثقفون اليوم هي تصورات ارجالية وعفوية تُفتقر إلى النقّة من جهة، وإلى العقلانية في التعامل مع طبيعة المرحلة الانتقالية التي

تعيشها المنطقة العربية من جهة ثانية. بل إن المعارضة السياسية التي يُفترض أن تحقق التوازن الهيكلي على مستوى الممارسة السياسية تُفتقر بدورها إلى النضج السياسي والمعرفي أحياناً. ورغم توافر النابر السياسية المخففة التي يُمكن المعارضة أن تعتمد عليها لتحديد خياراتها واتجاهاتها البديلة، فإن حضور هذه المعارضة يتبقى حضوراً محتشماً جداً وقد تعزى هذا التراجع الوظيفي للمعارضة السياسية في مجتمعاتنا العربية الإسلامية إلى جملة من العوامل أهمها

أولاً: افتقار المعارضة في مختلف تلويناتها ومرجعياتها السياسية والثقافية إلى برنامج واضح وتحقيق، ويتحدد ذلك البرنامج ووضوحه بمدى تعفّفه للعوامل المؤثرة في مسيرة المجتمع العربي التفسوي، ومدى اعترافه بالتأثيرات الضارجية التي تمارسها التحولات الحضارية العالمية في تعديل خيارات السلطة الإستراتيجية. إن مسائل الهوية والتطعيم والديموقراطية والتنمية والشراكة الاقتصادية والأمية هي من الأولويات التي يُبغى تكثيف العناية بها في واقعنا العربي. غير أن المثقف المتحزّب المعارض لم يعبر إلى اليوم عن استعداداته الجدي لبحثها بالكيفية التي يستطيع من خلالها

أن يبلور تصوراً مخالفاً (جزئياً أو كلياً) للتصور العام الذي تتبناه السلطة.

ثانياً: عدم قدرة المعارضة السياسية على التخلص من الاعتبار الإيديولوجي الذي يحدّ خياراتها. فمعظم المثقفين المتحرّين المعارضين يُطلقون من قوالب إيديولوجية جاهزة يحاولون تطبيقها، طوعاً أو قسراً، على حالات اجتماعية وسياسية واقتصادية لا تتسم عادةً مع المرجعيات المذهبية التي يُطلقون منها. إن عجز المثقف اليوم عن التحرر من سلطة الإيديولوجيا قد أسهم في تعطيل المسيرة الحضارية التي يُمكن أن يشارك في تفعيل نموها. بل إن الخطاب السياسي المعارض الذي يُفصح عن نفسه عبر قنوات إعلامية معتدلة لا يُخرج عن أن يكون خطاباً مبتذلاً يُفكّر بؤساً منهجياً ومعرفياً في التعامل مع الأحداث السياسية العربية أو يُجترّ مقولات إيديولوجية أثبت الواقع حتمية مراجعتها وتعديلها

ثالثاً: عجز المعارضة السياسية عن مواكبة التسارع السريع للتحولات الحضارية الراهنة التي تمرّ بها الدولة ولعلّ الخبرة المحدودة للمعارضة السياسية في هذا المجال أن تكون عاملاً مركزياً من العوامل التي أدت إلى تراجع الدور السياسي الذي قد يمارسه المثقف العضوي. ففي الوقت الذي نجد فيه تكتنقراطيات الدولة

♦ كاتب من تونس يشتغل في المسائل الحضارية التي تُعنى بالثارات وعلاقته بالحدائق

يبدلون جهداً بالغ الأهمية في تعميق تصوّره لل مسائل الجوهرية التي تتعلق بمصير الدولة، تُرصد المعارضة السياسية تصوّرات السلطة الرسمية لا لتفحصا وتعديلا من أجل إثرائها، بل لتعرّف على مدى مطابقتها للضوابط والقواعد التي تمثّل توجهها السياسي. وأحياناً تصارع المعارضة إلى إبداء امتعاضها من هذه التصوّرات دون أن تكون قد استوعبت فعلاً مضمونها

رابطاً: إنّ حضور المثقّف المعارض في مجال الفعل السياسي هو حضور باهت ففي الوقت الذي يُفترض فيه أن تكون المعارضة حاضرة وبقوّة في المفاير السياسية والمنتقيات والندوات الفكرية للانخراط في الجدل الفكري والسياسي بهدف إثرائه وتنشيطه، نلّس تراجفاً واضحاً من جانب المعارضة في حضور مثل هذه المنابر. ونعتقد أنّ هذا التراجع لا يبرّزه موقفٌ مبدئي من جانب المثقّف المتحرّج لمقاطعة مثل هذه الفعّوات، وإنّما هو إفراطٌ صريح من جانب المعارضة بعجزها التأم عن الانخراط في الجدل السياسي والفكري لضعف مقولاتها وانقطار طروحاتها إلى الدقّة والصرامة. وقد جاءت مناسبات عديدة برهنت فيها المعارض عن فقرها المعرفي والمنهجي مقارنة بالصرامة المنهجية والمعرفية التي تُلمع المواقف الرسمية للسلطة.

### في الممارسة الاجتماعية

هذا على المستوى السياسي. أمّا على المستوى الاجتماعي فإنّنا لا نسجل حضوراً فاعلاً ومؤثراً للمثقف بقدر ما نسجل موقفاً حاسماً من قبله إزاء قضايا عديدة تمسّ ويشكل مباشر الواقع الذي نعيشه. ويكمن اختزالاً أسباب انحسار الدور الاجتماعي للمثقف العربي في هذه النقاط

1 - الإحساس البالغ فيه من جانب نخبة من المثقّفين الأرستقراطيّين بأهمية مركزهم الثقافيّ النخبويّ داخل مجتمعاتهم - وهو إحساس يُشعر من خلاله المثقّف بتضمّن الأثافيّة، في مقابل انحسار الآخر وتراجعه. وطبقاً لهذا الشعور يتورّع المجتمع في ذهن هذه الفئة من المثقّفين إلى صنفين:

الصنف الأول تمثّله النخبة التي تصنّع الفعل الثقافيّ، وهي الفئة التي يتفاعل معها المثقّف ويبدى استعداداته الجديّة للتعامل معها.

الصنف الثاني تمثّله عامّة الناس، وهو صنف لا يتورّد المثقّف في التعبير عن امتعاضه الشديد من الاحتكاك به بسبب عدم توقّره على النضج المعرفي اللازم الذي يؤهّله لاستيعاب ما يريده المثقّف الإفصاح عنه. والغريب أنّ المثقّفين الذين يُترغصون التواصل مع «الرعاع» يُعتبرون عن ابتهاجهم الكبير عندما تُلقي أعمالهم

ترحيباً واسعاً من جانب الجمهور العريض من الناس، ولكن إذا باهر أحدهم إلى توجيه نقده إلى عمل من هذه الأعمال سارع المثقّف إلى صدّه وذلك بتكديده أنّ النقد ممارسة صارمة وبقية لا يُضطلع بها إلا أهل الاختصاص! إنّ هذا الصنف من المثقّفين قد أسهم إلى حدّ كبير في تعميق الهوة بين ما هو نخبوي وما هو شعبي، وأسهم في الحد من انتشار ما هو ثقافي في أوساط القاعدة الشعبية العريضة.

ب - افتقار القاعدة العريضة من المثقّفين «الشعبيّين» إلى الآليات والأدوات التي من شأنها أن تغلّ التواصل بينهم وبين العامة من جهة، وبينهم وبين المثقّفين «الأرستقراطيّين» من جهة ثانية. إنّ فئة المثقّفين الشعبيّين قادرة على ممارسة نشاطها الإبداعي وتوجيه الفعل الثقافي، وهي قادرة أيضاً على أن تكون الجسر الرابط بين طبقة المثقّفين الأرستقراطيّين والعامة من الناس، فتكون بذلك الحلقة التي يتصالح عندها ما هو نخبوي مع ما هو عامي على أنّ هذا الدور لا يتحقّق إلا عبر دراسة جدية ومعمّقة لاحتياجات هذه الفئة والتعرّف على ما هو يتحقّق استمرار نشاطها وتواصلها فالمثقف الذي لم يتوصّل بعد إلى تحقيق مستلزمات بقائه واستمرار وجوده لا يمكن أن يكون لك المثقّف البديع والفاعل. إنّ المثقّف الجائع والمتشرّد لا



إنَّ المثقف العضوي هو الوجدان الذي تحدّث عنه سارتر؛ يهتمُّ بما يعنيه في الوقت الذي يرى فيه الآخرون أنَّه يهتمُّ بما لا يشهيه

نقدها وإعادة بنائها بالشكل الذي يمكننا من فهم النصِّ وفحص طبقاته المعرفية والإيديولوجية والسياسية. إنَّ المثقف لم يبدشْ بعدُ هذه المرحلة حتَّى نطالبه بالانخراط جدِّياً في مرحلة «الوصل»، وهي المرحلة التي يتغنَّى فيها العقل العربيُّ من الضسول في دائرة الإبداع والإنشاج والتأسيس في جميع مستوياته الثقافية والاجتماعية والسياسية. إنَّنا نعتقد أنَّ الشكل الذي يواجهه المثقف اليوم لا يَكُنُّ في ما تحدّث أمانه، بل في هذا الضباب القديم الذي يملأ راسه.

ب - العزلة التي يُعرّضها المثقفُ عامةً، على نفسه، فكثير من مثقفينا منقطعون عن الفعل الثقافي الذي يُشجِّع الآخر، ويؤمِّنُهم الأطلال على الكشوفات المعرفية التي يحقِّقها الغربُ في شتَّى الاختصاصات والميادين الثقافية وبغضِّ النظر عن الاعتبارات الإيديولوجية التي تقف وراء هذا الموقف، فإنَّ هذا التصوُّر يحتاج إلى مراجعة جذرية تتحقَّق عبرها القناعة بأنَّه لا يَكُنُّ تجاوُّزَ تحصيلات المرحلة الراهنة من دين الانفتاح معرفياً وسياسياً واقتصادياً على الآخر، بما يمكن من تفعيل الدور الحضاريِّ للمثقف داخل المجتمعات العربية الإسلامية.

ج - الضعف المنهجيِّ والمعرفي الذي يُلَبِّحُ مثقلا كمشير من المثقفين خطاباتهم، وهو ضعف يبرزه اهتمام

بعيدة عن الواقع الذي يعيشه. إنَّ المثقف العضوي هو ذلك الذي يصنِّع الفعل الثقافي ويُسهم في تنشيطه؛ إنَّه الوجدان الذي تحدّث عنه سارتر يهتمُّ بما يعنيه، في الوقت الذي يرى فيه الآخرون أنَّه يهتمُّ بما لا يعنيه. إنَّه المثقف الذي لا تخيفه المحرَّسات، وهو المثقف الذي تصرُّ من هاجس السيطرة ليقين أنَّ ذلك هو البداية الفعلية للمعرفة. هذا المثقف الذي نُبحث عنه قد لا نجده في مجتمعاتنا العربية الإسلامية بسبب العوامل التالية

١ - لم يتمكَّن المثقفُ عامةً، إلى اليوم من استيعاب مستلزمات الحداثة الفكرية، بل يؤكِّد الواقعُ يومياً حدة القطيعة التي تُفصل المثقف العربي عن الكشوفات المعرفية والفكرية التي تُنتجها الحداثة يوماً بعد يوم. وتحرك هذا الخلل في تصوُّرنا ثلاثة عوامل مركزيّة

١ - غيابُ موقفٍ واضح وصريح من التراث من جهة، ومن الحداثة من جهة ثانية. فكيف يُمكن أن ندعو اليوم إلى تفصيل الحداثة الفكرية في مجتمعاتنا العربية في الوقت الذي لم يحدّد فيه العقل العربيُّ تصوُّره الحقيقي والصارم من تراثه وماضيه؛ وإذا ما استعربنا التقسيم الذي أقامه الجابري في كتابه *نحن والتراث* قلنا إنَّ المثقف العربيَّ عامةً لم يشضْ بعدُ مرحلة «الفصل» وهي المرحلة التي يقع من خلالها تفكيكُ النصوص التراثية بهدف

يُمكن أن يتحرَّك حتَّى نطالبه بأن يحرِّك غيره. أمَّا المثقف الذي تمكَّن من توفير ضروريَّات عيشه ويقائه فإنَّه لا يتردّد في التعبير عن قبوله المتاجرة بتلك الكمِّ الثقافي الذي حصَّله في مقابل بعض الدنانير، الذي قد تتبخر في مجالس خمرية يسامر فيها من يقاسمهم لهم نفسهُ

ج - التفاعل المستمرُّ والباهر للمثقف مع شبكة العلاقات الاجتماعية والنسيج المجتمعي والمؤسَّساتي. إنَّ الانخراط في العمل الجمعيَّاتي من شأنه أن يقرب وجهات النظر، فخصلاً عن أنَّه يسهم في تعديل المواقف وتأسيس منابر قد يثير من خلالها المثقفُ أسئلة تستغزُّ المثقِّق وتُدفعه إلى البحث ومسألة الذات.

د - عجزُ المثقف عن التحرُّر من سلطة السائد والمألوف، واعتراقه في مناسبات عده بعدم قدرته على مواجهة كلِّ ما هو استعوري، واستسلامه لبعض الأعراف الاجتماعية التي كان هو نفسه ينادي بالقطيعة معها

غياب المثقف العضوي عامَّةً الأسباب وإذا كانت هذه هي حال المثقف في الحلقين السياسي والاجتماعي فإنَّ وضعية المثقف فكرياً وثقافياً تدعو هي أيضاً إلى المراجعة ذلك أنَّ الصورة التي تُرسِّمها للمثقف العضوي تكاد تكون

الثقاف المبالغ فيه أحياناً بمشاغل الحياة اليومية ومستلزماتاتها، بما يحدّر تلك الفجوة بينه وبين الشأن الثقافي

٢ - لم يُدر المثقف العربي إلى اليوم استعداده الجذري للتفاعل إيجابياً مع فكرة النقد. فإذا كان النقد تقليداً راسخاً في المجتمعات الأوروبية فإِنَّه في مجتمعاتنا العربية شكل من أشكال الهرطقة والابتداع. إنَّ تجرّد فكرة النقد من التشظيل الأوروبي أسهمت فيه جملة من العوامل السياسية والثقافية والدينية عرفتها المجتمعات الأوروبية قبل الثورات الثلاث الكبرى (الفرنسية والإنكليزية والأميركية) وأثارتها وقد ساعدت هذه الثورات من خلال الجهد النظري البالغ الذي بذله منظروها ومسؤولوها على التخلص ممّا هو ميت ومتخشب في كيانها، وعلى تأسيس ثقافة عقلانية وأعية بطروف المرحلة التي تمرّ بها. إنَّ هذه العوامل الموضوعية التي زعزت بنود الفكر النقدي في المجتمعات الأوروبية لم تتوفر بعد في مجتمعاتنا الإسلامية. ولا يُمكن، في اعتقادنا، الحديث عن بوادر نهضة فكرية وعلمية يمكن أن تعيشتها المجتمعات العربية إلا في ضوء توفر العوامل التي عاشتها المجتمعات الأوروبية ومهدّت لتحقيق نقلة نوعية وحضارية داخلها.

إنَّ النقد الذي نسمي إلى تدشين حضوره هو الشرط الجوهري لكي تستعيد الذات العربية الإسلامية ثقافتها بنفسها وتحقق من ثمّ استقلاليتها يقول الجابري: «إنَّ نقد العقل جزء أساسي من كلّ مشروع للنهضة، ولكنَّ نهضتنا العربية الحديثة جرت فيها الأمور على غير هذا المجرى ولعلّ ذلك من أهمّ عوامل تعثرها المستعز إلى الآن. وهل يُمكن بناء نهضة بعقل غير ناهض، عقل لم يلم بمراجعة شاملة لآلياته ومفاهيمه وتصوّراته وورثه؟»

٣ - غياب القراءة العقلانية والموضوعية الناضجة في مشاريع المثقفين العضويين، في مقابل الحضور المكثف والنشط للقرابات الإيديولوجية التي نهجت إلى حدّ كبير في تهيمش الفعل الثقافي والممارسة النقدية الواعية في مجتمعاتنا. إنَّ حاجة المجتمعات العربية إلى مثل تلك القراءة الموضوعية والعقلانية تشكّل في الواقع يوماً بعد يوم، وذلك بفعل الهجمات العنيفة التي يشنّها الفكر الاستبدادي في مختلف مرجعيّات المذهبية - وهي الهجمات عنيهاً التي عرفها التاريخ الإسلامي حينما يادر العقل السني إلى استبعاد مؤلفات ابن رشد وتهيمش الدور النشط الذي مارسه الخط الاعترافي في إرساء دعائم التفكير العقلاني في الإسلام. ولأننا اليوم مدعوّين إلى استعادة النظر في مثل هذه المدارس والاستفادة منها بالشكل الذي يمكن من

تأسيس قراءة تتسلّم بمطلوبات المنهج العقلاني والموضوعي في دراسة الماضي والحاضر على حدّ سواء.

٤ - افتقار المثقف العربي عامّة إلى النضج المنهجي في التعامل مع الأحداث فكثيراً ما يسارع المثقفون إلى التعبير عن استحسناتهم أو عن امتعاضهم من بعض المسائل أو المواقف دون أن يُنكس هذا الاستحسان أو الامتعاض نمثلاً واعياً لطبيعة المسألة المثارة أو الموقف المطروح إنَّنا لا نريد من المثقف أن يقدم لما طرأ سحريّة أو إجابات جاهزة بقدر ما نريد منه أن يثير أسئلة تستقرّ للقارئ فتحرّك أوجاعه وتولّد فيه الفلق الذي يُدعوه إلى مسائلة ذاته والانخراط في استعادة نقدية جادة لبعض مسلّماته وبدهياته. إنَّ مثل هذا المنهج التقفمي التراجعيّ يساعد على تشكيل بنية جديدة للعقل العربي الإسلامي تكون قادرة على مواجهة أسئلة الحداثة والإسهام فعلياً في بلورة قراءة جديدة للتراث الإسلامي

هذه بعض ملامح الواقع الذي يعيشه المثقف في مجتمعاتنا العربية الإسلامية. وهي ملامح تؤكد الحاجة إلى مراجعة جذرية يسائل من خلالها العقل العربي الإسلامي واقعته وذاته. لأنَّ هذه المسألة هي مي اعتقادنا البداية الفعلية لمسيرة الحداثة التي يمكن أن يشنّها المثقف العربي

تونس

# العودة من غرداية

## حسن فتح الباب

[المرحوم ممدوح زكريا، شاعر الثورة  
الجزائرية]

١ - مدينة جزائرية في الجنوب الصحراوي، وهي مسقط رأس مفدى زكريا شاعر الثورة الجزائرية، وصاحب التشييد الوطني الجزائري «فستشاً بالنزلات» الذي لحقه الموسيقار المصري محمد فوزي وقضى هذا الشاعر الشائر الكبير سنوات طويلة في سجون الاستعمار.

٢ - اسم للمنطقة الجزائرية التي تقع فيها واحدة غرداية

تَسْطَعُ غَرَادِيَّةُ<sup>(١)</sup> من وَهَجِ الشَّمْسِ  
يَتَلَحَّحُ الأفقُ وينجذب الغيم  
ورُفَاتُ الشَّهَدَاءِ البررة يَحْضُلُّ.

تتواري خلفي الأشياخ

من حيث أتيت،

وتُطَلُّ الأطياف

أجنته كالأمواج

بين جنود النخل

تترأى فوق الأبراج.

وأرائي نُطْفِه

في جوف الكون الغامض

تشتاق إلى ذكرى

من عهد الحلم،

ذرة رمل

في صحراء الوهم،

أغنية للملأح التائه

فوق عباب اليم

ترنيمة أم

لرضيع جملته اليم،

نفحة أنفاس

من عطر الأحباب الماحين

من ينبوع دافق

لامرئي تحت رواابي غراديته

تجلى آية

بيضاء في أطياف الليل

للقافلة السَّيَّارة بين الأنواء،

أنواء الأطلال الفرقي

في لجج النسيان.

والأنهم رايه

تهوي للغمراء

بزغت بين قبور الشهداء

وميت التاجين من الطوفان

يوم النصر الأكبر من نوفمبر.

♦ ♦

ووقفت على الأعراف

أتأمل في الأطياف

أنتظر النجم الناقب

النسر الغائب

مفدى زكريا

أن يطلع فأناجيه:

يا زكريا الثورة، قد أوفيت العهد

وصدقت الوعد،

يا صجد الكلمه

أقوى من قطبان السجّان

من مقصلة الجلاد

يا تكبيراً من صلوات الأرواس

فوق أعاليها وهضاب الميزاب<sup>(٢)</sup>

موطنك السابح في أضواء الأمل

وأشواق الغد وخفايا المجهول

موطنك الساجي يحلم بالإسراء

في فلك الأقمار

خفت أحقاد الغرماء

عاد الغرباء

واستعلت في واديك الرايات

واشتعلت أصداء

من قبارة عشاق الحرية.

♦ ♦



في زفرائات البرواقية في بارباروس<sup>(١)</sup>

قرباناً لضحايا الحرية

زُلّقى للديوقراطية

تخليداً للهب القدس

تجيداً للشهداء

والسارين على الشوك

كي يزهو وردُ بساتين الكرماء

وكروم الرحماء

أحفاد ابن زياد

أبناء ابن نصير

الفرسان العشاق البرره

المنذورين لبعث الأجداد

ولحمها لغة القرآن

وحديث رسول الله

وترتيل أبي بكر وعمر

ولجأوى عثمان

وعلي وأبي ذر.

♦ ♦

مفدى زكريا،

ها أنت تعود إلينا

تُقرئنا من ديوانك

سحراً نعرفه في أشعار مقاومة

أبدعها إيلوار

وأراغون ونيرودا،

أطعمها من تابوت النفي

ناظم حكمت

شمساً غراء

أقماراً خضراء

وسنابل تُحيي الموتى،

مفدى زكريا

ها أنت تراني عدتْ لألقى عليك

يشده قسماً

من فوق سموات الذكرى

فتجيب الأعماق وتهتز الأفاق.

أما أنا فرائتُ المولد،

مولدك السامق في غردابه

ويعني مشتاق ملتاع ساءلتُ المهدي

أن يأسو حرماني من لقياك

حين حلت عزيلاً ملء الأحداق

بين محبيك الشعراء

في وطن الحب، العهد، الثورة

بين حفاف النهر الكوثر

ورأيت الفارس عبد القادر<sup>(٢)</sup>

في طلعة عيد الناصر

وهو يصبّ اللعنت

على رأس الشيطان

يوم العدوان القادر

وتدوي صحفته:

أترك للتواري الأحرار

في أرض الأوراس

تأديب الطاغية الأفعى بينو<sup>(٣)</sup>

وأعد الأبطال

بشواطئ من نار

حتى يحتدل الميزان.

♦ ♦

مفدى زكريا

كم مطرت قوايلك بدمك التازف

فوق الجدران الصماء السوداء

١ - هو الأمير عبد القادر الجزائري الذي قاد حركة مقاومة مسلحة ضد الاستعمار الفرنسي في القرن التاسع عشر.  
٢ - هو رئيس الوزراء الفرنسي أثناء العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦.  
٣ - اسمها سجن في عصر الاستعمار كُتبَ فيها مفدى زكريا عديداً من القصائد

فيقوم الفقراء

ملح الأرض

ويجفّ الطوفان .

ها أنت تعود إلينا

ونعود إليك

تُنشد إلياذتك العصماء .

لو أنك يا زكريا

طال بك العمر فادركت

هذا المصر المربوء بدء بني صهيون

وبقهر البيت الأسود

ورأيت ضحايا شارون الأخرق

في الضيقة، في غزّة، في نابلس :

محمد الدرة

إيمان حجر

وعروس القدس وفاء

تفدى بيارات أريحا والمجدل

ترفع علماً من دمها لفلسطين .

♦ ♦

لو أنك يا مفدى

شاهدت الشعب الثائر كالبركان الهادر

يدروا عن أمتة عازة الصمت

يستعذب طعم الموت

كي تصحرو وتظهر أرض الزيتون

من دنس الموصمين الفجار

شدّاذ الأتاق وأعداء الإنسان ،

لو أنك أطللت من الملأ الأعلى

لانتفضت روحك من هول المأساة

وتذكرت جزائر ترك الربا

بدماء الصرعى والجرحى والمؤوذين

فتغنيت مجد الأطفال الأبطال

ونظمت قلادة ملحمة أخرى :

إلياذة شعب فلسطين ،

وترنمت بآيات النصر الموعود

يوم يموت الموت ويهني

ثمر الحرية أبناء الشهداء

في الأوراس وفي القدس .

♦ ♦

مفدى زكريا ، يا قدّيس الثوار

يا تاجاً فوق جبين الشعراء العرب

الأحرار

شوقي ، حافظ ، والبارودي

العبد خليفة ، والشامي

غنى فتدفقت الأنهار

وتوفجت الأنجم والأقمار

وانطلقت ملء الأتاق الأطيّار

تشدو في الآصال وفي الأسعار

وازيّت الأوطان

بأكاليل الفار .

مفدى زكريا ،

يا علماً نورانياً للأبطال .

القاهرة

# فلسطين وتحرير الشارع العربي

مفلم من اعداد: سماح إدريس (بيروت)

## المشاركون

لأله خليلي

ماهر اليماني

Free Arab Voice

أحمد الخيمسي

إبراهيم علوش

محمد نجاتي هابله

خالد المسقياني

المقرن أبو زيد الإديسي

ناصر البرغوثي

القرن أبو زيد الإديسي

ناصر البرغوثي

القرن أبو زيد الإديسي

ناصر البرغوثي

القرن أبو زيد الإديسي

ناصر البرغوثي

القرن أبو زيد الإديسي

ناصر البرغوثي

القرن أبو زيد الإديسي

ناصر البرغوثي

القرن أبو زيد الإديسي

ناصر البرغوثي

القرن أبو زيد الإديسي

ناصر البرغوثي

كان أبائنا في المستعبيات يقولون إن على الشارع العربي أن يصرخ  
فلسطين، فإذا بأولادهم يتكشفون أن فلسطين هي التي تُسبهم اليوم في  
تحرير الشارع العربي من كثير من قيوده وعيوبه. فالمسيرات،  
والاعتصامات، وحملات الدعوة إلى مقاطعة البضائع الداعمة للاقتصاد  
«إسرائيل» (مع الاعتذار عن وضع دولة العدو بين مزدوجين كما علمنا  
أبائنا)، والنشوات غير الرخصة من طرف الانظمة، أسهمت جميعها في أن  
يتحرك المواطنون والمواطنات العرب دفاعاً عن أنفسهم لا دفاعاً عن  
فلسطين فقط. فتمازجت الشعارات الوطنية والقومية والإسلامية  
والعلمانية، وجرى حوار بينها وبين حاملها تنمى أن يتواصل، وسارت  
«السايفرات» إلى جانب المحجبات، وترسخ عداؤ الجميع للولايات المتحدة  
واللانظمة المانعة. وبأن لنا أن القومية العربية - التي بشر بعض المثقفين  
أمثال فؤاد عجمي بموتها - مازالت حية تُروى

كانت فلسطين في شهر نيسان مرآة لأنفسنا وقد تعرّينا من خوفنا وجبننا.  
أمام حراس السفارة الأميركية، وقوى الأمن، ورواد مقاهي الأرصفة.  
استغفنا كوفيّاتنا وشبابنا الأول، واكتشفنا أننا لم ننس الأغاني ولا  
الشعارات ولا شقيق اللمرء، وأتينا مازلتنا نحسن رمي المجارة ورذ قنابل  
الغاز على شطفتها

في الملف التالي مقالات كتبها مثقفون وناشطون من سوريا ومصر والأردن  
والغرب ولبنان وإيران وأميركا (هناك شارع عربيّ وتقديمي في أميركا  
أيضاً)، يحاولون فيها رصد ما بثته فلسطين في الروح من اختلاجات،  
وكشفت مواطن العلل في ما هو - بالتاكيد - أحد أبرز إرغاصات الثورة  
العربية الجديدة.

س:

## بيروت (١): رؤية طالبة إيرانية مناهضة للعولمة

لايه خليلي

### الشارع العربي والمحاولات النظامية

عقب انتهاء أعمال القمة العربية في بيروت مؤخرًا، وبعد أن أمر أرييل شارون جيش الدفاع الإسرائيلي باجتياح مدن الضفة الغربية وقراها ومخيمات اللاجئين فيها، ممطرًا البنى التحتية للسلطة الفلسطينية ومتسببًا بمقتل مئات الفلسطينيين المدنيين والعسكريين، جاء احتجاج رؤساء دول الشرق الأوسط وملوكها ضمنيًا خاويًا. وعلى العكس من ذلك تفجرت الشوارع في الشرق الأوسط عامة، باحتجاجات عارمة بلغت أحيانًا حدّ الصدام مع قوى الشرطة والأمن، وأدت إلى مقتل بعض المتظاهرين

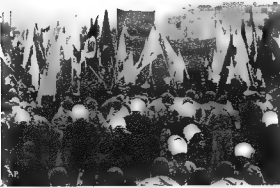
كل وسائل الإعلام، الأميركية والأوروبية والعربية، وصفت وصورت الانهيار البشري المتدفقة خلف الأعلام الملونة - التي كان كثير منها أعلامًا فلسطينية - وخلف باغطات تملأ أهداف المتظاهرين وولاءاتهم. وقد سمحت الاحتجاجات بأن تتوَّج بشكّال عذبة، كما هي العادة، فمن جهة احتفى بها لكونها عرضًا علنيًا لقوة المتظاهرين ولكن على الجانب الآخر من الطيف - ولأسيما حيث تُركّز القنّات المملوكة من زوايا غير جذابة على رجال غاضبين يُلتمحون أقواضهم بين صرختين - اعتبرت وسائل الإعلام الأجنبية المتظاهرين «مشاغبيين» تلاعب بهم للصحافة العربية في أحسن الأحوال، ويشتبهون عندهم البِدائي في أسوأها. وراح الكتابُ الجهادية والنقادُ يكتبون عن الشارع العربي، وعن آثار غضبه المزعزعة للنظم العربية «المعتلة».

إنّ يلعب «الشارع العربي» دورًا بارزًا في هذا الحدّ في الخطاب السياسي وفي النقد الإعلامي في الولايات المتحدة، وإنّ يستعرض معظم الصحف العربية ووسائل الإعلام صورَ التظاهرات وأخبارَ التظاهرات إلى هذه الدرجة الهائلة، أمران يشهدان على قدرة الاحتجاج الجماهيري - وإنّ جزئيًا في أقلّ تقدير - على التأثير في حسابات ومشايغل صناع القرار في الولايات المتحدة وفي الشرق الأوسط معًا. فمعظم الأنظمة المحلية «ترخص» الاحتجاج الجماهيري،

أو تراقبه، أو تتعامل عليه. ولهذا، فإنّ اندلاع التظاهرات والاعتصامات ومسيرات الشموخ الصامتة، حين تُبدأ جميعها من دون إذن رسمي، تُشكّل ضغطًا أيضًا على الحكومة، أو على الأطراف الأخرى التي يوجّه الاحتجاج إليها. بعض الأنظمة تحاول أن تكسب شرعيتها المفقودة من خلال احتواء التظاهرات المستقلة والبعض الآخر يُسمح بقيام التظاهرات لاعتقاده أنّها تشكّل صمامًا أمان لإطلاق الاحتقان الشعبي المكبوت، مبادمت هذه التظاهرات تُستهدف عدوًا خارجيًا بدلًا من السلطة المحلية. والحال أنّ تظاهرات الاحتجاج تشير، على المدى القريب وفي غياب استفسارات واستطلاعات رأي موثوقة، إلى آراء مجموعات متعلّبة داخل المجتمع. وهي على المدى البعيد ذات آثار غير مقصودة في بعض الأحيان، كلّ تنفع إلى التماسك (أو التنافر) الاجتماعي، وأحيانًا في ميادين لا علاقة لها على الإطلاق بـ «أجندة» الاحتجاج الأصلية

والحقّ أنّ التظاهرات الأخيرة المصابتة لإسرائيل في المنطقة - والمعادية من ثمّ للولايات المتحدة - تشمل جميع الملاحظات السابقة وتُشهد على حسنتها أيضًا في غياب أنماط مشاركة شعبية مفتوحة أو ديمقراطية كان احتواء الأنظمة للتظاهرات واحدًا من أكثر التكتيكات وضوحًا للعيان. فمن أجل استرضاء الجماهير الفلسطينية الضخمة في الأردن، ومن أجل تلميع شرعية سياسية للنظام الأردني عبر احتواء الاحتجاجات الشعبية، سارت الملكة رانيا (وهي بدورها من أصل فلسطيني) على رأس تظاهرة في عمان. ولم يتمّ هناك استخدام التعبيرات السياسية للحديث عن معاناة الفلسطينيين في الضفة وغزة، بل اقتصر الأمر على استخدام التعبيرات الإنسانية وحدها. ولهذا الهدف نفسه سمحت أنظمة خليجية متعلّبة بجمع التبرعات الخيرية للشعب الفلسطيني (التي قُدرتها حيلة إيكونوميست بـ ٣٠٠ مليون دولار).

في استعراضات التضامن «الطنّي» تلك، لم يتمّ الحديث عن نواظر الأنظمة العربية الصامتة على مصير الفلسطينيين، باستثناء ما



حين وصل ياول إلى ابندان عمدت قوات مكافحة الشغب إلى تطويق المحتجين ومنعهم من الوصول إلى المطار

ثمة دول تصدّت للتظاهرات بالعنف النظم: ففي البحرين أدى مقتل أحد المتظاهرين على يد الشرطة أثناء مسيرة متوجهة إلى السفارة الأميركية في ٥ نيسان (أبريل) إلى اندلاع تظاهرات عنيفة أخرى في النامة وفي مصر انتهت المظاهرات، التي لم يشارك فيها تقريباً إلا طلاب جامعيين غاضبين في القاهرة وبضع مدن رئيسية أخرى بعنف دمويّ إذ قُتل أحد الطلاب في الإسكندرية في ٩ نيسان (أبريل). واستخدمت الهراوات وقنابل الغاز المسيلة للدموع بكثافة على الطلاب في القاهرة. وقد تكررت بعض التقارير أن الشرطة اعتذرت للطلاب عن ردّها القاسي حين أجبرتهم على العودة إلى حرم جامعة القاهرة ومنعتهم من السير إلى السفارة الإسرائيلية وقام الرئيس حسني مبارك، وقد شعر بالضيق الشعبي، برفض لقاء كوان ياول، وأبلى بتصريح ناريّ (نسيبيّ) ضدّ إسرائيل

في السعودية مُدّت المظاهرون بالتوقيف القويّ إنّ هم اختاروا أن يستعرضوا غضبهم وإحباطهم على نوعٍ جماعيّ في الشوارع ولكن أحد البرامج الخيرية جنّص مبلغاً كبيراً من المال لخصاميا العدوان الإسرائيليّ الفلسطينيّ، وشيخ للجراند التي تُملكها الدولة بنشر مقالات صاندة البيرة ضدّ إسرائيل (وهذه الولايات المتحدة وإنّ إلى حدّ أقلّ بكثير).

في ضوء هذه المحاولات النظامية من الاحتواء والاسترضاء والقمع في بلدان الشرق الأوسط المختلفة كانت تظاهرات بيروت، حيث الحرية للديمقراطية منازل أكثر من نظيراتها في تلك البلدان، قد نُظم أكثرها على يد منظمات سياسية مستقلة تحظى بقاعدة شعبية، ولم ينظم إلا القليل منها على يد السلطة نفسها. وقد شملت التظاهرات الشعبية تشكيلة واسعة من الأطراف، وباتت تحدث في كلّ يوم مع بلوغ الهجوم الإسرائيليّ على البنى التحتية الفلسطينية نبرته ومُمكن تصنيف احتجاجات بيروت كالتالي اعتصامات وحلّ شعور، حملات مقاطعة بضائع، مسيرات وتجمّعات، وتظاهرات عنيفة

جاء على لسان بعض الأنظمة العربية (كتظامي سوريا والعراق) التي كانت لها أسبابها المحلية الخاصة لإدانة الصمت العربيّ. ولم يُسمَح إلا نادراً بالحديث عن أنّ استخدام الدول العربية للعقوبات الاقتصادية قد يكون عملاً عظم فائدة للفلسطينيين من التبرعات النقدية (وهذه ضرورية هي أيضاً بالطبع) بل على العكس نعتت السعودية والكويّت إلى حدّ طماننة الولايات المتحدة إلى أنّهما لن تستخدمتا سلاح النفط، ولم تفكر الدول العربيّة التي تقيم علاقات تجارية هامة مع إسرائيل (والتي شريكها التجاريّ الأساسي هو الولايات المتحدة) بقطع تلك العلاقات مع إسرائيل أو أميركا أو بتخفيفها. بل إنّ دولة الإمارات العربية المتحدة، إنّ أسوأ أيام الحصار الإسرائيليّ لرام الله وجنين، عبّرت عن تصميمها على شراء طائرات بوينغ بقيمة عشرات ملايين الدولارات!

في سوريا خرقت سلسلة التظاهرات التي سمّح النظام بقياسها تظاهرة عمويّة وغير مرخصة خرجت من مخيمات اللاجئين الفلسطينيين المضبوطة بدقّة المدهش أنّ التظاهرات غير المرخصة لم تُقم، وإنّ لم تُهرّز إلى جانب الأخبار «الراسخة» الأخرى في الصحافة السورية والحق أنّ أبناء هذه التظاهرات تسرّبت في معظمها عبر الأقوال التي نقلتها مراقبون لم يصنّفوا ما كانوا يرون.

في ٧ نيسان (أبريل)، وعشية وصول كوان ياول إلى المغرب في إطار جولاته التوسّعية للترويج قبل أن يحط في القدس، تظاهر حوالي مليون شخص في الرباط ضدّ الدعم الأميركيّ لإسرائيل. غير أنّ المظاهرين المغاربة لم يُسمَح لهم بالتظاهر إلاّ لقبل وصول وزير الخارجية الأميركيّ، لا أثناء وجوده هناك. وجنّ وصل ياول إلى الضفة الشرقية من المتوسط عمدت قوات مكافحة الشغب اللبنانية، المجهّزة بخراطيم المياه وقنابل الغاز المسيلة للدموع، إلى تطويق المحتجين في إحدى التظاهرات الصباحية المبكرة التي نظّمها حزب الله على عجل وشارك فيها طلاب مدارس مُشرّبة والمطعميون من مخيم برج البراجنة، ومنعهم من الوصول إلى مطار بيروت.

### اشكال التضامن في بيروت

فإنما الاعتصامات وجعل الشموع فكانت قد بدأت قبل القصة العربية بزمان طويل (ولك يعمل شموع في ساحة الشهداء في ٢٢ آذار، ومن جديد أمام مقر الأمم المتحدة في ٢٩ آذار أيضاً) واستمرت منذ ذلك الحين. وثمة حملٌ للشموع جرى في كنيسة في محيط شارع الحمراء في بيروت الغربية، واستقطب نساءً فلسطينيات من مخيمات اللاجئين؛ وهو ما أطلق المجالاً لتضامن جديد بعض الشيء، جمع بين لبنانيين ومسيحيين فلسطينيين من الطبقتين الوسطى والعليا من جهة، ومسلمين أقل ثراءً قادمين من مخيمات بعيدة عن شارع الحمراء بقُدُما من جهة ثانية.

إلى جانب الاعتصامات الطارئة التي تخلع عفوية احتجاجاً على الدعم الأميركي لإزهاج الدولة الإسرائيلية، ثمة اعتصامات متواصلة يستحقان تنويعاً خاصاً. الأول بدأ في ٢٩ آذار (وما زال مستمراً حتى تاريخ كتابة هذا المقال) حين قامت مجموعة من الطلاب المستقلين واليساريين باحتجاج سلمى أمام مبنى الأمم المتحدة في الوسط التجاري من العاصمة، ثم انتقل هذا الاحتجاج إلى ساحة الشهداء يطلب من القوى الأمنية اللبنانية، وعلى مرأى من هذه القوى قُصد الطلاب الناشطون - الذين كانوا يَحْتُمون من مطر أول نيسان الشديد بجنم تُصب على عجل - أن يواصلوا احتجاجهم حتى يُوقف جيش الدفاع الإسرائيلي حصاره لبلدات الضفة الغربية ويُصب المحتجون لوحاً إعلانياً خشبياً، وتُضروا عليه قصاصات من الجرائد والمجلات، وإعلانات عن نشاطات قادمة. كما عُرضوا أعمالاً فنيةً وصوراً فوتوغرافية رسمها أو انتقها أطفال فلسطينيون من مخيمات اللاجئين في لبنان. وقد استقطب هذا الاعتصام زيارته قام بها سياسيون (مثل وليد جنبلاط)، وناشطون يساريون معروفون (مثل ليلى خالد، التي حازت شهرة عالمية بسبب خطفها طائرته في أوائل السبعينيات باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين)، وعدة مثقّين ومثقفين وفنانين قاموا بعروض ومهرجانات

عفوية حول مكان الاعتصام. غير أن الطلب الذي تقدّم به الطلاب إلى بلدية بيروت بهدف السماح لهم بنصب خيمة في الساحة نفسها - من أجل عرض أفلام وإقامة مهرجانات فنية - ضاع كما رُغم في التهامات البيروقراطية لبلدية بيروت. وبعد يومين على «ضياع» هذا الطلب، سُمع لحزب الله بنصب خيمة ضخمة في المكان نفسه، وعلى شكل مسجد الصخرية، مع علم للحزب، إلى جانب علم فلسطين وباطنات تُعلَن «لحزب أمريكا».

وأما الاعتصام الثاني المتواصل فجري أمام مبنى الأمم المتحدة، وفي خيمة أرفع مستوى من سابقها، وحضره عدد من رؤساء المنظمات غير الحكومية المحلية العاملة في مجال حقوق الإنسان، ولاسيما تلك التي تُعمل مع الفلسطينيين. وقد تميّز هذا الاعتصام بشمارته الإعلامية، حيث جُلِبَ نشاط هذه المنظمات أطفالاً لقراءة الرسائل والقصائد، ودُعِيَ مصوّرين وصحفيين وسياسيين إلى مشاركتهم

أما حملات مقاطعة البضائع الداعمة للاقتصاد الإسرائيلي فقد بدأت بحملة طلابية على حرم الجامعات، وانتشرت انتشار النار في الهشيم، لتنفذ أعمال عصيان مدني. وقام ناشطون سلميون بإغلاق بضعة مطاعم لبرغر كُنج وماكدونالدز بمجرد دخولهم إليها، وتطويرهم منصة الحاسبة في الداخل، وسُهم الداخل في الخارج. وقد تُلقت هذه الحملة دعماً إضافياً حين اجتمع أساتذة الجامعة الأميركية في بيروت وموظفوها وطلّبوها من إدارة الجامعة سحّب تعويضات الموظفين من شركاتها يتكلمها إسرائيليون وكانت جزءاً من صندوق الاستثمارات. وفي عدة مخيمات فلسطينية في لبنان، تمّ تجميع طلب سجناء أميركيين وإحراقها في محارق ضخمة. وقد أوردت فائضانفشل تابعين في نهاية نيسان (أبريل) أن عدداً كبيراً من البائعين بالمفرق في لبنان تحمّلوا عن مبطوط في مبيعات السجائر الأميركية. ودُعِيَ العلامة المسيد محمد حميد فضل الله، وهو واحد من أهم مرجلح الشيعة في لبنان، هذه الجهود حين دعا علناً إلى مقاطعة البضائع الأميركية



في بيروت قام ناشطون بإغلاق بضعة مطاعم لمدير غر كنغ وماكدونالدز بمجرد تطويلهم مضادة الحاسبة

المسيحيين في جامعتي القديس يوسف واليسوعية تطعموا مسيراتهم الخاصة دعمًا للفلسطينيين، وتحدث ممثلون عن حزب الكتائب في ممبيرا وتجمعات مختلفة ضد إسرائيل.

والحال أن المسيرات إلى مقر الأمم المتحدة والتشديدات في شوارع بيروت، جميعها تتأشد المجتمع الدولي الضحل، يجب تمييزها من المسيرات التي جرت إلى السفارة الأميركية فالسيرات الأولى انتهت باستقبال المسؤول الإعلامي لها، الأستاذ نجيب فريجي، الذي كان يتلقى بيانات الحشود نيابة عن كوفي أنان، في حين أن السفارة الأميركية كانت تزعم أن تفتت بأي من ممثليها لاستقبال المحتجين حتى حين كان هؤلاء مجموعة من المهنيين السلميين تضم حوالي ٥٠٠ مهندس ومحامٍ وطبيبٍ وصيدلي، كما وصفهم الأخبار بتاريخ ٥ نيسان (أبريل)، أو تجمعا يشمل ألني امرأة تم تنظيمه بفصل عدة منظمات نسائية غير حكومية وبعض الهزات (كما جاء في أخبار ١٠ نيسان)، بل إن قوى الأمن نصبت حواجز تبعد حوالي كيلومتر عن مبنى السفارة، مانعة المحتجين والمحتجات من الاقتراب من الاسلاك الشائكة الممتدة أو تضيها وردأ على ذلك، وفي مناسبتين اثنتين (٣ نيسان و١٢ نيسان)، قُرت تنظيمات شبانية واديكالية أن تسلط مزيدا من الضوء على هذه الاحتجاجات، فقام عناصرها برمي الحجارة على قوى الأمن. فعمدت هذه إلى استغلال خراطيم المياه الشديدة الضغط، وقنابل الغاز المسيلة للدموع، والتهورات، لتفريق الطلاب، وأعلنت رمي الحجارة على المتظاهرين. وقد نجحت أساليب الشباب العنيفة هذه في تحقيق هدف واحد على الأقل من أهداف المحتجين المقلدة، وهو حَرْفُ أعضاء الإعلام المحلي وتسلطه على الدعم الأميركي للعنوان الإسرائيلي في هذه الحالات جميعها افاد الاحتجاج أجندة الأحزاب المشاركة، وسنخ بعرض مشاعر الغضب الشعبية من أعمال إسرائيل، وأدى إلى نتائج إيجابية لم تكن مقصودة أيضا. فالاحتجاجات الضمنية

وأما المسيرات في بيروت فقد كانت هي أكثر أشكال الاحتجاج على الاجتياح الإسرائيلي عدداً، وأبرزها للعيان. بعضها كان يبدأ من داخل المخيمات الفلسطينية أو من محيطها، ولم تكن الجرائد أحياناً تتحدث عنها، وغالباً ما كانت قوى الأمن اللبنانية تُشعها أو تطوقها بشدة. فقبل بدء أعمال القمّة العربية في نهاية آذار (مارس) وضعت دبابات وآليات عسكرية لبنانية إضافية على مداخل تلك المخيمات، وعند بؤر التجمع الفلسطيني مثل مقبرة شهداء شاتيلا. وأحياناً كانت قوى الأمن تُشع المتظاهرين في مخيم شاتيلا من مشاركة نظرائهم من مخيم برج البراجنة الواقع إلى جنوبيه. غير أن حالات المنع القليلة هذه فاقتها عدداً المسيرات المنظمة والواسعة التي لم يشارك فيها أبناء المخيمات وحدهم، بل أعضاء كثيرون من الأحزاب اللبنانية المختلفة أيضاً.

والحق أن التظاهرات قد كانت عرضاً حقيقياً للحياة السياسية في المجتمع اللبناني. ففي كل تظاهرة كان بإمكان المرابط غير الملّغ أن يضمن إلى أي تنظيم سياسي يُنسب هذا العلم أو ذاك. ثمة بعض التنظيمات التي تُشغل معرفتها من أعلامها المرفقة، كالحزب الشيوعي مثلاً، بمنجله ومقره. وهناك تنظيمات أخرى ذات رموز مميزة، كحزب أمل بدلتها التي قرسم اسم «أمل»، والحزب السوري القومي الاجتماعي بزويته الحمراء. وتُشن تنظيمات وتجمعات أخرى عن نفسها بأعلامها، كما هو حال المرابطين وجمعية المشاريع والمخبر الديموقراطي والحزب التقدمي الاشتراكي والتنظيمات الفلسطينية المختلفة (مثل فتح، والجبهة الديموقراطية، والجبهة الشعبية، وحماس، والقيادة العامة، وبرز مؤخرًا متعلمون مع كتائب شهداء الأقصى). وتُشن معانيه علم حزب الله الأصفر عن بُعد. هذه المسيرات غالباً ما تبدأ من نقطة انطلاق محددة سلفاً (المجلس البلدي أو للتحف الوطني) وتنتهي دائماً تقريباً أمام مقر الأمم المتحدة في الوسط التجاري، حيث يُسكّل الناطق الرسمي باسم التظاهرة بياناً لأحد ممثلي الأمم المتحدة، والمدهش أن الطلاب

## بيروت (١): رؤية طالبة إيرانية مناهضة للعولمة

نُعاملُ هنا في لبنان، وكثير من الفلسطينيين يكرّون القول اللاذغ التالي: «كلهم يحبّون فلسطين ويكرهون الفلسطينيين» ويبدو أنّ مخاوفهم هذه تعزّزت أثناء تظاهرات طلبة موارنة في جامعة القديس يوسف، حين سُمِعَ متظاهرون يُلْقون على الفلسطينيين في لبنان المسؤولية الكاملة عن اندلاع الحرب الأهلية في لبنان ويَزَيّنُ أنّ مشاركتهم الخاصة في تلك المسيرة إنما هي محضُ عمل من أعمال «الشهامة». كما أنّ الدعوات إلى بناء دولة فلسطينية وإلى تنفيذ حقّ عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم ليست بالضرورة تعبيراً عن رغبة «خالصة» في بلوغ العدالة؛ ففي كثير من الحالات يكون الإصرارُ على حقّ عودة الفلسطينيين قناعاً يُخفي كراهيةً قويّةً لدعوتهم، في لبنان. غير أنّ تضارب المصالح المتبادلة بين الطرفين تبدو مسألة أجيال بشكل قويّ؛ فالفلسطينيون الذين يذكّرون الحرب الأهلية اللبنانية هم أقلّ تسامحاً بكثير من الناشطين الفلسطينيين الأحداث سنّاً الذين يَسْتَقِرُّون نشاطاتهم اليوم مع نظرائهم اللبنانيين وفي ميادين مختلفة. كما أنّ اختلاف الأجيال ظهر أيضاً في «إدانة» أعمال الشغب من طرف «التجسّع الوطني للإنقاذ والتغيير» أمام السفارة الأميركية. وكذلك في مشاعر الانزعاج التي عبّر عنها بعض الفلسطينيين إزاء احتكاك قوى الأمن اللبنانية بالشبان الفلسطينيين الراديكاليين الذين كانوا يَزُمون الحجابة أثناء المسيرات باتجاه السفارة الأميركية في منطقة عوكر.

### أين نجحت التظاهرات وأين فشلت؟

لقد قدّمت حركات الاحتجاج التي شهدتها الأسابيع الأخيرة خارطةً سياسيةً للبنان ما بعد الحرب الأهلية، وهي خارطة يُبْنِى عليها الطبع قراخها بدلاً والتفوّس في تفاسيها بما يتعدّى الأعلام الحزبية والشعارات السياسية. ذلك أنّ قوّة هذه المجموعة

أحياناً هي الجلال الأوحّد لشعب محروم لا يملك أيّ وسيلة إعلاميّة من أجل التوجّه إلى مثقبي السياسيين المخترّعين أو إلى مصادر القوّة الاقتصاديّة والسياسيّة. وبهذا، فإنّ وجود المتظاهرين الفلسطينيين في المسيرات داخل بيروت أمرٌ دالٌّ فعلاً. وأن لا يُمنَع الفلسطينيين، بشكل عامّ، من المشاركة في هذه التظاهرات، فذلك أمرٌ إيجابيٌّ، مع أنّ حضورهم غالباً ما كان يُحسّ بسبب وجود أحزاب لبنانية أكثر عدداً وتجهيزاً

لو لم تُنتج عن هذه المسيرات فائدة سوى إظهار الشعب اللبناني تضامنه مع الفلسطينيين، فذلك شيءٌ دالٌّ في حدّ ذاته. وقد سبق أن ذكرنا أنّ بعض الشخصيات الكاثوليكية انضمت إلى شخصيات من أحزاب أخرى في شجب الاعتداءات الإسرائيلية على الشعب الفلسطيني، وأنّ طلاباً من بيروت الشرقية شاركوا في التظاهرات. غير أنّ مظاهر الدعم هذه لم تكن عامّةً؛ فبعد بعض المظاهرات التي كانت مخصصةً للخلاف (في نيمسان)، وظهّرت خلالها بعض الشعارات الفلسطينية التي تهدّد بإحراق السفارات إذا استُشْهِد ياسر عرفات، شجّب أتباع الجنرال ميشال عون (المنفيّ) هذه الشعارات المُتَّهبة شجباً شديداً وحذّروا الشعب اللبناني من خطر أن «يتمتدّ التأثير الفلسطيني» خارج المحيّمات.<sup>(١)</sup>

### لفلسطينيو لبنان والتضامن اللبناني

وأما ردود الفعل الفلسطينية على مظاهر الدعم الشعبي اللبناني فكانت متضاربةً بعض الشيء، ففي حين يعتبر اللاجئون الفلسطينيون علناً عن امتنانهم لأعمال التضامن اللبناني، فإنهم في السرّ يلقّون براراً على ما يُتَقبَرونه نقاداً واسعاً صادراً عن الأحزاب السياسيّة اللبنانية. فقد قالت امرأة من مخيم برج البراجنة مثلاً «إنهم يَدْعُوننا حين تُقْتل في فلسطين، ولكنهم يَسْتُون كيف





قررت تنظيمات شبابية وديكالية الوصول إلى السفارة الأميركية في منطقة عوفر، فوجهت بالاعتصام

الإسلاميين مقسمون بحسب الجنس، بحيث تشي النساء خلف الرجال). فحين وحدة الشعب في القضية!

كما نجتحت تظاهرات بيروت في التعامل مع وسائل الإعلام إلى حد ما. فقد نعت وكالات الأنباء المختلفة، فضمت ظهور أخبارها في جميع الصحف الكبيرة المحلية (وبعض الصحف العالمية أيضاً). ومن الناحية المملانية نجحت في تنظيم المتظاهرين في الشوارع بحيث لا يكون الأثر البصري للتظاهرات طفيفاً. كما أن كثيراً من التظاهرات تحدثت عن التضامن المسيحي - الإسلامي، وكان عدد كبير من الياقات بالغة الإنكليزية، وهاتان حقيقتان تشيران إلى أن منظمي الاحتجاجات كانوا يتوجهون إلى جمهور عالمي. ومن هذا المنطلق كان سيكون مفيداً، ربما القيام بقرى ما من الانضباط: فالمتظاهرون الأجانب مثلاً يميلون إلى تركيز عساكرهم على الأطفال الذين يرتدون زيّاً عسكرياً (ربما ينسجم مع الكليشيهات التي تتحدث عن «العرب الضريحيين»)، وهم على استعداد تام لأن يلتصقوا - ويشراهه - صورا أطفال مدثرين بالكافان ومزّزين بلهزمه نافعة مزينة (يتشاهد على ذلك عدد المرات التي التفت فيها عشرات المتظاهرين الأجانب بصورة صبي واحد، لا ثاني، له على هذه الشاكلة). والحق أنه بغض النظر عن الموقف الرسمي الذي يتبناه المتظاهرون من أخلاقية التفجيرات الانتحارية وفكائيتها فإن عليهم أن يتقروا أن صورة أطفال مزّزين بالتفجيرات لا يمكن إلا أن تُعزّز المسبقات الطائفة التي يملكها الجمهور الغربي عن العرب والمسلمين.

وأخيراً، فقد تم اختيار الطريق العام الذي سلكته التظاهرات بحيث تنتهي معظمها أمام مقر الأمم المتحدة، في حين كانت أكثر التظاهرات المنطلقة من الضاحية الجنوبية لبيروت تنتهي عند مقبرة الشهداء في شاتلوا. ولا يُمكن للمرء أن يُقلل من القيمة الرمزية والبصرية للموقع الأخير في تحفيز مشاعر التعاطف مع الشعب الفلسطيني. كما أن مناشدة المجتمع الدولي - مثلاً بقر الأمم المتحدة - إدانة العدوان

السياسية أو تلك من القوى المشاركة في التظاهرات يجب ألا تُقاس فقط بعدد الاعلام والهتافاء لديها، بل تُقاس أيضاً في قدرتها على مثيرتها في إخراج مؤيديها إلى الشارع مجدداً، وبقدرتها على ممارسة التعمينة العابرة للحدود الاقتصادية والاجتماعية والجنسية والإثنية والدينية والمذهبية. كما أن التزام المنظمات بمبادئها المعلنة يُمكن قياسه من خلال تكتيكاتها وأساليبها أثناء تظاهراتها. وبهذا يُمكن القول إن الحزب السوري القومي الاجتماعي، وحزب الله بصورة خاصة، قد كانا ناجحين بشكل مميز من حيث حضورهما الثابت والواسع في التظاهرات. غير أن تمتع كلا الحزبين بـ «مخطوطة» من قبل القوى الإقليمية يُساعد في زيادة صفوفهما، ويُمسهما منيراً للجهر بأرائهما لا تُملكه أحزاب صغيرة أخرى.

هذا وقد نجح منظمو الاحتجاجات بشكل خاص حين تفرّقا طيفاً واسعاً من الآراء السياسية إلى أن يكون لهم تمثيل في صفوفهم. غير أن نزعة المساواة المذهبية لدى المتظاهرين لحظتها إلى حد ما بعض الأخطاء التكتيكية: فمكبرات الصوت التي تُصم الأذن، وتصدح بموسيقى عسكرية نافهة، تُخجب هتافات جميع المتظاهرين الآخرين وتُضفي إيقاعاً عسكرياً على تظاهراتهم في حقيقة الأمر تظاهرات سياسية وشعبية. إن إذاعة هذه الموسيقى العالية في نهاية المسيرات، والتي تُقصي احتمال تلاوة قاعة التظاهرات خطباً علنية، تجعل المجموع يُكاد لا هدف لهم ولا رسا. كما أن إصرار خلة الاعلام في التظاهرات الإسلامية على التجمع عند تُشوم المواكب الحزبية الأخرى، بحيث يُلمسون اعلاماً وإفاطار هذه الأحزاب المنافسة عن عسمة المتصورين وكاميرات التلفزيون، يُشهد هو الآخر على هذه النزعة المعادية للديمقراطية. وهذه التنظيمات الإسلامية تشوّع مواقفها المعلنة على المساواة بين الجنسين حين تُنظر بعين الانزواء، بل والعداء، إلى محاولة إمرأة الانحياز بالقسم «الرجالي» من التظاهرة (بملاحظ أن المتظاهرين

الإسرائيلي تلام وأفضل أشكال العلاقات الدولية (وإن لم تكن هذه مطبقة في الأعلى). ومع هذا، فلما كان المؤتمن كاهلاً يتقن إلى ساحة عامة واسعة، فقد راح المتظاهرون يفرقون عند نهاية المسيرة، فيذهبون إلى شوارع جانبية، أو إلى المواقف المكتظة بالسيارات. وفي رأيي أن اختيار ساحة الشهداء، ذات المساحات المفتوحة الشاسعة، لتكون محطة أخيرة للمتظاهرين سيخدم فائدة أجل لجموع المتظاهرين، بما يحفظ تماسكهم في نهاية التظاهرة ويعطي المتظاهرين إحساساً عميقاً ونصراً بأعدائهم المروعة ويقتربهم كما أن تجمعاً في هذه الساحة سيستغل القيمة الرمزية لساحة الشهداء بوصفها نقطة التماس لشرطي بيروت، فيتمتع للمتظاهرات بأن لا تقتصر على الاحتجاج على أعمال إسرائيل العنوانية بل أن تكون رمزاً للوفاء الوطني أيضاً.

غير أن بعض نتائج حركات الاحتجاج، كما سبق أن ذكرنا، لا تتبع بالضرورة من الأهداف الأصلية المكنة ولعل أوضح فائدة للتظاهرات الأخيرة هي خلق أطر عمل جديدة للاحتجاج. فقد وجد الناشطون من مختلف الأحزاب أنفسهم، وبما يتخطى الحدود الطبقية والفئوية والسياسية، يسير الواحد منهم إلى جانب الآخر، بل يكفي أن وجوه المتظاهرين وأعلامهم غدت - بعد أسابيع من التظاهرات - البقعة والحدود للآخر. فالحال أن الروابط العابرة للانتماءات السياسية والسياسات العنصرية بُنيت أحياناً دون أن نشعر بها. وهذه الولاءات الجديدة قد تُبنى، بدورها، على بناء ثقافة احتجاج، والدور التي تتمتع بثقافة احتجاج (مثل إيران أو فرنسا)، حيث يُنزل الناشطون إلى الشوارع في كل الأوقات لإسماع أصواتهم، تربى أيضاً في الجمهور إحساساً أعيق بالانتماء السياسي.

لقد كانت تظاهرات بيروت ميداناً لتعبئة متظاهرين لم يكونوا قبل هذه التظاهرات مسيحين أو ملتزمين. ففي عدة مناسبات وجدنا نساءً فلسطينيات كن في السابق يُطعن بقصة أنهن «يكركن» السياسية، ينخرطن الآن بشغف في أعمال الاحتجاج، ويُعتبرن

التظاهرات واجباً أخلاقياً عادياً بدلاً من أن يكون نشاطاً سياسياً. والحق أن عبور السياسة على هذا النحو، من مجال السياسة في ذاته إلى عالم الحياة اليومية المحسوسة للمتظاهرين ومعاييرهم الأخلاقية، أمر بالغ الأهمية بالنسبة إلى المنظمين إن فُرض له أن يُستخدم قبل أن يحل فيهم تعب الاحتجاج.

كما أن توسيع عتبة (ويرتوار) النضال السياسي من خلال أساليب معارضة جديدة وخلقة هو فائدة أخرى لأعمال الاحتجاج هذه فلتاعتصامات في خيم متروية، وللإغلاقات السلمية لطاعم أميركية تقدم الوجبات السريعة، صدى محلي عميق، ولكنه صدى يُسهل تصديره عبر شبكات عمل مباشر عابرة للحدود القومية. وربما كانت الخطوة التالية برسم المتظاهرين في كل قطر من أقطار الشرق الأوسط الخاضع للاضطهاد الإسرائيلي والأميركي هي بناء شبكات عمل إقليمية وتنسيق النشاطات السياسية في ما بينها. ذلك أن الانعزال السياسي وتضييق أفق الاحتجاج في العالم العربي لا يؤيدان إلا إلى تشجيع الأشكال المحافظة والاستيعابية للاحتجاج ولأسبابه. وأما التواصل بين المنظمين في مختلف هذه الأقطار، والحوار للتواصل بين الناشطين ذوي الهموم الأمية وأولئك المعنيين بالقضايا المحلية والقومية، فسيتمحور بنشر المهارات الاحتجاجية، وباستخدام الشعارات والوارد التي ليست متوفرة لنظمي الاحتجاجات المحليين. وبهذا سيتمتع توسيع ميدان الاحتجاج، وبطرق مصسوغة وغير مصسوغة، بتمتية الجماهير التي جُعلتها عقود من الكبت والظلم والفقر المتزايدة تبدو منعزلة وخاملة

بيروت

لولة خولي

كاتبة إيرانية شابة طالبة دكتوراه في جامعة كولومبيا (نيويورك) ناشطة في مناهضة العولمة. تقيم حالياً في بيروت

## بيروت (٢): لماذا انتفض الشارع، ولماذا انطفأ؟

### □ ماهر اليمني

والمظاهرات التي انضمت، في الغالب، اشكالاً فئوية. وكما نلاحظ أيضاً تعدد المظاهرات والتحرّكات في الأحياء ذاتها وفي مناطق مختلفة، كلّ يحاول إبراز ذاته من خلال الشعارات أو التسابق في رفع أعلامه، محاولاً إظهار وجوده في الساحة اللبنانية، أو ساعياً إلى إضلال سلطة الحكم الذاتي بنشاطه وتأييده لها - وهذا ما حصل في تجمع المدينة الرياضية بشكل بارز.

لكن أسوأ ما في الأمر هو أنّ الأحزاب والقوى اللبنانية الوطنية والإسلامية لم تثبت، وهي في غمرة نشاطها، إلى أنّها كانت ترتكّب مغالطة هامة بأنّ شغلّ نفسها بتأييد الفلسطينيين في الداخل في حين غابت عن دعم الفلسطينيين في لبنان! فكيف نكون مع الفلسطينيين في الداخل، ونسبهم في الخارج؟ خذّ مظاهرة نواب بيروت، والحديث في المجلس البرلماني عن الانتفاضة ومضروبة دعماً: اليس مفارقةً ومحرّناً أن يكون معظم نواب هذا المجلس هم الذين وافقوا على مجموع القرارات المتعلّقة بالتضييق على الحياة الاجتماعية والاقتصادية للفلسطينيين في لبنان؟ هل غاب عن المجلس الكريم أنّ الشعب الفلسطيني واحد: من جنين إلى شاتيلا وعين الحلوة ونهر البارد؟

لقد كان الشارع اللبناني - الفلسطيني متجنّباً في كيفية التضامن مع شعب فلسطين في الداخل، بل هو نسي - وبلا للأسف - أنّ هناك لاجئين فلسطينيين في لبنان يعانون ما يعانون من شغلّ العيش وحرمانهم من العمل والتضييق عليهم أمنياً وسياسياً ولتقتصرت التحركات على التضامن مع فلسطينيي الداخل، بدلاً من أن تُحمّد القوى الوطنية تصديداً إلى رفع شعار إعطاء الفلسطينيين في لبنان حقوقهم المدنية والسياسية وتمزيقاً للانتفاضة فلسطين

كما أنّ بعض الأحزاب والقوى عمدت إلى تحويل التضامن مع الشعب الفلسطيني إلى تضامن مع شخص عرقا، فركزت (من

### السياق الفلسطيني لتحركات الشارع العربي

بدأ العدوان الصهيوني العسكري المدعوم من الإدارة الأميركية على مدن فلسطين وبلداتها وقراها في ٢٩ آذار ٢٠٠٢ بهدف ضرب البنية التحتية للمقاومة الفلسطينية، التي شهدت في الأشهر الأخيرة من الانتفاضة تصعيداً ملحوظاً. فقد باتت المستوطنات بفضل ضربات ثوار المقاومة تكتاح عسكرية، وبدأت حركة هجرة إسرائيلية معاكسة ملحوظة، وتحطّم قمع السباحة الإسرائيلية تماماً. وأدت مقاومة الشعب الفلسطيني وفصائله المقاتلة، ورغم ضعف الإمكانيات مقارنة بترسانة العدو الصهيوني والأميركي، إلى رفع شعار «الدولة الفلسطينية المستقلة» وإلغاء المستوطنات باعتبارها إمكانية واقعية.

وقد تحرك الشارع العربي، وأحياناً الدولي، بمختلف فئاته، للتضامن مع الشعب الفلسطيني داخل مناطق سلطة الحكم الذاتي، ويعنيها في هذه السطور القليلة رصد تحركات الشارع اللبناني - الفلسطيني تحديداً

### عجز الأحزاب في الغالب

كان الشارع اللبناني - الفلسطيني مشدوداً إلى الإذاعات والصحف ووكالات الأنباء، يتابع بالتفصيل اليومي كافة أحداث الانتفاضة الفلسطينية. ثم انتهت الأحزاب والقوى والشخصيات الوطنية والإسلامية إلى ضرورة التحرك الميداني لمناصرة الشعب الفلسطيني إزاء صموده وعجز الأنظمة العربية عن الضغط على الإدارة الأميركية لممارسة دورها المزعوم في «معاية» ما يُسمى بـ «عملية السلام».

إلا أنّ هذه الأحزاب والقوى والشخصيات، بيسارها وبيمينها ووسطها، كانت هي نفسها عاجزة عن وضع برنامج حقيقي لدعم الانتفاضة واستنادها. وكان ذلك ملحوظاً من خلال التجمّعات

## بيروت (٢): لماذا انتفض الشارع، ولماذا انطفا؟

خلال شعاراتها) على وضعه الصحي والغذائي، بل إن بعضها اعتبر عرفات هو فلسطين، وفلسطين هي عرفات. وبذلك كانت هذه الأحزاب تُهزّب من مهاجمتها الحقيقية، وتُغسّر تصريحاتها على انفصالات شخصية أو على انتقاد إبراز عجز الأنظمة، بدلاً من أن تبادر هي نفسها (أي الأحزاب) إلى تفعيل خطتها لدعم فلسطيني لبنان الذين كانوا - وما يزالون - الخزّان البشريّ الفياض لحركة المقاومة الفلسطينية.

### دور الشباب

غير أنّه من المفيد أن يُبرز دور المنظمات الشبابية في إسناد الانتفاضة هنا. فقد كانت هذه المنظمات تتحرك بشكل مقبول، وكان نشاطها مبرمجاً إلى حدّ كبير. إذ شكّلت نقطة ارتكاز في وسط المدينة. وكانت لحركتها آثار إيجابية في تنفيذ خطتها اليومية، سواء في اختيار أماكن الاعتصام والتظاهر، أو في اجترار أساليب جديدة في الاحتجاج كالعزل الحثيث والنزوس لمقاطعة البضائع الأميركية والأوروبية الداعمة لاقتصاد العدو الصهيوني، أو في سعيها إلى توزيع المصنفات والبيانات إلى أكبر فئات المجتمع. والأهمّ كان الحوارات التي تدور في مراكز الاعتصام، ولاسيّما مع الجانب

ولا بدّ أيضاً من التنويه في هذا المجال بنشاط هذه المنظمات الشبابية في تحدي القوى الأمنية في منطقة غوك، معقل السفارة الأميركية، حيث استمرّت المواجهة أكثر من ساعتين. كان للتظاهرون محاولات خالهاهم الوصول إلى السفارة إعلاناً عن إصرار لا يلين على أن الإدارة الأميركية طليقة مباشرة للعدو، وعلى أنّها - من ثمّ - جديرة بأن يواجهها الشباب العربيّ كما يواجهه أخوانهم وإخوانهم في فلسطين العدو الصهيونيّ المدجج بالسلح الأميركي والدعم السياسيّ الأميركيّ.

### الشعارات: ما غاب وما حُضِرَ (وليت له يحُضِر)

أخطر ما برز في المظاهرات هو تلك الشعارات التي كان بعضها يُعطي نظرةً لحادية للصراع مع العدو الصهيونيّ - الأميركيّ، مثل الشعار الإسلاميّ للتعصّب «مُفَيّر خُيبر يا يهود، جيش محمد سوف يعود»، أو تلك التي حاولت أن تُقرّم ذلك الصراع فتعصره بشخص عرفات كما نكرنا

وفي المقابل، غابت الشعارات التي تُؤكّد السلطة الفلسطينية بوصفها سلطة عاجزة - إلاّ عن قمع المناضلين والمجاهدين الفلسطينيين. فلقد كان أكثر المظاهرين يُركّزون مفهومين: «الإنسان» و«الوحدة الوطنية» على غير حقيقتها. فانتقاد السلطة لزوجها المناضلين في السجون ليس إلاّ تصميماً لمسار الثورة، وتنبيهاً للسلطة بأنّها هي التي تُخنق هذه الوحدة. والسكوت عن القمع ليس انتصاراً للانتفاضة، بل هو إسهاّم في إضعاف جذورها والتعجيل في تقديمها لعدوّ سائغة على طاولة المفاوضات.

### كان يُمكن

كان بإمكان هذه المظاهرات والتحركات أن تكون فعّالة بشكل أفضل بكثير لو حصلت لقاءات تفصيلية بين الأحزاب والقوى والشخصيات الوطنية والإسلامية للاتفاق على الحد الأدنى من مطالب هذه التحركات التضامنية، بغض النظر عن الاختلافات الإيديولوجية والسياسية. وكان يُمكن أيضاً تحديد أماكن التظاهرات كي لا تتشتّت أصوات المظاهرين وقوّمهم. وكان يُمكن أن تُقدّم هذه الأحزاب والشخصيات لقاءات وطنية جماهيرية، تُستمع فيها للجماهير إلى مواقفها. وكان يُمكن أن تكون هناك مظاهرات في الأحياء والشوارع الصغيرة، بعيداً عن الات التصوير التلفزيونية، بهدف تعبئة الجماهير بشكل يوميّ وفعلّال. وكان يُمكن، أخيراً لا أخيراً، أن يُعْمَل على إشراك أكبر عدد من



غابت الشعارات التي  
تنتقد السلطة  
السلطانية للعلماء  
الناضحين

### نصائح مهمة إلى المتظاهر العربي

فادر إلى موقع التظاهرة قبل ساعات.  
لا تتخل عن مجموعتك.  
لا تحمل أوزاناً أو دفتراً تلفونات.  
نظف مكتبك أو بيتك من أي مواد قد تضربك عند  
التوقيف.  
على كل مجموعة أن يكون معها هاتف خلوي واحد  
على الأقل.  
ارتد ثياباً خفيفة وحذاءً خفيفاً وأتواناً شبر فاقعة.  
تجنب الشعارات التي تخلق الانشقاقات.  
رصد الصفوف وامسك بيد رفيقك.  
ناشد قوى الأمن أن تتحقق بصفتكم.  
إذا حدثت اشتباكات حافظ على رباطة جأشك وابقَ  
مع مجموعتك.  
وزع أنت ورفلك سلول الرمل على امتداد المظاهرة.  
ارم الرمل على قنابل الغاز.  
خذ بصلاً معك لمقاومة الغاز.  
إذا جرح أحدهم لا يحمله إلا اثنان أو ثلاثة، وانهبوا  
به إلى طبيب موثوق.  
خذ معك مساعدات طبية أولية.  
بعد انتهاء التظاهرة لا تنهب إلى البيت إلا هعرت  
أذلك ملاحق.

الفنانين والشخصيات الجماهيرية المعروفة توسيعاً لدائرة الفعل  
التضامني مع الشعب الفلسطيني.  
ولكن، للأسف، عقدت السلطة الفلسطينية صفقات مثلاً مع العدو  
الصهيوني وأميركا. فرضت شروطاً، وهاكمت الأبطال الذين  
صنعوا أحد أبرز رموز الصهيونية البيضاء ربيعاً زيتاني، وحوّلت  
الأمن العام للجبهة الشعبية أجدد السمعات ومسؤول مالية حركة  
فتح فزاد الشؤنيكي إلى سجن أريحا بواسطة حراس بريطانيين  
وأميركيين. وواصلت السلطة، وتواصل، تنفيذها للتعليمات  
الأميركية الصهيونية بضرورة اعتقال الناشطين من المنظمات  
الفلسطينية. كما حدث يوم ٢٠٠٦/٤/٥ حين اعتقلت مجموعة من  
كوادر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وكما حدث منذ أيام في  
غزة حين اعتقلت السلطة «المفرج عنها» عشراهم المجاهدين في  
غزة. وكل هذه الممارسات أثرت سلباً على روح الشارع اللبناني -  
الفلسطيني والشارع العربي عامة

مخيم مار الياس

مقتطفات من مقال طويل جداً في موقع «الصوت العربي الحر»  
www.freearabvoice.org

ماهر اليمني

عضو اللجنة المركزية العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

## مصر: الغضب الشعبي، إلى أين؟

○ أحمد الخميسي

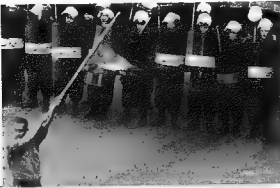
### نزوة الغضب

ما إن تبثت القذعة العربية في بيروت (٢٧ - ٢٨ مارس) للمبادرة السعودية للسلام وما طرحته من تطبيع مع إسرائيل واعتراfter كامل بها، مقسمين مسبهاً، حتى جاء الرد الإسرائيلي في ٢٩ مارس بعملية اجتياح بربرية للضفة الغربية، استكمالاً لحرب ١٩٤٨ «التي لم تُستكمل» على حدّ تصريح رئيس الوزراء الإسرائيلي إرييل شارون. وكانت مشاهد البطولة الخارقة والقسوة قد شهِدت بالغضب الجماهيري المصري على مدى عام ونصف من الانتفاضة، أي منذ دخول شارون ساحة المسجد الأقصى في ٢٨ سبتمبر بحراسة ثلاثة آلاف عسكري. وانطلقت المظاهرات من كلّ ركن في مصر. وفي ٢ أبريل تقدّم المواطن أحمد محمود من محافظة القليوبية ببلاغ يُطلب فيه مبعاعته في العثور على ابنه وإثبات (١٢ عاماً) الذي اختفى تاركاً خلفه رسالة كُتبت فيها: «إذا أردت العثور عليّ فستجدني مع القتاتلين الفلسطينيين». وفي ٦ أبريل احتشد الشبان المصريون في مسيرة بطار القاهرة الدولي، مطالبوا بوقف كلّ الرحلات المتجهة إلى إسرائيل.

وسرعان ما قتم طلبة جامعة الإسكندرية أول الشهداء، واسمه محمد السقا الذي قُتل برصاص الشرطة المصرية في ٩ أبريل، عندما تصدّت قوات الأمن لظاهرة من نحو ثمانية آلاف طالب حاولوا الخروج من الجامعة والتوجه إلى المركز الثقافي الأمريكي في شارع الفراغة لإعلان احتجاجهم على الدعم الأمريكي المطلق لإسرائيل. وكان محمد السقا قد قال لوالدته صباح يوم مصرعه: «عابرو الموت موته جلوه ترفرف على الدنيا». وكان له ما أراد. ولم يتبقى أسبوع حتى حاول ميلاد محمد (٢٣ سنة - فلاح) أن يجتاز في ١٧ أبريل الحدود من رفح إلى فلسطين، فتصيده قناص إسرائيلي من أحد أبراج المراقبة وقتله. ويقول ربيع ميروك، صديق، إن الشهيد قال له قبل سفره إلى رفح: «حياتنا حرام في ضوء ما نراه في فلسطين». وفي جنازة ميلاد بمدينة اللندجات في

محافظة البحيرة بكث أمه وهي تُلقّ الزغاريد هاتفة: «شركت العرب يا زين الشباب». وفي ١٨ أبريل حاولت فتاة مصرية أخرى عبور الحدود من طابا وهي تُحمل كمية من المتفجرات للالتحاق بالانتفاضة. وفي ٢٠ أبريل اُفادت التقارير أن مصرياً هاجم سائحاً إسرائيلياً يدعى فرانك ماي، أثناء سيره على شاطئ البحر الأحمر قرب مخيم نجم اليهودي، وطغنه بسكين فقتله؛ وصرح ندادف كوهين من السفارة الإسرائيلية في مصر بأنه لا يدرى إن كان الدافع وراء الجريمة سياسياً أم جنائياً. وفي ٢٠ أبريل نظرت محكمة مصرية في دعوى تقدّمت بها السيدة ندية رامي لطرد السفير الإسرائيلي جدهون بن عامي من الفيللا الخاصة بها التي يقوم بها السفيري في المعادي.

وفي أبريل نفسه أُعيد من الحدود قرابة ١٥ تلميذاً إلى ذويهم، تتراوح أعمارهم ما بين ٩ سنوات و١٥ سنة، كانوا قد هربوا إلى العريش ورفع للقتال في فلسطين. وفي ٤ مايو اعتقلت الشرطة المصرية شاباً من حي الزاوية الحمراء الشعبي بالقاهرة يدعى محمد عزب (٢٠ عاماً) عند الشريط الشاذل في رفح لدى محاولته التسلل إلى غزة للقتال مع الفلسطينيين. وفي ٥ مايو أحالت السلطات المصرية إلى النيابة شابين بتهمة محاولة عبور الحدود، الولد سلامة غنيم (٢٤ سنة) والشاني شكري عوبدة (٢٦ سنة)، وعند سؤال الاثنين قالوا إنهما تظاهراً بالأحداث في فلسطين وقرّرا الانضمام إلى المقاومة. وللمرة الأولى منذ اندلاع انتفاضة الأقصى يُظهر في مصر طلبة يُلقون رؤوسهم بمصاها حمرأ. كُتب عليها «استشهاديون» وحين فتحت الجامعات قوات المتطوعين للقتال في فلسطين عُيّن ألف اسم من الشباب. وفي العريش توثّقت سيدة في الخمسين من عمرها بنبحة من شدة القهر، وهي تتابع أخيراً فلسطين أمام شاشة التلفزيون. ذلك أن ما جرى كان أفظع وأشدّ قسوة من قدرة العقل على احتماله أو تصوره، فأسال دموغ المصريون وأشعل حقنهم.



استيقظ المصريون وسألوا: أين جيشنا المصريّ وعلم كان تسليحه إذا لم يفلح الآن؟

الفدائية في ٢٤ أبريل. وكشفت الأنظمة العربية عن هوانها في مواجهة المجزرة، وعن قلة حيلتها. وفي حين قطعت النيجر علاقاتها الدبلوماسية بإسرائيل في ٢٦ أبريل، لم تجر الحكومة المصرية على طرد السفير الإسرائيلي أو وقف بيع بترويل مصر الذي استُخدمَ وقوداً للثباتات الإسرائيلية وهي تُرصف أرصفة جنين بضلوع الأطفال وعيونهم.

### صحوة العقل المصريّ

شيئاً فشيئاً كانت مشاعر التعاطف الحارة تشتعل بشعور عميق بمرارة للمهانة والضعفة. فقد تبين للجماهير المصرية بشكل ساطع أنّ الأنظمة التي مارست دوماً أحقر أشكال الفطوسة في الداهل، قد خدمتها طويلاً بظهورها، فاستكان الناس إلى الخوف منها، وهي ليست إلا نمرًا من ورق، فلماذا إذن تهيبوها طوال تلك العقود؟ ومنذ أن وقعت مصر معاهدة السلام مع إسرائيل في ٢٦ مارس عام ٧٩ والصريخ يتراقص السلام، إن لم يكن الرضاء. لكنهم وجدوا أنّ فئات ذلك السلام نفسه غير آمن، ومسهّد بتصرّحات إسرائيلية علنيّة بقصف المد العالي واقتحام الجنود الإسرائيليّين لمناطق حدوديّة في رفح بدعوى البحث عن الفلسطينيين. إنن. لا رضاء. ولا سلام. بل ولا نصف دولة فلسطينيّة تُحفظ ماء وجه العرب وتضمن لهم الأماكن المقدسة على الأقل. لا شيء سوى المجزرة. وتبريق كرامة القادة العرب، وحصار عرفات وإجباره على استنكار دماء الشهداء، والتلويح بضرب كل من تتوّل له نفسه أن يقع فيه أما شهداؤنا وقتلانا فإنهم ليسوا سوى مقلّة ومجرمين على لسان البيت الأبيض الأمريكيّ. وتجرّعت في الشارع المصريّ من شدة المهانة كل المياه التي صمّتْ لفصل العقل الوطنيّ من دماء الحروب مع إسرائيل، والتدوير علاقة التاريخيّة بغضبايا التحرر العربية. ولتمزيق قرابته إلى الشعب العربيّ.

وتطايّرت شرارات الغضب ردة أفعال شميّة، وفردية، وبطوليّة، من حريق مظاهرات لم تهدأ بمصر. و لم توق جامعة أو مدرسة أو جامع أو بيت أو مكان أو روضة للصغار لم تُخرج إلى الشارع للمرة الأولى بعد ربع قرن من توقيع مصر على معاهدة السلام المصريّة - الإسرائيليّة في ٢٦ مارس ١٩٧٩، تصبح السياسة عمل كلّ فرد في كلّ مكان وكلّ وقت: صياحًا وظهورًا ومساءً في ميّارات الأجرة، وداخل المعاهد، والمقاهي والمساجد والكنائس والقباب والجامعات والبيوت: في المصادقات الهلّاقية، وعبر الانترنت، وبواسطة الرسائل القصيرة المتبادلة على المحمول. لقد أصبح «العدوّ الخارجيّ» فجأةً حدثًا داخليًّا من صميم الشأن المصريّ. ولم يعد هناك أحدٌ كبيرًا أو صغيرًا، إلا وتنبّأ أن يموت «مهتةً جميلةً تُرفرف على الدنيا» كما قال محمد السقا لوالدته يقول الطالب أحمد نصر من جامعة القاهرة التي شهدت أعنف مظاهرات طلابيّة: «أنا على استعداد للقيام بأيّ شيء من أجل فلسطين، خاصة في ظلّ تخالف الحكومات العربية». ويقول أسعد بكر وهو تلميذ في الثانية عشرة: «أنا لا أكره سوى إسرائيل. وعلى استعداد لفعل أيّ شيء... لتجبر نفسي من أجل الفلسطينيين».

وإلى جوار مشاعر التعاطف الحارة مع شعب يباد. تغذّى الغضب من اعتبار آخر كان يُخرج بيضاء من العتمة إلى ضوء الوعي. ذلك أنّ المظاهرات لمعت في كلّ بلد عربيّ بشكل أو بآخر، وسقط منها شهيد في البحرين هو محمد جمعة علي (وهو عامل نظافة) توفي في ٧ أبريل متأثرًا برصاص الشرطة المحليّة وهي تولّج المظاهرة في ٤ أبريل، وشيخات البحرين جثمانه ملفوفًا بالعلم الفلسطينيّ. وفُتحت السجون في كل بلد عربيّ أبوابها للكثيرين: واعتقلت السلطات في مصر مثلاً الطلبة الناصريّين والماركسيّين والقوميّين وقبائدين وسياسيين أغلبهم من التيارات الإسلاميّة النشطة. وبينما كان الفلسطينيون يجمعون اشتلا أحياتهم قطعة قطعة من مخيم جنين، دان الأمير بندر، السفير السعوديّ في واشنطن، المملّيات

## مصر: الغضب الشعبي، إلى أين؟

ووضعت الظروف في مواجهة أمريكا وإسرائيل مباشرة من منطلقات سياسية متعددة. جيلٌ بلا أحزاب، بعد أن أسلمته أحزاب المعارضة جميعاً إلى الإعلام الرسمي في صفقة مع الحكومة، وتخلّى عنه اليسار مع زوال الاتحاد السوفيتي، وأقعدت الضربات الأمنية المتلاحقة الإسلاميين قوتهم

وتبلورت شعارات الطلبة وفق التيارات الفكرية المختلفة في المجتمع المصري. فالتيار الإسلامي كان يُهتَف في الأزهر، موجّهاً نداهم للشيخ أحمد ياسين زعيم «حماس»؛ «ياسين.. يا حبيب.. نمّر، نمّر.. تلى أبيب»، وخيبر خيبر ما يهود.. جيش محمد سوف يعود؛ وه الجهاد.. الجهاد، وأما الناصريون فكانوا يرددون: «عبد الناصر قاله في يوم.. الذي نأخذ يوم بالقوة ما ببرجمشي غير بالقوة». الماركسيون القائلون من الجيل الجديد كانوا يهتفون: يا شارون يا حقير.. حق العودة للصير، ويحاولون ترويج شعارات عُمانيّة ترسّخ الفهم السياسي غيّر الديني للمواجهة مع إسرائيل. وأما الغالبية العظمى من الشباب فكانت تردّد: «بالروح بالدم نفديك يا فلسطين»؛ وأول مطلب للجماهير.. غلق سفارة وطرد سفير.. تلاميذ المدارس الصغار كانوا يَخطِّبون أكفهم بالكراسات في الهواء هاتفين: «واحد.. اثنين.. الجيش المصري في»

### تضاريس المظاهرات

رغم أنّ الطلبة كانوا هم القوة المحركة المسموعة في مختلف الجامعات، فإنّ المظاهرات التي عمّت مصر تجاوزت بأعمار من شاركوا فيها المرحلة السنيّة للطلبة (١٨ - ٢٥ سنة). فاتخذت فيها شرائح من كل الأجيال، من ست سنوات إلى سبعين عاماً. ومن الصعوبة بمكان أيضاً أن تُنسب المظاهرات إلى تيار سياسي بعينه، أو طبقية بعينها: فقد عمّت المظاهرات مصر كلها، وشاركت فيها كلّ الفئات بدءاً من فقراء الأرياف في المدن والريف والنهاة بفتيان ونساء الأرسنكراطية المصرية من أغنى الطبقات. ومع

كان الجميع قبل اجتياح ٢٩ مارس يعرفون «ما هو الموضوع في مصر»، واستيقظوا فجأة يسألون جميعاً: ما هو الموضوع؟ أين اتفاقيّات كامب ديفيد؟ ألم يمز عليها عشرون عاماً؟ ألا تصبح ملغاة تلقائياً؟ كيف يمكن التطبيق مع دولة نازية كذلك؟ أين جيشنا المصري؟ وعلام كان تسليمه زمناً طويلاً إذا لم يُفَع الآن؟ ولماذا نعيش في ظل قانون الطوارئ منذ عام ١٩٨١ إلى الآن؟ ولم تبدو الشرطة المحلية في كثير من الأحيان كأنها تردّي أزياء الجنود الإسرائيليّين وتُشكك بعضهم وتُوب عنهم في قمع الرّاغبين في مساندة الفلسطينيين؟ ولماذا لم يستطع القادة العرب أن يقدّموا سوى مبادرة سلام خانكة في قمتي بيروت، ستَقّتها مبادرة ليبنيّ بضمّ إسرائيل إلى الجامعة العربية، ثم مبادرة ليبنيّ أخرى بتقريب الشعب الفلسطينيّ في دولة «إسرائيل»؟ ولماذا كان انتمى ما تمكّنوا منه هو الدعوة إلى وقف ضخ النفط، وهي دعوة جاءت من بغداد المنهكة فلم يستجيب إليها أحد بل ثالث الكويت «إنّها دعوة مشبوهة»؟ وكيف تمكّنت نيجيريا ومقاطعتان في بلجيكا - وهي الأبعد - من قطع علاقاتها بإسرائيل ولم تهجر دولة عربيّة على ذلك؟

من هذه الزاوية كانت المظاهرات المصرية «حدثاً» بكلّ ما رافقها من صعوبة فكرية - مصوّرة جرّبت في الواقع العمليّ كيف ترتطم بالنظام في الشارع، وراقبت في الواقع العمليّ أيضاً كيف أمكن كيلومتراً مربعاً واحداً اسمه جديان أن يصمّد وحده عشرة أيام كاملة في وجه اعترى قوة عسكريّة في العالم ليُجني من جدير طريق الكفاح المسلّح والتحرّر

وبلور الشارع المصريّ غضبه في شعارات المظاهرات التي كان الطلبة قوتها الرئيسيّة بحكم ما لديهم من أماكن للتجمع، وبحكم أعمارهم الشابة، وذلك الجنود للامل الذي يَشمعون به. إنهم الطلبة الذين تشكّل وعيهم على ضوء الضربات الأمريكيّة المستمرة للعراق وفلسطين. إنه جيل جديد انقطعت صلته بالحركة اليافعيّة ربع قرن،





كانت القضية القومية لا القضية الاقتصادية أو الاجتماعية هي التي هزّت مصر من شمالها إلى جنوبها

### غيباء... وتريد

لكن المظاهرات الشعبية، رغم الصعوبة الفكرية وشعورها بقوتها، ظلت بلا زعامة أو مركز أو بؤرة قادرة على الانتقال بها من الحركة العفوية المتدفقة إلى وعاء منظم يصون لها حرارتها وقدرتها على التواصل، كما كانت عليه الحال في تجربة اللجنة العليا للطلبة والعمل، عام ١٩٤٦ في مظاهرات الطلبة عام ١٩٧٧. ولم تكن هناك أيضاً «زعامة فريدة» تحيط بها تلك الهالة السحرية من القبول العام، والقدرة على تجميع الغضب، كما حدث في مظاهرات الطلبة عام ٧٧ حين قال الكاتب الكبير توفيق الحكيم عن أحد زعمائها وهو أحمد عبد الله: «لم يسبق لي أن استمعت إلى زعيم مفوه بعد سماع زغلول سوي زميلكم الأستاذ أحمد عبد الله». وانفجرت المظاهرات أيضاً، باعتبارها حركة شعبية وطفساً للتحدر، إلى برنامج كُتِّع عليه القوى السياسية الحية

كما أن الحركة ظلت تراوح بين دعم فلسطين كقضية خارجية، ومواجهة الحكومة لتغيير الوضع الداخلي كفضل سبيل لدعم فلسطين. وكان السؤال الرئيس الذي يؤرق ويختلج مفكراتنا هو: «كيف نشدّ أزر المشائين هناك ولكن... الكيس من الأفضل أن نضغط لوقف بيع المقاتلين المصريين لإسرائيل لكي لا يكون وقوداً لدبابات شارون؟» إن التردد بين هذين الطرفين للتضامن مع فلسطين ظل مرئياً، وغائماً، وحاتراً: بين ضرورة التعجيل بضخ اللما والمال والمتطوعين لفلسطين وتبجيل أية قضايا أخرى مؤقتاً، وبين الإدراك الكئيب لحقيقة أن العائق الحقيقي أمام وصول أي دعم هو الحكومة المصرية نفسها ومعاهدة السلام. وبدا ذلك الارتباك في التردد بين شعارات من نوع: «يا حرية فيينا فيينا؟ أم الدولة بيني وبينك» وبين شعارات أخرى تكنفي بتقليد فلسطين. وهكذا لم يتضح للمظاهرات - في أول مسودة ضخمة لصحوة العقل الوطني - ذلك الجمل اللطيف الذي يربط نثر أبيب بالعواصم العربية، ولا تبيّن لها الحقيقة التي اكتشفها جمال عبد

الحافظ الشعار الديني الإسلامي بوجوده الواضح، إلا أنه تراجع نسبياً لصالح الشعارات القومية التي جرت على الجميع: كما انحصرت النبرة الدينية التي كانت أحرصاً ما تكون على التمييز بين المسلم والمسيحي.

ولم يزل - للمرة الأولى - الكثافة الشديدة للمناصر النسائي داخل المظاهرات. وكانت طالبات جامعة القاهرة يقدّرن في المظاهرات إلى واجبات المصالحات وسيارات اللطائف التي تلتجّ خراطيم المياه لتفريق الطلبة، ويصفقن على زجاجها الأمامي للمصقّار لكي تعمّق السائقين عن الرؤية والتقدّم إلى الأمام. فتبات أخريات كنّ يتسلقن أعلى أسوار النشابات ويهتفن في مواجهة الشرطة بالتّدع الشعارات: «يا أبناء العاهرة. القدس هي القاهرة».

وللمرة الأولى أيضاً تشارك طالبات وطلبة المدارس الأجنبية التي عُرفت دوماً بملها إلى التهوين من المظاهر القومية لدى تلاميذها وأصبحت الجامعة الأمريكية التي تقع في قلب القاهرة ويترس فيها أبناء القادريين، بؤرة ساخنة للحركة والمظاهر وجمع التبرعات، أسوأ المدارس الأجنبية الأخرى مثل فيكتوريا كوليدج والليسيه والغريز وإنجليش سكول. وفي ١٥ أبريل تجرد طلبة فيكتوريا كوليدج في اتجاه مسكن السفير الإسرائيلي بالمعادي للإعلان عن موقفهم، لكن الشرطة تكثرت من تطويق المظاهرات.

وللمرة الأولى يتسلّط الشارع لتوجيه الإعلام الرسمي الذي ظلّما وجه ويلوّن الرأي العام. فاختد التلفزيون لأول مرة منذ زمن بعيد بيت الأغنياء والأفلام الوطنية القديمة التي رافقت الحروب العربية الإسرائيلية، ويبيع هامشاً للنقاش الحار بشأن قضية فلسطين والصراع العربي - الإسرائيلي، وأراء الفئات الشعبية. واتسعت الصحافة - نسبياً - لاختلاف الآراء. لقد قلب الشارع المصري الوضع رأساً على عقب، وأصبح وجه الصحافة والتلفزيون، بعد أن كان دوره محصوراً في التلقّي السلبي.

## مصر: الغضب الشعبي، إلى أين؟

وافكاره، وإرادته، كما يلهم الفلسطينيين أشلاء أحبائهم قطعة قطعة من تحت انقاض عملية أوسلو

وفي هذا الإطار كان اعتصام المتقاعين والكتاب والفنانين وإضرابهم عن الطعام لنحو عشرة أيام، منذ يوم الثلاثاء ٢٢ إبريل في نقابة المحامين، بهدف حمل الحكومة على طرد السفير الإسرائيلي من مصر. وحوادث تلك الأيام العشرة مقر النقابة المفتوح إلى خلية حيّة، يتحرك فيها مخرجون سينمائيون مثل علي بدرخان وتوفيق صالح، وكثّاب مثل بهاء طاهر وإبراهيم منصور، وقصاصون وناشرون مثل محمد هاشم، وصحفيون مثل يحيى وجدي وكارم يحيى، وروائيون مثل سميرة رمضان، وشعراء، وفلاحون، وعلبة، وفنانون تشكيليون، يبيتون كلّ ليلة على أرض الجامع الملحق بالنقابة، من أجل قطع كافة العلاقات الدبلوماسية مع الكيان الصهيوني. ولكن هذه قصة أخرى، رغم أنّها أول أشكال الاحتجاج التي تلجأ إلى سلاح الإضراب عن الطعام

شيء واحد غدا مؤكداً للأطراف كلها: أنّ الصورة لا يمكن أن تُرجع إلى ما كانت عليه قبل مظاهرات إبريل، وأنّ آية ارتوش لن تعيد ما أحرقته السنة الذهب.

### القاهرة

#### أحمد الحميسي

صحفي وقصاص ومترجم له العديد من الكتب والمقالات حاصل على الدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة موسكو وهو المراسل الجديد لبلطة الأراب في مصر

الناصر في الفالوجا عام ٤٨، وهي أنّ تحريراً فلسطين يبدأ بتحرير مصر.

وبالرغم من كل ذلك، فقد مرّقت المظاهرات المصرية أطراف الثوب الرسمي، وجذبت، وهلّلت، لكنّ الشوارع التي حُرمت طويلاً من العمل السياسي لم تلبو بعد ما تزيده بقعة، ولم تستقر بعد على «زعامة ولو مؤقتة» ومع ذلك فقد سبقت المظاهرات فجوة اتسعت في الذاكرة ريع قرن: بين أجيال شهدت أو سمعت عن حروب ١٩٥٦، ١٩٦٧، وحرب أكتوبر ١٩٧٣، واجتياح لبنان عام ١٩٨٢ من جهة... واجيال جديدة عاشت على وهم «معاهدة السلام»، وانتعشت من جذير روح المقاومة في رسائل لا تتوقف عبر الإنترنت، والهاتف المحمول، والتجمعات التي تنظم للتبرع بالدم، والمناقشات الساخنة في كل ركن، والبيانات الحادة، والمظاهرات الجماهيرية، وقوائم مقاطعة السلع الأميركية التي يُسلمها كلّ فرد إلى الآخر، بل والإضراب عن العمل الذي قام به عمال مترو الأنفاق في القاهرة. وربما لم يكن لأولئك العمال أن يجروا على القيام بذلك الإضراب بمطالبه الاقتصادية لولا ملأ الحربة للعام الذي أشاعته المظاهرات. وانتشرت شرائط كاسيت لمطربين شعبيين بأغنيات تقول إحداهن: «مفكّر يا ع بوش.. ع البُرْج التي انضربت الضربة لعلت ومشيت سمحت. عاوزين طائرة ثانية تفرح العرب».

لقد ولد الغضب الشعبي العارم من الألم لما تحدث في فلسطين. وكيف أيضاً من طعم القضية المريبة التي جعلت الجماهير تُسلم قيارها طويلاً لأنظمة عاجزة. وكانت القضية القومية، لا القضية الاقتصادية أو الاجتماعية، هي التي مرّت مصر من شمالها إلى جنوبها، في المدن والقرى التي كان الفلاحون فيها يقدمون آخر جوال أرض في بيوتهم لدعم الفلسطينيين. والمرة الأولى منذ ريع قرن يلتحم الشعب المصري الاجتماعي والسياسي حول شعار ومشروع جنيني لم يكتمل بعد بوضوح: المقاومة. والمرة الأولى أيضاً يحاول الفشتات السياسي المصري لليلة روجه المبعثرة،

## عمان: ملاحظات على هامش الحركة المساندة للانتفاضة - محمد علي كيائاً سياسياً عقلانياً

□ إبراهيم علوش

أين ذهب محمد علي؟

لنفترض أن ثمة مواطناً عربياً اسمه محمد علي. محمد علي، في العادة، مثقل بالهموم المعيشية والخاصة. وقد تم تهميشه في عملية صنع القرار السياسي المتعلقة بشؤونه العامة طوال قرون. إنه لا يجي سياسياً على أرض بلاده. مجرد غريب.

محمد علي يهتق غضباً بسبب كل ما يراه حوله. لكنه لا يحتاج إلى إظهار ذلك وانثاً؛ فقد تعلم أن أي تعبير حقيقي عن السخط باطل للعلن. بيد أن انفجاراته العفوية بين الفينة والأخرى تدل على وجود نبضات حيوية في أعماق وعيه (الجمعي).

وهذا لا يقول شيئاً بعد عن مدى فائدة هذه الانفجارات العفوية أو فاعليتها، سوى أن رد الفعل الشعبي العربي إبان حرب الخليج الثانية، وتحرير جنوب لبنان، والانتفاضة الثانية، كلوا من أغنية مثل «أوبريت الحلم العربي» يدل على وجود إشارات حيوية قوية. وبهذا نعرف، على الأقل، أن محمد علي يضطرب في الأعماق.

فلنلاحظ كيف نزل محمد علي إلى الشوارع في تشرين الأول ٢٠٠٠، أي في الأيام الأولى للانتفاضة الثانية، كلوا من غضب الخاف، ليواجه القمع على أيدي رجال الأمن، وكيف عاد في آذار ونيسان ٢٠٠٢ إلى سيرة غضب أكثر عنفاً على نحو ما أظهرت وسائل الإعلام.

إن هذا أمرٌ مثيرٌ للفصول فعلاً. فمحمد علي كان مستعداً للمخاطرة بعمله ودراسته، وللتعرض لشئى صنوف الضرب والاعتقال وما شابهة في تشرين الأول ٢٠٠٠، ولكن ليس في تشرين الثاني وما تبعه، وما لبث أن عاد إلى الشارع في آذار ونيسان ٢٠٠٢، ليبدو بعدها وكأنه أخذ إلى الهوى.

بدا محمد علي كمن تمكنه اللامبالاة، فاتراً بعيداً، بعد تشرين الثاني ٢٠٠٠. لم تعد الفعاليات التي يدعو إليها النشاط تجذب جمهوراً ذا شأن؛ بل في الكثير من الحالات كان عدد قوات الأمن التي تُنظر أكثر من عدد المظاهرين. وفي الأردن على الأقل، بدا

النظام وكأنه سيطر على حركة الشارع مجدداً بعد قيام أحزاب المعارضة بإلغاء مسيرة الزحف المقدس التي كان يُفترض أن تتم يوم ١٧ نيسان/ أبريل ٢٠٠٢ على السفارة الصهيونية. ماذا حدث؟ أين ذهب محمد علي؟ بدأ عدد من النشاط المستقلين يتفكرون بما جرى.

عادةً، محمد علي، القادم من التظاهرات الكبيرة نسبياً التي وقعت فيها صداعات في عمان على الأقل، طالب أو عامل يعيش في الأحياء الشعبية أو الضيق، أو طالب يعمل على الهامش ليسانس عائلته. يوم واحد في السجن يؤثر سلبيًا في عائلته. في الحالات الأكثر خطورة، قد يُمنع من العمل أو الدراسة؛ وهذا ضرر دائم قد يصانر جواراً سفره، كما كان يحدث أيام الأحكام العرفية. فلا يعود قادراً على الدراسة أو العمل في الخارج. وهو ليس معروفاً في الدوائر الإعلامية؛ فحين يُبقي في السجن أو المستشفى، لا أحد يسمع عنه شيئاً.

بعد تفريق إحدى التظاهرات مرة، لاحظت ثمة من سيارات الأمن تتبع مجموعة من حوالي عشرين طالباً. اقتربت منهم أن يتفكروا كي لا يصحبوا عرضة للانتقام. تفرقوا إلى مجموعات من ثلاثة إلى خمسة، لكن يبدو أن ذلك لم يكن كافياً لرجال الأمن. فقد توجهوا نحو واحد من الطلبة بالتصعيد ركض. لاحقوه. فجأة، اعتراضه قوة عند الشارع الثاني. تبعه. وجدته ممدداً على الأرض في حقل «سوريالي» من الرفس والضرب العنيف، أشبه بمشهر من السقة الغربية. لا عتآن. حاولت التحنن بلا جدوى. «انغب وإلا...» حاولت التكلّم. لا جدوى. ذهبت. تبعتي اللباس اللوني. «قف. من أنت؟ هويتك؟ ومن خلفك جاء صووت؟» «أخضره». «ما علاقتك به؟» «استاذ جامعي» ماذا تفعل هنا؟ «كنت أمشي في الشارع. فرايتهم يضربون محمد علي وهو ذاهب إلى بيته. أذهبه. «انغب». أذهبه». «اعتقلوه لماذا يتدخل في ما لا يهنيه؟» «اتركوه». تركوني. أخوه.

## عمان: ملاحظات على هامش الحركة المساندة للانتفاضة -

محمد علي كيانا سياسياً عقلانياً

علي داهية سياسي، في الواقع، إنه يعطي الأمل لمن يعطيه أملاً، فيبذعه. على السطح، قد يبدو محمد علي مشوشاً وجازاً. في تظاهرات عمان، مثلاً، تراه يحمل صوراً لزعماء لا يطبقون بعضهم بعضاً، وتسمعه يهتف لبين لادن والسيد حمن نصرالله ولصدام حسين بالتحوالي، ثم لحماس والجهاد وكتائب الأقصى وأبو علي مصطفى، ثم لحزب الله بل ولإيسار عرفات (فقط عندما وقع تحت الحصار). لكن محمد علي هو الذي يحاول أن يسيّر الزعماء والأحزاب. حيثما رأى نقطة صيداً جديدة مع حكومة الولايات المتحدة أو الحركة الصهيونية، ولو كانت عابرة، عزّزها ودعّمها وودّعها. إنه يفكر إستراتيجياً، لا بل بطريقة أكثر انفتاحاً من الكثير من المثقفين والقوى السياسية. لكن أيّاً كان الوجه الذي نغمه، فإليك تراه يقول الشيء نفسه دائماً إن يصادهم حكومة الولايات المتحدة أو الحركة الصهيونية: «أنا احتياكك الاستراتيجي». استغلّ متى، سافغني لحدك، من دون شروط، سوى أن تتابع طريقته. ولكن ذلك لا يعني أن محمد علي لا يُقرّف أن صدام ونصرالله وبين لادن وعرفات (حتى وهو تمت الحصار) عبارة عن محتويات مختلفة تماماً.

الأمل العقلاني يعني أن النزول إلى الشارع لن يكون بلا جدوى. للنهل أن محمد علي يعود إلى الشارع حتى بعد تحكّم أسامه السابقة، خيبة بعد خيبة إنه يمتلك الكثير من القوة في الداخل. عليه أن يعيش وأن يستمر، ولكنه لن يشجّب دمه عن أي طرف يصبّد في الديدان أو يصادم حكومة الولايات المتحدة والحركة الصهيونية، لأنه يعرف غريزياً أن مصلحته الحقيقية تكمن هناك. أما كيف يستفيد هذا الطرف من دعم محمد علي، له فهي مشكلة ذلك الطرف، لا مشكلة محمد علي.

كم مرّة طلب محمد علي من حزب الله أن يفتح له باب التطوع في صفوفه؟ وكم مرّة طلب ذلك من العراق في حرب الخليج الثانية، ومن الثورة الفلسطينية خلال اجتياح لبنان عام ١٩٨٢؟ وكم مرّة

بعد أيام، وجدني هذا المجدد علي بالذات. وحصلت منه على إفادة موقّعة بما جرى معه. إنه طالب في كلية، يعمل نصف النهار ليعمل عائلته، لكنه يطمح إلى الحصول على شهادة. عمره خمس عشرة وعشرون عاماً. ذهبوا بعد الإفراج عنه إلى كليته وهدّوه. بحث عني ليشكرني، وهو الذي يستحقّ الشكر. ولكنه طلب مني بعد ذلك ألا أذكر اسمه في أي مكان، وألا أثير حوله شجّة. ولم أره بعد ذلك.

هو واحد من منازعته. فكرت ملياً بأمر محمد علي، إنه انكس بكثير مما يعتقد المثقفون، فمحمد علي مستعدّ لتحمل ضربات الأنظمة والصهيانية، ولكن ليس بالضرورة عندما نشاء. هذه الشخصية المشهورة أو تلك الحزب. إنه مستعدّ للموت والسجن كما أثبت مراراً، ولكن فقط عندما يتشعر أن شيئاً مفيداً قد يُلهم عن ذلك، محمد علي مستعدّ للمغامرة بسبيل عيشه واستقرار عائلته، ولكن عندما يأمل أن ذلك لن يكون بلا جدوى.

يختلف الأمر كثيراً بين نزول محمد علي إلى الشارع وتزوّ مجموعة من «المستبشرين» ضمن سياق الخطوط الحمراء. فهو يُقرّف أن جهاز الأمن مُصمّم من أجله بالذات، والخطب يصير أكثر وحشية عندما يتعلّق بشخصاً حقيقياً. إذا خرجوا من مكان الدراسة والعمل إلى الشارع، فالأنظمة تخاف كثيراً من محمد علي، لأن كلّ جرحها يُقدّم على قهرتها على السيطرة عليه.

### الأمل العقلاني بالنصر

إذا تأمّلنا تاريخ محمد علي الحديث، سنجد أن ما يحرّكه ليس العواطف الهوجاء، كما يدّعي البعض، بل الأمل العقلاني. عبد الناصر مثلاً أعطى الناس أملاً بالنصر، وكذلك فعلت الثورة الفلسطينية في نهاية الستينيات بعد هزيمة عام ١٩٦٧. للعراق اعطاهم أملاً أيضاً قبل بدء حرب الخليج الثانية. وحتى بين لادن اعطاهم أملاً بأن الوقوف في وجه الولايات المتحدة ممكن. محمد



ما جرى في الشارع العربي دليل على الحاجة إلى التنظيم والقيادة الشعبية

فإنه يكون قد أوصل رسالة سياسية على الأقل ولو بثمن باهظ ويدون الأمل العقلاني بنتائج ملموسة، تصبغ التضحيات بلا جدوى، ولذلك يحافظ محمد علي على قواه.

قد يكون من المفيد من جهة أخرى أن نُلخص الطريقة التي يسيطر بها النظام العربي على ما يسمى «التجمعات غير المشروعة» باستخدام أسلوب صحابيات الأمان. فمادام عدد المتظاهرين صغيراً، ومادام فض الإحتجاج قد أُنكث بسهولة نسبية، فإن النظام يُشغّل هذه الإحتجاجات بشكل كامل، أو يُخسرها في أماكن مغلقة. عندما يزداد عدد المتظاهرين ويصبحون أقل هدوءاً، يُسمح النظام على مضض بالإحتجاجات، ولكنه يحاول أن يوجهها نحو مسارٍ آمن بعيداً عن نقاط الضغط المؤثرة، أي بعيداً عن السفارة الصهيونية أو الأمريكية مثلاً، ويحاول توجيهها نحو مجلس النواب (الصوريّ أو الحلو) أو نحو أحد مكاتب الأمم المتحدة. وعندما لا يُشغّل هذا غليل المتظاهرين إذا ازداد عددهم وتصاعدت وتيرة إحتجاجهم، يلجأ النظام إلى قيادات النقابات والمعارضة «المشروعة» لإحياء التمرّد الشعبي، أما إذا فشل كل هذا، وخرج الناس للاحتجاج على هوامم، فإن قوات الأمن تتهاجم بلبلة المتظاهرة بشكل وحشي لإجبارها على التفرّق، وهي تُقرّر أنّ الناس الذين تجمعوا بشكل شبه عفوي لا يتكفون البتّة لتنسيقية لإعادة تجميع قواهم. وفي بعض الحالات، يتابع النظام للمطاردات بعيداً، ويشكل انتقامي قريباً، ويُلخّص في طريقه الكثير من عابري السبيل.

وقد يحدث عندما تستقر حالة الإحباط أن تنتشر النزعات العنصرية والماتانية والقيصرية والانتهازية والظلامية وغيرها، ويحاول النظام أن يستفيد منها كثيراً لتوطيد أركان سيطرته. ولكنّ لنلاحظ أيضاً أنّ هذه النزعات تكون في أضعف حالاتها عندما تُشتمر الأمم بالقوة: عند تلميع قناة السويس، أو عند انطلاق الثورة الفلسطينية، أو عند تحرير جنوب لبنان، أو عند صعود حقبة جنتي، إلخ... وفي المقابل،

أُحجم محمد علي عن النزول إلى الشارع عندما لم يكن يعتقد أنّ ثمة فائدة من ذلك، حتى عندما كان الموقف يبدو وكأنه يقتضي النزول، إذا وضعنا حساب الربح والخسارة جانباً؟

بالمقابل، عندما تكون قيادة التمرّد ضعيفة أو انتهازية، أو عندما تبدأ المفاوضات السرية والتنسيق الأمني، أي عندما تقل جدية الصدام مع أعداء الأمة، فإنّ الأمل يقلّ في أنّ تُثمر التضحيات اللازمة عند النزول إلى الشارع شيئاً ملموساً ولو على المدى البعيد. لذلك لا تسيطر الأنظمة على محمد علي بالقوة فحسب، بل بنشر الإحباط، أي بمصادرة الأمل أيضاً، وتوجيه الأنظمة إليها الإعلامية وأجهزتها للعمل ضمن هذا البرنامج.

أما اليوم، فإنّ أحد أهم العوائق أمام تبلور حركة الشارع العربي وتطورها هو غياب أي نوع من القيادة الجماهيرية، أو غياب التنسيق بين أجزائها. وعاقبة ذلك هي أنّ غياب التنظيم أو التنسيق عن حركة الشارع يُترك كل محمد علي لمواجهة جبروت نظامه العربي بمفرده. تصبح المواجهة بلا جدوى، فيحافظ محمد علي على قواه لمعاركة ظروفها الفضل.

تُصنّف هذه الشخصية المروعة أو تلك المجموعة نداءات لحمد علي ليفعل هذا أو ذاك، في سياق لا يعنيه، لكنّ محمد علي لا يتحرك بكسرة زرّ. فقد تعلم أنّ لا يتق بالخطباء، ورموز أحزاب المعارضة «المشروعة»، لكنّ الضغوط تتفاقم أحياناً، فينزل إلى الشارع بشكل عفوي تاماً، ويوجد أقرانه حوله، فيُشعر بالقوة، ومن ثمّ بالأمل، فيخاطر بكل شيء، ويسير. ترتفع فرائص الأنظمة في البداية تحاول هذه الأنظمة أن تصاير الشارع كي تحتويه، فإذا فشل ذلك، يبدأ القمع العنيف. ولو جئنا البتّة لتنسيقية ما لحركة الشارع هنا بين القيادات الميدانية، أي لو وُجد شكل من أشكال التنظيم الذي يستطيع أن يُخصد على الأقل بعض الإجتازات السياسية من التضحيات، فإنّ محمد علي كان سيستخدم سبباً وجيهاً للأمل، ومن ثمّ للبقاء في الشارع، وللشخصية أكثر. أما في غياب ذلك،

## عمّان: ملاحظات على هامش الحركة المساندة للاستفاضة - محمد علي كيّاناً سياسياً عقلانياً

على ديمومتها أكثر من بضعة أسابيع - في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠ في المرة الأولى، وفي بدايات الربيع في ٢٠٠٢ في المرة الثانية - على عكس الحالات التي وصلت فيها الحركة الشعبية إلى النصر، كما في إيران والفلبيين وغيرهما، حيث رُجِدَ قُصْرٌ من التنظيم ووضوح الهدف، ومن ثمّ الديمومة. فإذا هاجمت حكومة الولايات المتحدة العراق مجدداً كما هو متوقع، فقد تتكرر الحركة العفوية نفسها، لنعود بعدها إلى اجترار الإحباط والنزعات المرافقة له بعد إيصال الرسالة بشعرٍ باهظ، ويعود البعض إلى محاولة علاج الأعراض بالحديث عن ثورة ثقافية أو الحاجة إلى خلق إنسانٍ مثمّل أو عصريٍّ أولاً؛

إن الانتفاضة الفلسطينية التي بدأت بهبة عفوية يوم ٢٨/٩/٢٠٠٠ ما كان يمكن أن تستمرّ كما استمرت لولا وجود قوى منظمة مثل «حماس» و«الجهاد» وقواعد «تنظيم فتح» و«كتائب الأقصى» والشعبية، والقيادات الميدانية المحلية التي أيقنت شغلة الانتفاضة متوقعة. واليوم، إذا خففت شغلة الشارع العربي، فإنّ ذلك لن يكون بسبب تقاعس محمد علي أو عبقريّة الأنظمة العربية، بل بسبب عدم وجود حركة شعبية عربية بكل ما في هذه الكلمات من معنى وتبقى المهمة السياسية المركزية في هذه المرحلة الراهنة، وإنّ لجرء دعم انتفاضة الشعب الفلسطيني، هي مهمة إيجاد آلية تنسيقٍ فعّالة في الشارع العربي يُمكن أن يُقْمَلَ من خلالها محمد علي.

عمّان

إبراهيم علوش

كاتب فلسطيني شاب أستاذ الاقتصاد في جامعة البتراء في عمّان  
عمو رابطة الكتاب الأردنيين

نجد هذه النزعات تستشري أكثر ما تستشري عندما يُفقد محمد علي الأمل، بعد هزيمة ١٩٦٧، أو بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، أو ضروب العراق، أو توقيع أوسلو ووادي عربة. فهذه النزعات تُفْتَرِن في التاريخ العربي الحديث بغياب نقطة الضوء، أي النقطة المرجعية التي تُأخذ على عاتقها مهمة التصدي لقوى الهيمنة الخارجية ومشاريعها وامتداداتها الداخلية، أي أنها ترتبط بغياب الأمل العقلاني بالنصر.

النهضة تبدأ في العقل، أمّ في الشارع؟

الخلاصة هي أن المشروع النهضوي للعربي لا يبدأ من إحداث ثورة ثقافية في عقل محمد علي أولاً لتخليصه من رواسب العصور، على ما يزعم البعض، بل يبدأ من العمل في الشارع. فهذا العمل هو الذي يُمكن أن يُنْتِج الحركة الشعبية المنظمة التي تُشْهِم بشكل منهجي في صنع الأمل العقلاني بالنصر، وتساعد من ثمّ على تحقيق أهداف الأمة - ومنها الارتقاء - من ظلام العصور إلى عالم كل ما فيه نور، على حدّ تعبير الشاعر بدر شاكر السياب. فالشكلة الراهنة ليست في رأس محمد علي، بل فيا، في الخلف والكادر السياسي العربي، في عدم قدرتنا على العمل معاً لإيجاد أمر تنسيقية ميدانية، وفي عدم إيجاز أداة التغيير التي يُمكن أن تُفْتَع محمد علي فيها. ويون هذه الأداة، لن تكون هناك ثورة ثقافية، بل مشاريع لمنظمات التحصيل الأجنبي لإحقاق محمد علي بثقافة العولة

إنّ ما جرى في الشارع العربي خلال انتفاضة الأقصى دليلٌ ساطع على الحاجة إلى التنظيم والتعبئة والرؤيا الاستراتيجية والقيادة الشعبية، من تمت: أيّ أنه يُبَيّن الحاجة إلى حركة شعبية عربية منظمة. فلنلاحظ أنّ هذا الشارع كان يمجج بالتظاهرات والصدامات من المغرب إلى البحرين؛ ولكن لأنّ الحركة الشعبية كان يعوزها التنظيم والهدف الواضح، فإنها لم تستطع أن تصافظ

## سورية: الربيع الفلسطيني

□ محمد نجاتي طيارة

– هذه الدولة التي لم تستغف براغماتيتها المشوهة من التحولات العالمية وتياراتها الجديدة إلا بما يُدعم قدرتها على الطمر والبقاء، صحيح أنه لا يُمكن شارعاً أو مجتمعاً أن يغيب غياباً مطلقاً؛ وهذا ما كان يحدث فعلاً بين فترة وأخرى في الشارع السوري، نزوحاً أو ردّاً انفعالياً على أحداث معينة، كأنهajar مظاهرة المليون ونصف المليون منذ سنوات في دمشق وتحطيمها السفارة الأميركية ردّاً على احد الاعتداءات الكبرى على العراق، وغيرها من التعبيرات التي يُمكن إدراج منتهيات ربيع سورية القصير لعام ٢٠١١ في إطارها. لكن من الصحيح أيضاً القول: إنّ ذلك كله كان مؤقّتاً وعابراً، ولا يُمكن إدراجه في إطار مصطلح «الشارع» كحركة مجتمعية مدنية أو كتعبير جماهيريٍّ مستمرٍّ وموَّارٍ بالحركة والنضال، حسب مصطلحات الستينيات. وهنا لا يفوتنا القول إنّ التعبيرات المنظمة والمطّية للموظفين والعمال ولباقى قطاعات الدولة وأجهزتها المظلمة، من مسيرات البئعة والتقليد إلى مسيرات الاستنكار، هي مسألة لا تتورّف فيها أدنى علاقة بالمصلحين المذكورين.

ما يحدث اليوم في سوريا شيء مختلف لا يمكن إخضاعه للتصنيفات التقليدية فهناك جديد في الشارع السوري، فيه العديد من الظواهر العفوية الجماهيرية، فضلاً عن العديد من الظواهر المجتمعية المدنية المنظمة. وبين هذا وذاك ثمة محاولات ومشاريع مفتوحة ومرتبكة من المبادرة والعفوية والتنظيم، وكلّ ذلك في إطار عودة المكانة الحورية للموضوع الفلسطيني إلى الشارع السوري. فبعد الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧ تُمكن ملاحظة اشتدالات مجتمعية سورية عديدة بدعم الانتفاضة الفلسطينية. ومع انفجار الانتفاضة الثانية حفلت هذه الاشتدالات بأنشطة متنوعة، بدءاً بالهزجانات التضامنية والمظاهرات والندوات، ومروراً بجميع التبرعات، وانتهاءً بتشكيل «اللجنة الوطنية العليا لدعم الانتفاضة» التي تمّ تخصيصها على مثال «اللجنة الوطنية التقدمية» مع بعض التجهيلات – الأمر الذي دعا الطيّب تيزيني وآخرين إلى الانسحاب من ميثمتها العليا بعد أنسهم من محاولة تطويرها إلى مشروع شعبيٍّ لكن مع بدء

من يتابع فضاء الشارع السوري لا بدّ أن يلاحظ المكانة الحورية والطاغية للموضوع الفلسطيني فيه. ولا يعود ذلك إلى زخم الوجدان العربيّ فحسب، كما هو معروف عن سورية، بل أيضاً لكون سورية قد شاركت قسمها الجنوبيّ فلسطين، ثم دولاً ما اصطّلح على تسميته دول المواجهة، بانسقاط متكررة من الخسائر الناجمة عن الاعتداءات الإسرائيلية، فكان لها نصيبها من لاجئي ١٩٤٨ (ما يقارب الـ ٤٠٠ ألف) ونازحي ١٩٦٧ (أكثر من ١٥٠ ألفاً). وما زالت سوريا تتلقّى التهديدات والضغوط، بل والضربات العسكرية أيضاً، على الأقلّ في خاصرتها اللبنانية مؤخراً. ومن هنا كان استنزاف مخصصات دفاعها معظم ناتجها القومي. ولذلك كان الموضوع الفلسطيني مفتاح الحياة السياسية السورية بأحزابها ونُخبها، والبند الأول على جدول أعمال جميع حكوماتها المتعاقبة منذ الاستقلال.

منذ عقود، يمكن القول إنّ هذه المكانة الحورية قد تراجعت وأصابها ما أصاب الشارع العربيّ من خمول وانكماش وهذا لا يعود فقط إلى سيادة لغة الواقعية والسلام وانتشار النزعة الاستهلاكية، التي بدأت بعد الانتصارات الحزبية لحرب تشرين، بل يعود أيضاً إلى أسباب بنيوية عميقة تتعلق باستقرار النظام السوري وتكوين سلطته المركزية ذات الطابع الأبوي، التي انطلقت من حالة الطوارئ المؤكدة إلى إعادة إنتاج الدولة وللجتمتع في نظام كليٍّ من الأجهزة والمنظمات الشعبية الناتجة بجهة وطنيةٍ تقدميةٍ وحزب قائد. ولم يكن لعبور هذه السلطة المركزية العديد من الأزمات الداخلية (٧٩ - ٨٠، ٨٢، ...)، والخارجية (الحرب الأهلية اللبنانية، الضربة الإسرائيلية في عام ١٩٨٢، المشاركة في حرب الخليج الثانية) إلا فضلاً عنّين الطابع العسكريّ وتظهير الدولة الأممية، على حدّ تعبير مفصلٍّ للطيب تيزيني، بحيث ميمّن هذا الطابع على التعبيرات المستقلة والجنينية للمجتمع المدني، وكثّرن طويلاً غياب الشارع السوري الذي كان يلقي بالحرّة لسنوات خلت. وكان من بين نتائج ذلك عزلة الفرد السوري، وانسحابه الدفاعي إلى أصوليات متعددة، عائليةٍ وطاقافيةٍ وعقائدية. في ظلّ دورات اقتصادية متخبطّة بين اقتصاد السوق واقتصاد الدولة

أبناء الشعب السوري إلى المشاركة في حملات التضامن لنصرة الشعب الفلسطيني، أمام مبنى مقر الأمم المتحدة شارع أبي رمانة، الساعة ١١ نهراً من كل خميس، اعتباراً من ٢٤ كانون الثاني. وفعلًا، احتشد في المكان المشار إليه، وبدلاً من ذلك الضميس بالذات، جمهور من نشطاء المجتمع المدني والمثقفين المستقلين والفنانين، أبرز بينهم عبد الرحمن زهرة (أبو القاسم) وفارس الجلو ومي سكاف وأحياناً خالد تاجا. وكان عدد المتضامنين يتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ من الجسّين، ومن أجيال متعددة، وانضم إليهم جمهور متزايد من الفلسطينيين. ومنذ الضميس الأول، تقدمت المشاركات والمشاركين برسالة احتجاج إلى الأمين العام للأمم المتحدة، سلمتها باليد كل من المشاركة د. مي الرهبي وكتابت هذه السطور. إلى السيد مسؤول البرنامج الإقليمي للأمم المتحدة، كما رفع المشاركون رسالة أخرى ماثلة إلى الأمين العام للجامعة العربية. وأصبح تقديم مثل هذه الرسائل تقليدًا مستمرًا باسم المشاركين في «الاعتصام».

بعد أكثر من شهر، ظهر في المكان نفسه تجمع آخر عند الساعة الثالثة، دعت إليه لجان العودة ونشطاء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وأمكن التنسيق بين المومنين، فكتار جمهور المعتصمين وأصبحت يشغلون معظم الشارع. وفي خميس لاحق، بإحدى مجموعة من الشيعيين السوريين منشقة مع قدرى جميل القيادي السابق في الفصيل البكداشي، دعت إلى تجمع آخر في المكان نفسه عند الساعة مساءً. وتميّزت برفع راياتها الحمراء، وبإلقاء الجيل الشاب بينها، وأصبحت توقع لافتاتها وبياناتها باسم لجنة متابعة تنفيذ ميثاق الشرف».

هكذا ظهر خميس فلسطين في دمشق، وتحول إلى تقليد تضامني تركز حول الموضوع الفلسطيني. وأشارت الأنشطة التي رافقتها في حيوية متجددة في الشعب السوري، التي كان لجوؤها إلى مقر الأمم المتحدة تعبيرا شديدا الرمزية عن حاجتها إلى ظهر يُسند توفها إلى التعبير، فضلا عن رغبتها في كسر للصمت الإعلامي عن وجود الآخر ورايه. ومن ثم كان من الطبيعي ظهور لافتات تحمل توافيق لجنة أسرى الرأي، وجمعية حقوق الإنسان، والنشطاء الوطني الديمقراطي، طالبين بإطلاق سراح المعتقلين السياسيين،

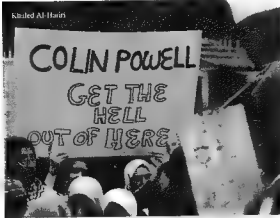
الهجمة الصهيونية الأخيرة على الشعب الفلسطيني، انفجرت دمشق والمديد من المحافظات والبلدات السورية الطرقيّة بما لا يسعنا تسميته إلا به ربيع سورية الفلسطيني».

لم يكن ممكناً تقنّع هذا الربيع بلا بذور أو مناع. فإذا كان الموضوع الفلسطيني حاضراً دائما في سورية، فإن المسألة تتعلق أيضا بالمناخ المنفتح - إلى هذا الحد أو ذاك - الذي أتاحتها الإصلاحات السورية الطبيعية لكن الحثيئة، والمعبّرة عن رؤية القيادة الجديدة الشابة للتطوير والتحديث في ضوء الاستمرارية. وتتملّق المسألة أيضا بتراجع القضية الأمنية من مجال القهر والصف إلى مجال الحراسة والمراقبة، بحسب ما عبّر ذات مرة ياتريك سيل. كما غضت السلطات الطرّف عن نشاط بعض التهيّبات الفخية والسياسية للمثقفين والأحزاب المعارضة - مثل بياني ٩٩ والألف، ولجان إحياء المجتمع المدني، ولجان الدفاع عن حقوق الإنسان، وجمعية حقوق الإنسان، ومندى الآتاسي، وبياناتي التجمع الوطني الديمقراطي وغيره - على الرغم من تلويح بعض أطراف تلك السلطات بالخطوط الحمراء، بل واستعدادها لتوجيه ضربات تحذيرية، كما في قيامها باعتقال الديمقراطيين العشرة في نهاية صيف ٢٠٠١، وإخضاعها للنابئين الإصلاحيين مأمون الحمصي ورياض سيف لحاكمات مزيلة بالمحصنة، هناك فرضية ربيع ما آخر في سورية ونظرا للصمت الإعلامي حوله، سنحاول ما أمكننا تنبّئ مساره ميداني في ما يلي.

### دمشق

في دمشق، بدأت البذرة الأولى بجلاّغ صدر عن «لجان المجتمع المدني» بتاريخ ٢٠٠١/١/١٦، استقرّض تجربة الحراك المدني في سوريا، وأهميّة الحوار واختلاف الآراء في تفعيلها. وقد انطلقت هذه اللجان من رؤيتها لاستقلالية للحل الثقافي في إطار جدله مع الحل السياسي، وازدياد أهمية الثقافة الوطنية المقاومة بعد أحداث ١١ أيلول وانتكاساتها السلبية على وطننا العربي - وهو ما يتجلى في تصعيد هجمة المشروع الصهيوني للعوم أمريكياً ضد شعبنا الفلسطيني وانتفاضة الباسلة. ولهذا دعت «اللجان»





ملا في الشارع الفلسطيني مجدداً كره سياسة اميركا: «هاول، حل من هنا»

عبر بعضها عن اليلس من الانظمة العربية وعجزها إلى درجة الشبهة: «يا ناس والله يا ناس، حكّام العرب انجاس»، واستجديت أخرى ببطاننا التاريخين: «بين جمال وصالح الدين، تا نحرّض فلسطين». كما كانت هناك هتافات طالبين بفتح المعتقلات وإطلاق الحريات: «لا تحرير بلا حرية»، «مسلمينا يا فلسطين لأننا مكينين»، «الحرية الحرية للتوازين والمعتقلين»، فضلاً عن الشعارات الغالبة للفلسطين وتأكيد خيار مما أخذ بالقوة لا يُستمره بغير القوة». ورائفت ذلك كله ممارسات رمزية أخرى كإحراق العلمين الصهيوني والأمريكي

منذ اليوم الأول، الذي صادف يوم الأرض، حاول بعض المحتجين التوجّه إلى السفارة الأمريكية، فمُنعتهم قوات حفظ النظام، فأتى ذلك إلى جرح بعض المظاهرين واعتقال بعضهم الآخر ساعداً محصوياً. لكنّ تلك القوات لم تنهض أبعد من ذلك، في حين اكتفت قوات الشرطة وعناصر أجهزة الأمن المختلفة بمراتبة الحشود، وعملت على طلع الشارع وحماية الممتلكات، بل تقدّمت سيارتها المظاهرة وأمنّت لهم المرور. وحين تمادى بعض المشاركين، سواء بشغبهم ضد رجال الشرطة والممتلكات العامة، أو بإخراج المظاهرة عن أهدافها الأساسية، سارعت لجنة التنسيق المنكورة إلى التدخل والتدخلة. كما وُضعت لجان للمجتمع المدني، بيئاتاً خاصّة بتاريخ ٤/٥ دعوت فيه المظاهرين إلى التمسك بالأهداف الأساسية للمظاهرات، والاطّاع على طلبها السلمي الذي يتنافى مع أيّ قصد استمراريّ ضدّ رجال الشرطة والأمن السوريين، الذين يسمّون لنا بالمظاهرة بحرية في شوارع دمشق. كما دعوت إلى أن تعبّر هذه المظاهرات عن رغبات الشعب السوري المشتركة، وأن لا يستغلها أي طرف لأغراضه الخاصة. واكتفت أنّها «لا تستهدف أيّ طرف أو مؤسسات عامّة أو خاصّة، أو هذه السفارة أو تلك، بل بنا» موقع عربيّ، معاد أميركا وسياساتها».

وفعلاد، استقرّ الطابع السلمي للاعتصام، وأخذ اشكلاً متنوّعاً من التعبير الرمزيّ، كما في حشك ما يُسمّيه معرضاً لصور للنساء الفلسطينيتين، أو في كمّ اقراو مجموعة كبيرة من الشبان والشابات مع تنجيد الأيدي بالسلاسل. وسارت المظاهرات باتجاه قبر صلاح الدين موات عدك، واتجاه ساحة الشهيدز ومقبرة الشهداء

وربطت جميعها بين التحرير والحرية، وتوجّهت إلى المطالبة بالحريات الديمقراطية سبيلاً لتعزيز الوحدة الوطنية ضدّ الأعداء الخارجيين ولم تدوّه رسائل المشاركين في الاعتصام إلى الهيئات العربية والدولية فحسب، بل تحولت كذلك إلى نداءات موجهة إلى الرأي العامّ والمواطنين العرب. فنُشئت عنوان: «من نخرّ الجيوش؟ إلى متى نُصمت ونتغصّر؟» دعت في ٢٤/٢ إلى تلييد للضمال الوطني الفلسطيني، وطلبت الحكومات العربية بمواقف تتفق وجسامة الهجوم الإسرائيليّ الحاليّ على فلسطين، ودعت الهجوم الأميركيّ الرشيد على العراق ولم يُنْهش أن توجّه في اليوم نفسه رسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة، منوّمة بتصرّيه الشجاع والمُصنف قبل يومين.

ثم حدث النقطة النوعية في الاعتصام، وذلك حين دعت لجان المجتمع المدني، إلى التحشّد أول يوميّ اعتقاد مؤتمر القمة في بيروت. فقد تحول الاعتصام إلى مظاهرة من عدة آلاف، اختفرت شوارع العاصمة، وحسوا إلى قبر صلاح الدين الأيوبي، حيث ألقى الفتان فارس الطلو كلمة مرتجلة، كما ألقى الفتان أبو القاسم بياناً باسم «اللجان»

ومع انفجار الأحداث عشية انتهاء مؤتمر القمة العربية، تشكلت ميدانية «لجنة تنسيق المظاهرات اليومية لدعم الانتفاضة الفلسطينية» فبدأ عملها في ٢٩/٢ ووضعت: معاد حمور عن لجان المجتمع المدني، وسوسين زكرك عن اتحاد الشباب الديمقراطيّ ورابطة النساء الديمقراطيات - الجناح الفصلي، ومعزّ سويد عن الحزب السوري القومي الاجتماعي، وعلاء عرفات عن لجنة المتابعة، ومطعم عن كل من «التجسّم» ولجنّتي «ماتون» و«الأرض». فدعت هذه اللجنة، في بيانات متكررة تحمل توقيعها، إلى المظاهرة والاعتصام عند الساعة السابعة يومياً، احتجاجاً على ما يجري، والقوام بمجموعة من الضغوط لدعم الانتفاضة والاستعداد للمواجهة المفتوحة.

واعتباراً من اليوم التالي أصبح الاعتصام ظاهراً مساندة يومية، تحولت مراراً إلى مظاهرة جماهيرية، مستغلّة الأجواء والاتجاهات السياسية المعارضة والنقشة أو التملّيع على الجسد السياسي الرسمي السوريّ، على نحو ما بُدّت اللافتات والأعلام للرفوعة. أما الهتافات فكان من الطبيعيّ أن تنهض بعيداً في الخطاب التعويديّ، إذ

## سورية: الربيع الفلسطيني

من: المخرجة نائلة الأطرش، والكاتبة والطبيبة مي الرجيبي، والاستاذة سوسن رسلان، والناشرة ندى الطي. وقد قامت هذه اللجنة بتسليم رسالة باليد إلى جميع السفارات الاجنبية ومكاتب المنظمات الدولية في دمشق، عيّرت فيها عن موقف الشعب السوري من العدوان. وكان بارزاً توجهُ المجموعة إلى السفارة الأمريكية، فمُنِعت من الوصول إليها، وعندما سُمع لندوين عن هذا ما لم يُنشر لمقابلتها سوى السكرتير الأول، فعبرتاً له الندوينتان عن غضب نساء سوريا من الموقف الأمريكي، وسلمتهما رسالة احتجاج شديدة اللهجة إلى الرئيس بوش. أما نزوة أعمال هذه اللجنة، فكانت إقامتها لعشاء ومزاد خيري، على عشورين لوحة تبرّع بها فنانو دمشق لدعم الانتفاضة، وذلك في فندق الميريديان مساء يوم ٤/٢٠.

### حلب

في حلب كانت قد ظهرت، قبل أكثر من عام، «لجنة العمل الوطني لنصرة فلسطين»، وضمت ممثلين عن أحزاب «التجمع» و«الجان» ومثقفين وشخصيات مستقلة سورية وفلسطينية. فاصدرت بيانات متتالية، وعلّقت على تنظيم واحدة من أوائل المظاهرات المستقلة لدعم الانتفاضة، ومنذ انقجار الأحداث الأخيرة، شاركت في تنظيم تظاهرات مساندة، ضمت أكثر من ألف مشارك ومشاركة، وكانت تنطلق مساء كل اثنين من ساحة سعد الله الجابري لتجوب شوارع حلب الرئيسية منقّدة بالعدوان والعجز العربي

### حمص

في حمص، بدأ مساء السبت ٤/٦ اعتصامٌ مستقل دعاً إليه ناشطو «التجمع» و«الجان»، مع بعض المثقفين المستقلين والفنانين - وبخاصة شباب مجموعة «مدى» الفنية - إضافة إلى مشاركة فلسطينية رمزية. ثم تحول هذا الاعتصام بعد أيام إلى احتجاج جماهيري يرمي في مركز المدينة بمشاركة محطّة من «التجمع» و«لجنة التلاميذ» والمنظمات الفلسطينية، وتراوح عدد المشاركين فيه بين ٢٠٠ و ٦٠٠. وسرعان ما أصبحت لهذا الاعتصام تقاليده الاحتفالية الوطنية، حيث برزت هتافات مثل: «داؤن داؤن يو أس إن»، «شولوا العرب يضلوا إيه»، «منا

مرات أخرى، حيث أقيمت كلمات للكتور سمير التقي مرة، والمصامي حسن عبد العظيم الناطق باسم «التجمع» مراراً. وقد تميّزت كلمة الأخير مساء ٤/٢٥ بثمنه إيجابية القيادة السورية من التظاهرات، ومطالبته بتسريع الوحدة الوطنية من خلال الإفراج عن كافة معتقلي الرأي ليشركوا في الدفاع عن فلسطين.

كما تجمع حوالي ثلاثة آلاف معتم، ظاهرة ذكرى الجلاء في ساحة التحرير، وساروا حتى الكنيسة المرومية، متضامنين مع شعب فلسطين ومع الماهجرين في كنيسة المهدي بشكل خاص. وكان لائلاً حضور الطيرون اغناطيوس الرابع هزيم راعي الكنيسة الارثوذكسية، والقائمه كلمة جامعة ند فيها بالاعتداء على عهد المسيح وكنيسته وشعبه، مستنصرحاً ضمائر المسيحيين وأبناء جميع الديانات السماوية لإنقاذهم وحمايتهم.

لكن الاعتصام والتظاهرات المذكورة، على أهميتها، لا تختصر حركة الشوارع الدمشقية، التي نما فيه كره أميركا مجدداً، كما حدث مع طرد القنصل الأميركي من مطعم، وإعلان مطعم آخر أنّ الدخول إليه غير مسموح للأميركيين. فهناك في كل مكان حركة أو مبادرة متجددة، وربما كان أبرز تلك الحركات أو المبادرات ما حدث في المهيئين العالين للفنون المسرحية والموسيقية، حيث انطلقت حركة اعتصام عفوية بين الطلاب منذ صباح ٤/٦، فالتزموا الرصيف وجعلوا منه، ومن سُر مهديهم، معرضاً متنوعاً لتعبيراتهم الفورية: من اللجسّمات الجسمية الضخمة واللونّة التي تمثّل الشهيد وظلّ الشجر والغاربي، إلى رسوم الكاريكاتير المنددة بالصهيونية وبالحكومات العربية وجيوشها وعجزها، وبينها رسوم لناجي الطي وعمر سواح وحميد قاروط؛ فمقاطع من قصائد لعمود درويش ونزيم أبو غنّش بالعربية والفرنسية، ولم يكف المثصمون بذلك، بل شكلوا لجنة لجميع التبرّعات، لها طاولاتها الخاصة المطلّة على جانب الرصيف، حيث جمّعت حوالي مليوني ليرة سورية حتى مساء ٤/٢٩. وإذا كان حصر جميع المبادرات الدمشقية وعرضها مستحيلًا، فلا بد من الإشارة إلى مبادرة نسائية خاصة، إذ شكلت مجموعة كبيرة من السيدات المستقلات والناشطات في الحقل العام لجنة ضمت كلاً



النساء في سوريا  
مشاركة نوعية  
متميزة تستعيد  
دورهن الوطني  
والقومي

النسائي) وجابت شوارع مركز المدينة حاملة لافتات فردية تتضمن مع الانتفاضة وتندد بالعدوان. وقد صرحت إحدى المشاركات بأن هذه المسيرة المستقلة تحدث للمرة الأولى في مدينة حمص، وهي تعبر عن مشاركة نوعية متميزة لما يسمى بسيدات المجتمع المحلي، اللواتي تخلّين مع جامعيهن النساء الأخريات عن التحفظ النسائي التقليدي، فتزنان إلى الشارع، مستعديرات دورهن الوطني والقومي، وذلك بفضل الانتفاضة وتقنيات شعبنا في الأرض المحتلة.

#### حماء

في حمص، شهدت المدينة اعتصاراً من يوم الخميس ٢٠٠٢/٤/١١ تعبيرات احتجاج متنوعة ومستقلة في السياق ذاته. فقد تجمعت حوالى ثلاثمائة من نخبة نساء المدينة عند الطهيرة، بينهن طبيبات (مثل د. فداء الأكرم الحوراني ود. سوسن عدي) ومهندسات (مثل السيدة رندة الرمي) ومدرّسات (مثل الرّبة المعروفة نجوى عواد) وسيدات أعمال (مثل السيدة نجود اليوسف) وريّات بيوترواهاية. قُرب النصب التذكاري في مخفل المدينة الجنوبية. وسارت المشاركات باتجاه مركز المدينة، وهنّ يُشدن الأناشيد الوطنية والفلسطينية ويصنن لافتات فردية تندد بالعدوان الصهيوني المهجّم للدعم امريكيّاً، حيث برزت شعارات: «من حمص لجنين»، شعب صامد لا يلقن: «أم النواصر تنادي: فلسطين يا عزّ بلادي»، وكانت المسيرة مفاجئة في جو المدينة، إذ ضمت سيدات مسافرات إلى جانب المحبّبات، وخرجت بصورة مستقلة عن أيّ تخطيط رسمي - وهما امران غير معتادين محليّاً كما أضافت هذه المظاهرة إحدى أرواح شهداء الانتفاضة برفاة الفاتحة «إيماننا الذي في السموات»، عبّرت إلى حيّ المدينة ذي الطابع المسيحي، حيث لقيت ترحيباً وتحميلاً وشهدت كبرى. كما انضمت إليها جمهرة جديدة من المحتجات، فريا عدّها على الأربعة مشاركة. وتابعت بعدّها إلى الخبز، قبل أن تتفرق وتتواعد على متابعة الاحتجاج الجماهيري والتنقل به بين أحياء المدينة. وهذا ما تمّ تنفيذه في الاثنين التالي، الذي تميّز بحمل الشموع مساءً وبزلايد عدد المشاركات إلى ما يقارب الخمسمئة

برقية أمريكا، والمباول راكضين عليه: «يا غسان ويا بصّاص، العدو بنو رصاص ونحن بؤنا حرية:» شعب مكثّف ما يبقا، الشعب الحرّ وحده مشاقله، «يا حكام ليش ليش، يبعضلوا نايام هالجيّش:» «يا فلسطين ثوري ثوري، نحنّا معاك الشعب السوري... مع مشاركة إيقاعية من المحتشدن في حلقة متّسعة باستمرار حول الأناشيد الوطنية القديمة وأغنيات مجموعة «مدى». وقد يّتح ذلك إصراراً العلم الصهيوني، ولا يُخفتم الاعتصام إلا مع إشداد التضيد الوطني، ثم ينصرف متحولاً إلى مظاهرة سارت يومًا إلى الخبز، ويومًا إلى مقابل الروضة، حيث قدمت مجموعة الذي برنامجاً غنائياً خاصاً.

أما يوم الخميس الأول، فقد أضاف إليه لونا متميزاً حضور المفكر العربي الطيّب تيزني ابنّ المدينة، حيث قام بالمشاركة في جميع الأنشطة، ثم ألقى كلمة مرتجلة لأهله دارت حول فضل هذه الحركة في تحرير الإنسان العربي، واستعادة الشارع العربي لدوره ونضالته، الأمر الذي أزعج العدو والأنظمة معاً.

في اليوم التالي، اعتصم بعض المشاركون في باحة كنيسة أم الزنار، وقصروا الشموع إلى الجمهور الخارجين من الصلاة، يدعونهم إلى المشاركة في الاحتجاج على ما يُحصل في كنيسة المهدي في فلسطين فكان منظرًا مهيباً موكبهم الذي تقدّمه ثلاثة من الرهبان، بينهم الأب الزهر راهي الكنيسة ود. تيزني والكتب، حاملين الشموع، وهم يُشدون الأغاني الوطنية، عابرين الأحياء القديمة وصولاً إلى مكان الاعتصام، حيث ألقى اثنان من الرهبان كلمات مرتجلة.

ثم تقدم الاعتصام خطوات جديدة لاحقاً، فمبادرة من أحد منتظمي، تمّ علناً، وبصورة فردية، تشكيل لجنة لجمع التبرعات لدعم الانتفاضة، ضمت خمسة مواطنين من مختلف الأجيال ومن الجيشتين، على أن تبدأ عملها في صباح اليوم التالي بالتعاون مع الهلال الأحمر

من جهة أخرى، خرجت تلك النهار أيضاً مسيرة احتجاج نسائية خاصة، قامت بها مشاركات من مختلف مؤسسات المجتمع المدنيّ العريقة في حمص ( الهلال الأحمر، رعاية الطفولة والأمومة، للجمعية الخيرية الإسلامية، السيدات الإنجيليات، جمعية الرجاء، الاتحاد

الاجيال، حملوا هيكلاً رمزياً للقدس كُتب عليه: «القدس عروس عرويتكم» وساروا عبر الشوارع الرئيسية ليتجاوز عددهم الـ ٢٠٠٠ اما هتافاتاتهم فقد برز بينها «لا سلام ولا تطبيع»؛ «يا شاربون اسمع اسمع/ الشعب العربي ما بيرجّع» ولاحظ في هذه التظاهرة مشاركة ممثلي الحزب الشيوعي الفيصلي، والعديد من الشخصيات المستقلة، إضافة إلى عدد كبير من المثقفين السابيين الذين تَزَخَّر بهم سلمية

#### دير الزور

في دير الزور، كانت أنشطة أهلية مستقلة ومتعددة قد تدّت خلال العام اللات مع الانتفاضة، أبرزها جمع تبرعات فُدرت بسبعة ملايين ليرة سورية، وذلك قبل أن تُظهر اللجان الرسمية، ومؤخراً خرجت بعد ظهر ٤/٢٢ مسيرةً مستقلة وصامتة، ضمت ما يربو على خمس مئة مشاركة ومشارك من عدة أجيال. في مقبلة المظاهرة، حمل اثنا عشر شاباً علماً كبيراً لفلسطين، وارتفع صوت أغان مسجلة من الانتفاضة وفلسطين. كما برزت لافتات: «النصر للانتفاضة والخزي لأمريكا والصهيونية» ورفع الحصار عن العراق ودعم الانتفاضة مطلبان شعبيان عراقيين. ولوحظت مراقبة عناصر أمن الدولة لها، وحرصهم على تأمين مرورها في الشارع العام وانتهاء بتكية الراوي

#### الرقّة

في الرقة، خرج المحامي عبد الله خليل والطبيب محمد الحاج صالح وقد الصفا فصيماً، ورفعا لافتات تدّعي العجز العربي. ثم سارا مع بعض الشبان في تظاهرة صغيرة عبّرت الأسواق الشعبية، فانسحب إليها عشرات المواطنين، وأدت إلى فتح حوار جاد وإيجابي بين اللكويين وأمين فرع حزب البعث. وقد تبع ذلك لقاءً واسعاً مع مثقفي المحافظة، شاركته فيه قيادة الفرع ومحافظ الرقة ثم تتالت أنشطة أخرى، كان من بينها إقامة معرض مصغر لعشرة من فنّاني الرقة في الشارع الرئيسي، ويجوار المركز الثقافي. أما أبرزها فكان قيام مظاهرة مستقلة لدعم الانتفاضة يوم ٤/١٠، ضمت ممثلي الطيف الديمقراطي المعارض، وشارك فيها حوالي ألفي متظاهر

وبعد مظاهرة صغيرة العدد سارت صامتة مساء السبت ٤/١٢ من حيّ المحلة إلى وسط المدينة، ودعا إليها ناشطو «التجمع» ولجنة المتابعة، خرجت حماء من صمتها وعزلتها بعد ظهر يوم الجمعة ٤/١٩، حيث سارت مظاهرة احتجاج فلسطينية من أمام مسجد الخنم، ضمت الفئات من الجنسين ومن أجيال متعددة ثم عبّرت إلى مركز المدينة، قبل أن تنطلق إلى حيّ الصاخر وطريق حلب، فتزايّد عدد المشاركين فيها وأصبح ما بين ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠. وقد حملت هذه التظاهرة مجسّم الجامع الأقصى مع الاعلام السورية والفلسطينية، وبرز في مقدمتها المناضل الفلسطيني المضمون محمد سعيد طرويه، وعضو «التجمع» الذي رفع لافتات عديدة حملت واحدة منها توقيعه، وكان منها: «لا للصلح العربي»؛ «اطردوا سفرائكم من بلادنا»؛ «اما الهتافات فقد حيا بعصها كلمة الرئيس بشار في مؤتمر القمة، وبعضها الآخر حيا الفدائيين ونادي: «ياحكام يا ظلام/ الشعب العربي مايبنام».

#### مصياف

في مصياف أيضاً، خرجت مظاهرة مستقلة لنصرة فلسطين بعد ظهر ٤/١٤، ضمت بداية حوالي ١٥٠٠ مشارك ومشاركة، وسارت رافعةً أعلام فلسطين عبر الشوارع الرئيسية حتى الباب القبلي والسوق، ليربو عددها على الثلاثة آلاف. وقد برز فيها ناشطو «التجمع»، ومثقفون مستقلون وعضو الحزب السوري القومي الاجتماعي - فيصل عبد الصبح. وتميّزت بشعارات وهتافات كان بينها: «هتي يا رياح الاوطان/ شيعي وسني/ مسلم ومسيحي/ يعني وقومي/ نامصري وشيوعي» وتبع تلك التظاهرة اعتصامٌ تسمّاهُ «خضر» ومستقلٌ مساءً: ٤/٢٢، ضم حوالي ٥٠٠ مشاركة من مختلف الاجيال، وتحول إلى مظاهرة سارت مندلة بالعنوان وبالعجز العربي.

#### سلمية

كلّك في سلمية، كانت قوى الطيف الديمقراطي الملتف حول «التجمع»، قد شكلت لجنة لدعم الانتفاضة. وتحت ظل الأحداث دعت للتظاهر نهائياً ٤/٢، فتجمّع حوالي ١٢٠٠ مشارك ومشاركة من مختلف



فلسطين أخسرت  
الساكنات والمحببات  
في ظلالها واحدة

ومتظاهرة إضافة إلى ذلك، كان لافتاً خروجُ تظاهرات صغيرة مساء ٤/٢٢، تميّزت بكون أغلبيتها من الأطفال دون العاشرة، ويحملهم رموزاً للإنجيل والمصحف مع خارطة كبيرة لفلسطين.

**استنتاجات أولية**

١ - قد تبدو التعبيرات التي سبق عرضها محدودةً ورمزيةً للتأثير، ولأسياً أنّ حجم أكبر تظاهراتها في دمشق لم يتجاوز عدّة آلاف، في حين أنها عاصمةٌ يقطنها أكثر من أربعة ملايين نسمة. لكنّ العارف بالشارع السوري وما انتاب خلال العقود الماضية لا بدّ أن يقرّ بأهمية تلك التعبيرات. كما تكفي مفارقةُ أنّ الصور المملّبة، التي تجاوزت المليون أحياناً، كانت تبدأ ضخمةً وتصبح هزيلةً أثناء سيرها، بينما التظاهرات المشار إليها اعلاه كانت تبدأ صغيرةً ثم تتنامى أثناء مسيرتها، بانضمام المتعاطفين معها، ومنّ يكشفون استقلاليتها بعد كثير من الحذر والتشكيك

٢ - إنّ التعبيرات المشار إليها أعادت إلى الشارع السوري شيئاً من حيوية الستينيات وذاكرتها المماسية، بخلاف الإيقاع الرتيب للمسيرات الأبوية خلال العقود الماضية. وانضامات إلى ذلك، بالطبع، تجديدات فرضتها إيقاعُ العصر وتطلّعاته. فكنت ترى ممثلي الأحزاب والقيادات مشواً في مظاهرات، ويخاصم في الاحتفام اليوميّ الجاري في دمشق وإلى حدّ ما في حمص. وكنت ترى أيضاً الأصدقاء والمنازل، بل والأجيال المختلفة، في تواصلٍ مخالف للمألوف، ربما لأنّ الجميع في خروجهم الحرّ والمستقلّ إلى الشارع تركّزوا على الأبوية السياسية السائدة والمستقرة منذ عقود، فاصبحوا موحدين من جديد في موقع الـ «الأنبا الشياطين»<sup>(١)</sup>

٣ - تأثير التغيّات الجديدة. وقد تجلّى ذلك في الإصدار المتلاحق للبيانات والشعارات نظراً لانتشار الكمبيوتر والطابعات، وكذلك تأثير الفضائيات ومواقع الانترنت والهاتف الخليوي، إضافة إلى

٤ - د. ياسين حاج صالح، مخرج من العزلة - يوم فلسطيني في دمشق، للصفحة ٢٠٠/٤/٢٠٠٧.

٥ - حاولت أن تموّع عن صحت الإعلام المحلي والخارجي.

٦ - بروز أهمية التنظيم والتنسيق بين القِيّارات والرموز الناشطة. وهو أمر تمّ بصورة ناضجة وواضحة في بعض الواقع، ولكنّ حدثت درجات طفوة وميدانيّ منه في مواقع أخرى

٧ - طرحت للتجربة العمليّة لهذه التعبيرات العديد من الأسئلة النظرية والعملية. كما أعادت اختبار القديم من هذه الأسئلة، سواء حول العلاقة بين القوميّ والطبقيّ، وبين التحرر والحريّة، أو حول التراضي الميدانيّ بين القوى المختلفة

٨ - لا شك أنّ كان الموقف الإيجابيّ والمنتفح للقيادة السياسية السورية من هذه التعبيرات أثره في ظهورها السلميّ والتوافقيّ. وهذا ما يعطي الأمل في تطوير الحوار الوطنيّ، انطلاقاً من رؤية تفيد أنّ سوريا دولة كلّ مواطنيها، علماً أنّ الحزب الحاكم توجّه بدوره مؤخراً إلى التعبير عن دعمه للانتفاضة بالإضافة إلى تعبيراته الرسمية المعروفة لكنّ يبدو أنّ هذا التوجّه يفسّر في التعبير عن نفسه بالاشتراك مع الآخرين والمباراة معهم في بعض الملاحظات (كالرقّة)، وبممارسة أشكال متنوّعة من التحدي والاستفزاز والإهانة في محافظات أخرى (كمحمص).

٩ - أخيراً، إذا كانت الانتفاضة قد أسهمت في تحرير الشارع والإنسان العربيّ، فإنّه يبدو أنّ الربيع المنتفح مجدداً في سورية، والمتوافق وطنياً ومناخياً هذه المرة، لا يمكن إلاّ أن يندرج في هذا الإطار، على الرغم من كثرة الدواجز المتوقعة.

#### محمد نجاتي طيارة

باحث سوريّ. أهد كتاب صورة رائد نهضويّ، وشارك في كتابي الأحزاب والحركات القومية في الوطن العربيّ، والديمقراطية وحقوق الإنسان في سوريا. وهو عضو مؤسس في لجان إحياء المجتمع المدنيّ، جمعية حقوق الإنسان، ومندوب حمص للحوار

# المغرب (١): حوار مع خالد السفياني حول فلسطين والشارع المغربي

أجراه: عبد الحق لبيض، مراسل الآراء في المغرب

□ خالد السفياني

كيف تحدثون ظاهرة الاحتجاج العربي، اجتماعياً وسياسياً ونفسياً؟ وكيف يمكننا أن نتحدث اليوم عن مفهوم ما للشارع العربي، كما هو قائم في الغرب؟

تشكل الظاهرة الشعبية مجالاً لإبلاغ وجهات النظر، ولإيصال رسائل تُدافع عن قضية ما أو موقف معين. وهي أيضاً مظهر من مظاهر التواصل مع بقية الشعوب، ومع مختلف الأنظمة في الدول الديمقراطية. يكون التظاهر في العادة مسألة عادية، ولا يُحدث من جزائه أي مشاكل. وذلك راجع إلى نوع التربية التي يتمتع بها مواطنو هذه البلدان، وإلى مجال الحرية الممنوح لهم من لدن السلطات: فهذه تقتصر دورها في التظاهرات على التوجيه والتأطير، ولا تتدخل إلا في الحالات التي يُسب فيها النظام العام – بالشكل الحقيقي لا باللفظي الذي يُعطى في الدول غير الديمقراطية. وأما ظاهرة نزول المواطنين العرب إلى الشارع للتعبير عن قضاياهم فهي ظاهرة جديدة ولم تتضح بعد لتصبح سلوكاً اعتيادياً في الممارسة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. إن الشارع العربي لم يتحول بعد إلى فعل منسّس في معظم البلاد العربية، وتعرضه مواقفاً بنوعية أساسية تجعل أهم مظاهرها في عدم اكتمال بناء المجتمع المدني في بعض البلدان العربية، وفي غياب هذا المجتمع في بلدان أخرى، إضافة إلى ما يواجهه المجتمع العربي من سلوكيات لايمترياً من طرف الأنظمة الشمولية.

إن موجات الاحتجاج التي عرفها العالم العربي في الشهور الأخيرة إنما فرضتها التطورات السياسية التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني، وكما كبرت القضية، كبرت معها الحاجة إلى التظاهر، ومن ثم كبر حجم التظاهر ذاته. ففي المغرب مثلاً، عندما وصل الإجراء الصهيوني – الأميركي إلى ما وصل إليه، كان من الطبيعي أن يخرج أكثر من ثلاثة ملايين مواطن إلى شوارع الرباط للتعبير عن موقف ثلاثين مليون مغربي متعلق بقضية فلسطين ومشغل بها. وللملايين التي طافت شوارع الرباط كانت تحمل رسائل محددة

أولاً: رسالة إلى الولايات المتحدة الأمريكية بنُد فيها المتظاهرون بتواطئها المفسوح في حرب الإبادة التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني، وبطالون بأفخاذ مواقف صارمة ضلماً (مثل مقاطعة البضائع الأمريكية).

ثانياً: رسالة إلى الرأي العام الدولي لحثه على التحرك والضغط بكل الوسائل من أجل إيقاف المذابح

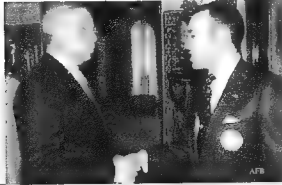
ثالثاً: رسالة إلى الحكام العرب، الذين أhurst الجماهير أنهم لم يقوموا بواجبهم تجاه ما يجري في فلسطين.

رابعاً: رسالة إلى الشعب الفلسطيني، وذلك حين أراد المغاربة أن يقولوا له إنه ليس وحده في ساحة المعركة.

خامساً: إحساس المغاربة أن هناك من لا يزال يفكر أو يتحدث بإمكانية التطبيع مع بعض الصهاينة. فهم حين يتظاهرون يقولون لهؤلاء إن الصهيونية ملّة واحدة، لا حمان فيها ولا صفور.

هل يتخذ للشارع العربي المظاهرة القومية وسيلة لحل معضلاته الداخلية، ولزعزعة النظام العام، – وهو ما تبرّز به الأنظمة العربية قمعها للتظاهرات في الشارع العربي، أم أن للأنظمة حساباتها في السماح، في فترات معينة، للجماهير بأن تنزل إلى الشارع؟ لننذكر الله حتى الآن الإحساس القريب منعت السلطات المغربية تظاهرات مساندة للقضية الفلسطينية، وقمعت مظاهرات أخرى تخرجت على الأوضاع الداخلية، لكنها احتلت رسمياً بمظاهرات ٧ إبريل وفورث لها كل وسائل النجاح، وعلى رأسها الإعلام الرسمي.

التظاهر هو أداة للتعبير وأداة للضغط أيضاً. فالمتظاهرون الإنجليز والأميركيون عندما خرجوا إلى الشارع كانوا يُهدّون إلى الضغط على حكومتهم من أجل أن تغير مواقفهم من الكيان الصهيوني. وأما التظاهرات العربية فهي أساساً أداة للتعبير، وإن يمكنها أن تمارس ضغطاً جزئياً على الأنظمة العربية. مثلاً، عندما حث ملك



جمل ملك المغرب شارقة بكنا فلسطينيون، أثناء استقبله كونان باول

حالات التفتيس عن الجماهير ولو بشكل سطحي. السؤال هو: هل استطاعت المظاهرات الاحتجاجية العربية لصالح فلسطين ان تصل إلى اسماع اصحاب القرار السياسي العربي، حتى وإن لم نأمل في التأثير فيها؟ بل لنقل إلى المسيرات الاحتجاجية العربية نجحت إلى حد ما في التأثير في هؤلاء؟

كيف؟

بدلاً، اذا لست موافقاً على تصنيفك للمسيرات في عالمنا العربي. مثلاً، مسيرة الرباط الاخيرة هي مسيرة شعبية خالصة، وإن شاركت فيها رئيس الوزراء، بصفته الكاتب الأول لحزب الاتحاد الاشتراكي وهذه المسيرة لم تُنمَّع كسابقاتها من المسيرات الشعبية لأن السلطة كانت مضطرة للترخيص لها تحت ضغط المرحلة. لا لأنها كانت تُرغب في التفتيس عن الجماهير فالسلطات في المغرب كان لديها انطباع عن درجة الطمان التي توجد في الشارع المغربي، ولم تكن المسيرة مخفياً لها رسمياً، وإن كان مخفياً لها من طرف «الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني» ويتتبع مع كل الاصراب والتقايات وجمعيات المجتمع المدني وما نحمد الله عليه في المغرب ان «الجمعية المغربية» ما تزال قادرة على ان تنسق عمل كل هذه الاطراف على طارئة واحدة، لينتقلوا على ضوابط معينة، وعلى طريقة لتنظيم المسيرة يُكَلِّب على مناقشتها طابع السوقيّة والجنيّة إضافة إلى ذلك، كان المغرب قد شهد، طيلة الايام السابقة على مسيرة الرباط مثلات المسيرات العنصرية والمنظمة التضامنة مع الشعب الفلسطيني. ويجب ان ننسى ان ثمة مسيرات حصلت في مدن صغيرة، فخر ابناءها عن بكرة ابيهم: ففي مدينة صغيرة، كمدينة القصر الكبير في شمال المغرب، خرجت مظاهرة عفوية من ستمئة ألف مشارك، لم يجيشهم أحد، لتعبير عن مساندتهم للشعب الفلسطيني. كما نُظِّمَتْ وقفات احتجاجية قامت بها قطاعات مهنية

المغرب شارقة «الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني» أثناء استقبله وزير خارجية أميركا كونان باول، والتي كُتِبَ عليها بالبنط الاسود «كلنا فلسطينيون» كان ذلك تمهيداً صريحاً منه بأنه يستقبل باول ولكنّه منخرط بشكل كامل في ما عبّر عنه الشارع المغربي في مظاهرة ٧ ابريل.

كما ان العالم العربي، الذي هو في حاجة إلى استقرار بعض الأنظمة في المنطقة، سيجد نفسه ملزماً باتخاذ واقع تلك الأنظمة في الاعتبار حتى لا تتحول التغيرات عن السخط والغضب إلى فعل مادي أكبر، فيترتب على ذلك نوع من عدم الاستقرار في تلك المنطقة.

ولقد أدت المظاهرات إلى التغيير في كثير من الحالات، كان آخرها في فنزويلا، حيث عاد الرئيس المخلوع بفرار من الشارع. وكان للشارع في القرن العشرين دور مشهود في إحداث تغييرات جذرية في أوروبا الشرقية. هذا الأمر يحصل عندما ينقطع حبل التواصل بين الشارع والحكام. أمّا عندما يكون ثابلاً وقائماً، فالمظاهرات لا تتجه هذا الاتجاه. وعندما يكون هناك وعي كامل بارتباط المظاهرة بقضية معينة، فإن المظاهرة يكون من النضج بحيث لا يُسمح بالانصراف عن الهدف الذي نُظِّمَت المظاهرة من أجله. انذلك اعود إلى مسيرة الرباط في ٧ ابريل أو مسيرة ٨ اكتوبر ٢٠٠٠. فعندما يُخرج الملايين إلى الشارع، ويوافق الجميع أن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الداخلية في المغرب ليست على ما يرام، ويخرج أيضاً مسؤولون حكوميون إلى الشارع، ولا نجد من المواطنين من يتوجه إلى هؤلاء بالسؤال حول الوضعية الداخلية للبلاد، لأن الكل منشغل بهدف واحد هو مناصرة للشعب الفلسطيني، أفلا يتوَّكّد هذا نضج المواطن المظاهر وإدراكه لهدف المظاهر؟

ولكن المظاهرات العربية هي إما مخططة لها من طرف الأنظمة لخدمة هدف الحاك، أو مضطرة من طرف هذا الحزب أو ذاك لخدمة أهدافه الأيديولوجية والتنظيمية، أو قد تكون حالة من

## المغرب (١): حوار مع خالد السفياني حول فلسطين والشارع المغربي

العربية واندفاعية، للشارع العربي وفورته العاطفية، حيث للجماهير نقول ما نشاء دون أن يكون لذلك أدنى تأثير في التوجُّه العام للحاكم. فكيف يمكن الحديث عن تأثير الشارع العربي في خلفية اتخاذ القرار السياسي العربي؟

الكلام نفسه قاله رئيس بلندا قبل أن يطاح به من طرف الجماهير، وقاله زعماء آخرون وجموا أنفسهم محكومين بإرادات الشارع. الرئيس المصري لا يستطيع الضرب عرض الحائط بالتعليمات الأمريكية بشكل كامل، شأنه في ذلك شأن العديد من الحكام العرب، إلا أنه يدرك أن الشارع يمكنه أن يغيِّر النظام نفسه إذا ما تمادى هذا في قطع أواصر التواصل معه. ولأ فكيف يمكننا تفسير رفض مبارك استقبال وزير الخارجية الأمريكية؟ هل كان يُمكن مجرد التفكير في ذلك لولا ضغط الشارع؟ هذه إشارات بسيطة لا تأثير حقيقي لها في معركتنا الوجودية ضد إسرائيل، وفي موقفنا من الإرادة الأمريكية. لكنها بدايات التأثير الجماهيري والراي العام العربي في خلفيات صياغة القرارات السياسية القومية. وإذا استمر الشارع العربي في التحرك فسوف يضطر بعض الحكام العرب للتوردين حالياً إلى الارتقاء إلى نبض شوارعهم. أو إلى أن يضطروا في حق شعوبهم وفي حق مكائهم أيضاً. هذه هي سمة الحياة، وطبيعة التاريخ

لضمان استمرار الضغط على الحكام العرب وإيصال صوت الشارع العربي إلى المجموعة الدولية، لا بد من الانتفاخ بهذه الحركة الشعبية من العفوية والاندفاعية إلى الحقلنة، وإلى محاولة تأطيرها في اتجاه محدد ومعروف المعالم والمقاصد. فهل هناك تفكير في إيجاد مثل هذا الإطار؟

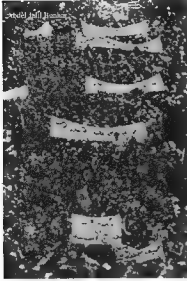
في المغرب كل الاتصالات المرتبطة بالقضايا القومية هي نضالات مطروقة. وحتى الكثير مما يظهر عفويًا إنما هو مؤطر من طرف مكائات سياسية أو ثقافية أو جمعياتية. ولحد الآن، ميزة المغرب تكمن في أن له جمعية واحدة تُدعى بالشأن الفلسطيني على المستوى الشعبي، هي «الجمعية المغربية لمساندة الكفاح

متعددة، مثل الصامير والأطباء والمهندسين والتعليم العالي والطلبة من كل هذا نستنتج أن التحرك كان شعبيًا خالصًا، وقماعاتيًا محضًا منظمًا من طرف المنظمات الجماهيرية. أريد أن أوضح هذا الجانب حتى نزيل الغموض الذي حاول البعض أن يُحدثه في مسيرة الرباط؛ وقد كان ذلك طبيعيًا: فلسطين لها أعداء في المغرب، ضميمهم «المصميين»، ولا يُمكن أن يرضيهم أن يُخرج من أجل فلسطين الملايين من المغاربة إلى الشوارع

أما عن تأثير هذه المظاهرات في صناع القرار السياسي العربي، أقل ما يمكن أن نقول أن حمل الشارة من طرف ملك المغرب أثناء استقباله بول نتيجة مباشرة لمسيرة الرباط. كما سبق أن ذكرت؛ ليس ذلك تعبيرًا عن انخراط القيادة السياسية العليا في البلاد في الموقف الشعبي، وتعبيرًا عن أن الملك يقف لأمريكا إن وراء كل متفادح ٧ إبريل وكل معانيها؟ وخد مثلاً ثانياً هو تأثير حركة الجماهير المغربية في قضية مكتب الاتصال الصهيوني، الذي أقل بشكل رسمي وطرد من كان قائمًا عليه هنا. كما استدعي القائم بأعمال مكتب الاتصال المغربي في إسرائيل. وخدوا مثلاً ثالثاً، هو اضطراب النظام المصري إلى إرضاء جزئي جدًّا لحظ الشارع المصري عندما قرر قطع علاقاته مع الكيان الصهيوني باستثناء العلاقة الدبلوماسية. صحيح أن هذا الموقف يدعو إلى الاستغراب، بالمقارنة مع وعي غربي ذهب فيه بعض البرلمانات الأوروبية إلى الدعوة إلى قطع العلاقات مع الكيان الإسرائيلي. ومع ذلك، فهذا القرار في حد ذاته ما كان سيُخذ إلا لأنَّه لم يتحرك الشارع المصري.

ساعتكم مقابل ما لنتموه جواب الرئيس المصري على مطلب للشارع المصري عند استقباله رؤساء التحرير في مصر. فقد قال إنه لن يستجيب لنداءات الشارع، لأنَّ ذلك يتعارض مع المصالح الإستراتيجية لمصر. أي أن الشارع في العالم العربي مازال يعامل من طرف الأنظمة، باعتباره غير محرك لمصالحه القومية. ونتيجة لذلك يظل التنازع بين الواقعية، الأنظمة





الشباب في مظاهرة  
الرباط لليونانية هو  
الإجماع الذي اصترم  
الاختلاف

بالذات ما فَرَضَ علينا الاستمرار في العمل الجماعي، حرصاً على ألا تصبح القضية الفلسطينية قضية تصفية حسابات داخلية، أو قضية مَرَّ لا قضية لهُ، أو مجالاً للمزاينة السياسية والمذهبية، لأنَّ الخاسر الأكبر سيكون القضية الفلسطينية نفسها، ومعها كذلك المجتمع المغربي. لا أحد يُتَكَرَّ حصوْلاً خروقات في المظاهرة الأخيرة، لكنَّ، بلجماع المكونات الأساسية في المظاهرة، استطعن أن يُبْطِلَ كُلَّ المحاولات الهادفة إلى استغلال هذا الطرف التاريخي الحساس من طرف هذا الاتجاه السياسي أو ذاك التيار النقابي، وكما لاحظتم، فإنَّ مسيرة الرباط لم يكن فيها فرقٌ بين الإسلامي واليساري واليميني والوسطي، فالكل كان مغتبطاً. قد تجد بعض المجموعات الصغيرة، هنا وهناك، تحاول الخروج عن الإجماع أو التشويش على السيرة العادي للمظاهرة، وهي معروفة النوايا مكشوفة الأغراض، مشهود لها بعدانها للقضية الفلسطينية لكنَّ الثابت في المظاهرة هو الإجماع الذي احترم الاختلاف. فقد كنتم تجدون خمسة مواطنين يسيرون جنباً إلى جنب ويهتفون بالشعار نفسه، لكنَّ أحدهم يُشْهِلُ راية حزب الله، والثاني يحمل راية الاتحاد السوفيتي، والثالث يُشْهِلُ صورة الشيخ أحمد ياسين، والرابع يحمل صورة ياسر عرفات، والخامس يحمل صورة غيفارا. وما نقوله عن هؤلاء الخمسة يُشْهِلُ على مختلف التوجهات التي كانت مشاركة في المظاهرة. ولذلك لا أريد أن أُلْهِمَ من كلامي أنَّ الصعوبات غير موجودة، لكنَّ الإجماع الذي تحققت في مسيرة الرباط الأخيرة يُجْهِلُنا نَأْمَلُ في تجاوز مثل هذه الخروقات البسيطة.

شعارات الرباط الأخيرة اشترت على عدم نضج الشارع المغربي، وهذا يؤكد أنَّ القوة الدخيلة المؤطرة لهذه الجماعات لم تُنْجِ بعدُ في الوصول إلى مخاطبة عقل المواطن المتظاهر ببل وجدانه. فهي لم تمنح من تخصيص المواطنين بالإبعاد الخطيرة لتوظيف شعاراتنا في الإعلام الغربي بالخصوص من أجل تبرير السلوك العدواني الصهيوني، فهل تتصورون أنَّ شعاراً مثل: «مُضَيَّر»

للصليبي، ومنذ بداية انتفاضة الأقصى، والجمعية تشتغل بتنسيق كامل مع منظمات المجتمع المدني الأساسية في المغرب، كما تكررت سابقاً، وهذا ما يجعل هذه التظاهرات الضخمة لا تخرج عن هدفها على الإطلاق. طبعي أن يكون هناك اختلاف في الراية التي يحملها هذا المواطن أو ذاك، لكنَّ حتى الآن لم يُثْبِتْ أنَّ تظاهرة نُظِّمَتْ من أجل فلسطين وثقت فيها انزلاقات أو خرجت عن أهدافها.

تاريخ التظاهرات في المغرب قد يُثْبِتُ العكس، فقد كانت هناك انزلاقات مكشوفة، مثلاً، في التظاهرة من أجل مساعدة العراق، خرج الإسلاميون عن الشعارات المتوافق عليها من طرف لجنة التنظيم التي كانوا طرفاً أساسياً فيها.

هذا لا يُعتبر تجاوزاً في اعتقادنا؛ إضافة إلى أننا في المظاهرة من أجل العراق كنا في بدايات الحساس بين مكونات السياسة المغربية؛ وطبعي أن يصدر هذا السلوك عن هذا الطرف أو ذاك لكنَّ في ما يتعلق بالقضية الفلسطينية، التي تُشْرِفُ «الجمعية» على التظاهر لغايتها وتنظيم فعاليات عديدة بشأنها، نستطيع أن نؤكد أنه كانت هناك مواقف متعمدة مشتركة تتم عن طريق التوافق بين كافة الفصائل السياسية، مثال ذلك: نداء المجتمع المغربي إلى اجتماع قمة عربية، فقد هُيِّئَ هذا النداء من طرف «الجمعية»، ووجهه باسم كل المكونات الفاعلة، ولم يُقْتَرَضْ أيُّ مكونٍ عليه.

حين يستمع المرء إلى حديثكم، يخيل إليه أن المجتمع السياسي الغربي براء من كل الصراعات المذهبية والفكرية وصراعات المصالح وتسجيل المواقف أو كان السيرات الغاصرة لفلسطين تُخْرِجُ فيها كل التشكيلات المجتمعية بهدف المساندة الخالصة. غير أننا نؤكد أن تاريخ الاحتجاج من أجل القضية الفلسطينية مليء بالازدادات الهادفة إلى استغلال هذه القضية من أجل اغراض ذاتية ومصالح ضيقة.

قلت إنني أتمنى أن يستمر هذا الإجماع الذي ظهر في مظاهرة ٧ أبريل. من المؤكد أن البعض يحاول أن يستغل القضية. وهذا

## المغرب (١): حوار مع خالد السفياني حول فلسطين والشارع المغربي

أعود إلى مسألة الشعارات التي رفعت في المظاهرة لأقول إنّه في إحدى المرات أنجزت شخصاً مكتوباً رسمياً من كل المكونات التي دعت إلى المسيرة، وقد كان من بنود هذا المحضر أنّ الشعارات واللافتات يجب ألاّ تمسّ المعتقد الديني. وفنّدتُ جميعاً إلى جعل كل الشعارات تسير في اتجاه إدانة الصهيونية لا اليهودية. لكنّ في مسيرة كمسيرة الرباط عندما يخضر الملايين، لا يمكنك أن تخُجب مثل هذه الشعارات بالكامل، مع أنّ إخواننا في التنظيمات الإسلامية المشاركة معنا انضبطوا للاتفاق.

أما تصوير شارون كوحش أو كنازي، فلم يكن مقصوداً في ذاته، وإنّما كان رسماً قاصصاً لكل الجرائم الصهيونية إضافةً إلى ذلك لم يكن شارون وحده هو منّا ماجمناه في المظاهرة؛ فنحن عندما اعتبرنا أنّ أحد الشعارات الأساسية في المسيرة هو أنّ التطبيع مع أيّ صهيوني يُعدّ خيانة فإنّ ذلك يدلّ على أنّ الصهانية عمّة واحدة لا فرق فيها بين حثامتي وصقور. بل إنّنا عندما طالبنا في المسيرة بمحاكمة قيادات الكيان الصهيوني، لم تكن نستثني بيريس أو موفاز أو أيليمانز أو غيرهم من قادة الإجرام الصهيوني. هناك قلّة من الناس يريدون أن يميّزوا بين هذا وذاك داخل الكيان الصهيوني، لكنّنا واجهناهم وقلنا لهم في بياننا في المسيرة إنّهم يخدمون بزعمهم هاته المشروع الصهيوني. وقلنا إنّ شعاراتنا في مظاهرة الرباط كانت في حدود تسعين في المئة شعارات رابعة ومائة ولا تحمل أيّ نوع من الخلط الذي تحدثت عنه.

**بما فيها شعار مقاطعة البضائع الأمريكية؟**

طبعاً. هذا مطلب جماهيري، وسنعمل على تحقيقه بكل الوسائل.

المسألة ليست في الله مُلقبٌ بجهامي أو بخبيث، وإنّما المسألة هي: هل نحن نرسم هذا الشعار من كل جوانبه، وحدّنا كلّ مضاعفاته؟ هل هذا للشعار معقول ومنطقي؟

خبيث يا يهود، جيش محمد سوف يعود، يمكنه أن يقدّم رسالة محدّدة تُشجّع إستراتيجية الصراع العربي - الصهيوني؛ أوّليس من شأن هذا الشعار أن يحوّل طبيعة هذا الصراع بين مظلوم وقائم إلى صراع بيني سيمواجه مقاومة شديدة من لدن الراي العام الدولي؟ السنّا بهذا الشعار أيضاً نُقلّب الحقائق التاريخية، بحيث تُنسب الزعّة الصهيونية إلى الديانة اليهودية وإلى بني إسرائيل الذين عاشوا إلى جانب المسلمين في شبه الجزيرة العربية وكافة الأراضي العربية الإسلامية؛ كما رفعت مظاهرة الرباط شعار «شارون النازي والحجر»، ألاّ ترون أنّ شخصنة الصراع قد تكون غايةً صهيونيةً أسفاساً؛ أليس من الأوّلي في مثل هذه المظاهرات العاشدة، التي تغطيها وسائل الإعلام الدولية، أن يتمّ الكشف عن الصورة الإجراميّة للصهيونية طيلة تاريخها العمويّ؛ وأخيراً، ليس من الإحدى التركيز على تصوير الصهيونية بوصفها إفراراً للحركة الاستعمارية الغربية التي عرفها العالم في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين؛ فمن شأن هذا الشعار أن يؤلّل أكثر في الضمير الغربي لأنّه يجعله في مواجهة تاريخه العمويّ وأمام عقدة مساهمته التاريخية في إيجاد الصهيونية ودعمها. فكيف كنتم، وأنتم قوة مدنيّة مؤطرة للجماهير، تفترون في هذه الشعارات وتقولون حولها في غياب أبني درجات الوعي النقدي؟

دعني أقول لك إنّ أكبر شيء كنت أفكر به في مظاهرة الرباط الأخيرة هو ما حمله المواطنون البسطاء من لافتات ومن لوحات سيكتفي أنّ الشعب المغربي أثبت أنّه شعبٌ مبدعٌ خلاق، وأنّه يعيش حقيقة القضية الفلسطينية. فقد اندهشت اندهاشاً كبيراً من الأشياء الكثيرة التي أنجزها المواطنون وآثروا بها بشكل تلقائي في المظاهرة. وهذا الجانب العمويّ مباح في مثل هذه التظاهرات، التي لا يُمكنها أن تكون حبيسة التصوّر المنطقي والعقلاني والمعرفي الذي يولده المثقفون والأكاديميون



المنشآت لا يمكنها أن تكون حبيسة التصور المنطقي والعقلاني الذي يبغوه المظفون

من سبلات ظاهرة الاحتجاج العربي لعائدة فلسطين أنها في الكثير من المحطات النضالية ارتبطت بالسيارات القومية أو بالسيارات الإسلامية، ولم نعمل على ربط القضية بالخط الإنساني العام. وبعد الهجوم البربري على الفلسطينيين، بدأنا نلاحظ اهتماماً بهذا الأمر الذي يؤشر على إمكانية تبديل ظاهرة الاحتجاج لعائدة القضية الفلسطينية. فكيف يمكن للقوى المدنية العربية، التي توطر ظاهرة الاحتجاج العربي، أن تتفاعل مع هذا المعنى الجديد؟

هذا التسقيح حاسم اليوم. ونحن نفكر في تنظيم ندوة بين مختلف الجمعيات غير الحكومية التي حضرت مؤتمر دوربان على صعيد البحر الأبيض المتوسط من أجل خلق شبكة متوسطة لدعم كفاح الشعب الفلسطيني. أما على المستوى العربي، فقد قررنا في المؤتمر العربي العام، الذي ضمّ القوميين والإسلاميين واليساريين، محاولة تفعيل شبكة دولية من المنظمات غير الحكومية التي ألحت على اعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية.

إن الصهيونية ما تزال تستعمل عقدة الهولوكوست ضد العرب والمسلمين في أوروبا وأمريكا وغيرها. ومن الضروري أن يبرف العالم للحزب الذي أن ما تمارسه الصهيونية أخطر من النازية، ومن كل الجرائم التي عرفت الإنسانية. ولذلك فمقارنة للصهيونية بالنازية ليست مقارنة اعتباطية. وأتساءل لها هدف مباشر في تمسيص الرأي العام الغربي الذي تعاطف مع اليهود انطلاقاً من هذا الحادث التاريخي، وأن نعلم أن عليه أن ينتظر عقدة ضمير أقوى تجاه ما يقع حالياً للشعب الفلسطيني.

الرياض

خالد السيفاني

رئيس الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني.

معتول جداً. بل هو المطلب الجماهيري الأكثر عقلانية. مادام هو اللغة الوحيدة التي تفهمها أمريكا. كان هدفنا من رفع هذا الشعار هو أن نشعر أميركا أن كل مصالحها الاقتصادية مهددة إن هي استمرت في شراكبتها في الإجماع الصهيوني، وأن تصفط على حكومتنا من أجل إعادة النظر في العلاقات الاقتصادية مع الولايات المتحدة الأميركية. والحق أن مقاطعة السلع الأميركية التي تنادي بها اليوم ليست تقليداً جديداً في المغرب. فالمغاربة كانوا من قبل قد قاطعوا البضائع الفرنسية في فترة مقاومتهم للاستعمار الفرنسي، ونجحت هذه المقاطعة بشكل كبير. فالمطلوب الآن من كل العرب، حكماً ومحكومين، أن يعيدوا النظر في علاقاتهم بكل الدول، لا بأميركا فقط، وأن يبنوا علاقاتهم معها انطلاقاً من مدى احترام تلك الدول للحق الفلسطيني والعربي.

إلى حين تحقيق هذا الحلم العزيم، هل نستطيعون أن نقولوا - باعتباركم قوة صينية - تعطي بمصادقية كبرى داخل المجتمع المغربي - حملة مقاطعة البضائع الأمريكية من دون الاعتماد على قرار رسمي بهذا الخصوص، وكيف لكم أن تحلقوا هذا الهدف في ظل الممارسة اليومية للمواطن المغربي المتكهن على اللتدوج الأمريكي، وكيف الوصول إلى سن سياسة شعبية للمقاطعة مع استنفال ظاهرة العولمة واكتساح للعالم بالشركات الكبرى المتعددة الجنسيات، ونعاني ظاهرة التهموية الاقتصادية بحيث بلنا نشترى بضائع أميركية أو حتى إسرائيلية دون أن نعي ذلك؟ لا يمكننا أن نذعي أننا وصلنا إلى وهي تأم بالصيغة مقاطعة البضائع الأمريكية. فنحن ما نزال في بداية الطريق. ونحن متيقنون من أننا سنصل إلى هذا الوعي. ونلينا على ذلك ردود الفعل التي تلقيناها من مختلف شرائح المجتمع المغربي بعد مسيرة ٧ أبريل، وكانت كلها تطالب بتفعيل قرار المقاطعة الأمريكية. وعندما نقرر المقاطعة، فلنأنا لن قاطع كل شيء. فهناك رموز للاقتصاد الأمريكي يجب مواجهتها. ومركزنا ستكون من هذا المنطلق.

## المغرب (٢): الشارع العربي - بوادرُ تخلُّق الرأي العام

حصة حوار مع عبد الحق لبيص

□ المقرئ أبو زيد الإدريسي

### تخلُّقُ الرأي العام في الوطن العربي

تتمثل الأداةُ المُحرِّكة والمُوجَّهة للشارع السياسي والاجتماعي في وجود رأي عام فاعل ومؤثر. فبقدر ما يكون الرأي العام قوياً، تكون للشارع ديناميتهُ الفاعلة، وقوةُ شخصيته الضاغطة على مصادر صياغة القرارات الصبيرة.

في العالم العربي هناك رأي عام بالفضي المجرّد، حيث يبلور الجمهورُ موقفاً نسبياً وعاطفياً ومكرراً من قضية معينة، مثل قضية الوحدة وقضية فلسطين. فالشعوب تحتاج دوماً إلى بلورة روح عامة، بعيداً عن التفاصيل البذيلة للموقف المعرفي والعلمي، والسياسي الماهر، كما يقول منير شفيق، هو الذي تكون عبئهُ على الخط العام للجمهير، لأنّ الجماهير - عبر التاريخ - لم تخطئ في خطها العام.

غير أنّ ما يفتقر للشارع العربي إليه هو وجود رأي عام سياسي خالص، يكون بمثابة خيار ضاغط. وهذا الافتقار لا يعود بالأساس إلى الجماهير، وإنما إلى نمط الحكم السياسي الذي يجب أن يفتح على المزيد من احترام الديمقراطية. ففي «إسرائيل» مثلاً هناك رأي عام. فعندما تتحرك «الامة الإسرائيلية» في اتجاه الرغبة في أن تستقيم خطوة إلى الأمام في التدافع السياسي مع الفلسطينيين، يختار للرأي العام أمثال شارون؛ وعندما يستشعر الخطر يتراجع لاختار رجلاً مثل بيريس يقوم بدور «التلطيف». وفي كل مرحلة من محطات الوعي النفسي والفكري والسياسي لتلك الأمة، تبرز الانتخابات، الرمز الملائم لهذا الاختيار. وفي أوروبا رأي عام قائم يُقرض صوته على الخيارات الإستراتيجية للأمة، حتى في الاتجاه الخطأ. ففي قضية تحديد النسل، مثلاً، لم يتمكّن أي حزب سياسي أو زعيم سياسي من ممارسة أي خطاب لإرغام المرأة على العودة إلى البيت والانشغال بالإنجاب من أجل إنقاذ المجتمع من الشيخوخة الديمغرافية؛ ذلك لأن الحركات النسائية من القوة والتفعل بحيث تجعل أي مسؤول سياسي يتكلم من ضرورة أن تضحي المرأة بمكسباتها يعرض نفسه للإعدام السياسي.

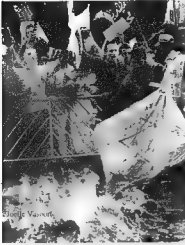
### التظاهر سياسياً ونفسياً واجتماعياً

من الناحية السياسية ترتبط المظاهرة، في الوعي البشري والإنساني المعاصر، بلجواء الديمقراطية والاستشارة، والتنظيم التعاقدى للمعلن للعلاقة بين الحاكم والمحكوم. وهي شكل من الأشكال الراقية في التعبير وإبداء الموافقات، لا في سلميتها وحضارتها فحسب، وإنما في كونها أيضاً إقراراً عملياً وريضا بحق الشعب في إبداء آرائها، واستغلال قوتها حين لا تجدي القنوات التقليدية الصامتة والهادنة.

ومن الناحية النفسية، تشكل المظاهرة نوعاً من التنفيس عن حالة احتقان، وذلك عندما تمارس وسائل الإعلام تطويقها للجماهير، أو عندما تقوم أجهزة التعبئة (كالأحزاب السياسية والنقابات) بعمليات شحن للمواطنين في اتجاه موقف سالب في الغالب، أو مرجح في بعض الأحيان، من قضية أو شخص

وإذا كان يُلقب على الأمثلة التي ذكرناها الجانب السلبي، فلأننا نحفظ كثيراً على المظاهرات ذات الطابع الإيجابي، لأنّها غالباً ما تكون موجّهة في ظل الأنظمة الشمولية التي تستغل المظاهرة من أجل أن تميعها وتحولها أداة من أدوات استضعاف الجماهير وإذلالها باسم الجماهير وعلى أيديها فكثيراً من المظاهرات يتم تصنيفها وتوجيهها بطريقة القهر والاستخبارات من أجل إعلان موقف مساند للحاكم

وأما من الناحية الاجتماعية، فإن المظاهرة تُشدد كتلة من الناس الذين تجمعهم روابط اجتماعية تهدف إلى خدمة مصالح محددة؛ فقد تكون المظاهرة بمناسبة الأكل من آثار تعبيراً عن التماسك النقابي لفئة محدّدة. لكن المظاهرة قد تتجاوز بعداً الاجتماعي عندما يتعلق الأمر بقضايا الأمة؛ فمظاهرات مساندة العراق وفلسطين ذات بعد اجتماعي ضامر إلى حد ما، وذلك لصالح بعيدتها النفسي والسياسي.



لا شيء يمكنه أن يثبّت في فلسطين مثل صوت الشارع العربي

حسن نيّة أو عن سوء نيّة، عندما تدعى أنّ الشعب الفلسطيني ليس محتاجاً إلى المظاهرات لأنّها ليست خبراً يؤكّد، ولا رصاصاً يُطلق على الصدّ، ولا دواً يدوي الجروح. إنّ هذا الكلام ينكّرنا بالمدينة البدائيّة، مدينة فيرواخ، أو مدينة ما قبل ماركس. ذلك لأنّ للشعب والأمم لا تميش بالمانيات فحسب، وإنما يحركها الجانب الجنوبيّ أيضاً. فلو كانت الأمور مدينة محضّة، لما كانت هناك مقاومة فلسطينيّة تُذكر، ولما بقي هناك أصلاً شعب فلسطيني في الوجود. ولو كانت الأمور تُحسب بحساب المانيات لكانت دولة لبنان هي أكثر الدول انبطاحاً أمام العدو الصهيونيّ، نظراً إلى الحدود الجغرافيّة المشتركة، وصغر البلد، وضعف موارده، وخروجه من حرب طاحنة مرّقة. لكنّ واقع الحال أنّ لبنان أقوى بلد في بلدان الطوق تماشاً في موقفه السياسيّ ضدّ إسرائيل، وذلك من خلال إصراره على تحرير أرضه بالسلاح، ودعمه الجنوبيّ والسياسيّ لجهاد حزب الله، ورفضه للأطروحة الصهيونيّة - الأميركيّة بتجريم هذا الحزب وتجريمه من الأسلحة كما فعلت بعض الأنظمة العربيّة مع الحركات الإسلاميّة بحجة مكافحة الإرهاب. إنّنا إزاء صراع بين ميزان الإرادات وميزان القوة، كما طورهما الأستاذ عبد الله بقرين. وينطق ميزان الإرادة، فإنّ هذه الميولات والمظاهرات تلعب دوراً في دعم صمود الفلسطينيين. وهي تُشهم أيضاً في ردع وتخجيل الطغيان. كما استطاعت أن تحرك ضمير الرأي العام العالميّ لأنّ المظاهرات التي خرجت في كل أنحاء العالم كانت استجابة لتأثير الشارع العربيّ - ولا فكيف السبيل إلى الوصول إلى ضمائر الشارع الأوروبي والأمريكيّ الذي تهيم عليه وسائل الإعلام الصهيونيّة، وتخرق مقبلة المسيحيّة نفسها عن طريق صهيبة الذنب البروتستانتيّ اليمينيّ للمتطرف؟

غير أنّ قوة الشارع العربيّ ودرجات تأثيره قد يصيبها الضعف بفعل التحالف السياسيّ والمذهبيّ بين الأحزاب السياسيّة. ونستطيع أن تقدّم، بالمأسبة، شهادة من تاريخنا السياسيّ القصير. فعندما انتمينا إلى الحركة الإسلاميّة في أواخر

في عالمنا العربيّ، لم نرق بعداً إلى مجرد مراعاة الحد الأدنى من التوجّهات والشاعر والمصالح الحيويّة للمجتمع. فانتقمنا ضمير في الاتجاه الفصائل لمصالح شعوبها. وهذا يدلّ على أنّ الرأي العام، بالمعنى السياسيّ، منعقد لدينا، لأنّه لا يؤثر في الصاكن لحظة تضيق لوقته. ففي المغرب، مثلاً، هل تراعي السياسيّة للفركتونيّة للرأي العامّ المغربيّ تجاه المسألة اللغويّة، بشقّيها المغربيّ والأمازيغيّ، وهو رأي عام له موقف وإع وشبه موحر من الفركتونيّة غير المبررة بعد نصف قرن من الاستقلال؟ وأما في ما يتعلّق بالقضيّة الفلسطينيّة، فإنّ اختيارات الأنظمة العربيّة لم تتوافق، ولو في الحد الأدنى، مع جماهير الأمة العربيّة. فالشعب المصريّ غاضب وهائج ويغزل إلى الشوارع، رغم شراسة القمع المسلّح، كي يقول للنظام: اقطع علاقاتك بـ «إسرائيل». غير أنّ النظام المصريّ مصرّ على الالتزام بكامب ديفيد التي لا تنغم بها «إسرائيل»، ومصرّ على حماية السفارة الإسرائيليّة واستمرار انشطتها بالكامل. ونجد الرئيس المصريّ يذهب في تصريحاته إلى الاتّعاء بأنّ هذه العلاقة هي في صالح فلسطين، ولسان حاله: لو قطعنا مصرّ علاقاتها مع «إسرائيل»، لفُتّل شاريون ما يريد. وكلّ شاريون لايفعل الآن ما يريد!

### الرأي العام العربيّ والقضيّة الفلسطينيّة

رغم كلّ المعوقات التي أتينا على بعض منها، والتي تبيّن أنّ «الدولة ضدّ الأمّة» بحسب تعبير يوهان غليون، فإنّ الرأي العام العربيّ في بعده العاطفيّ والنفسيّ قد تحرّك لساندة القضيّة الفلسطينيّة. إنّ السؤال هو: هل استطاعت هذه المظاهرات أن تغيد للقضيّة الفلسطينيّة في محيطها الحاليّة من المؤكّد أنّها تنغث من رقع معنويّة للكفاح الفلسطينيّ. فعندما نتابع فضائليّة فلسطين، أو عندما تلقى بإخوة من مجاهدي فلسطين، نحسّ بتأثير هذه المظاهرات. إذ لا شيء يمكنه أن يثبّت في ضمير الفلسطينيين مثل صوت الشارع العربيّ. وفي هذا الصدد نود أن ننبيّ إلى الخطاب العمديّ والإحباطيّ التضليليّ الذي تمارسه بعض الجهات، عن

## المغرب (٢): الشارع العربي - بوادر تخلق الرأي العام

المهم الآن هو كيف يمكننا أن نُظهِر هذه الجاهزية ونُخرج بها من الاندفاعية نحو العقائدية والوعي والأثران في التعامل مع القضية الفلسطينية ومع القضايا القومية الأخرى. فاندفاع الجماهير يُنتج مع مرور الزمن - وهذا شيء طبيعي في حياة الشعوب وفي سيكولوجيتها - والاندفاع في حد ذاته مؤشِّر على العاطفية والمزاجية، غير أنه مطلوب في حد ذاته: ففي قضية مساوية كالقضية الفلسطينية ينبغي أن تستمر الجماهير في الاندفاع إلى الشارع يومياً، ويُشبهني أن يكون سبباً تلك الاندفاعات قوياً، مهما اقتصر على حزمة محدودة ومعالجة كالمحملة العاطفية

غير أن أقول جنوة الجماهير ليس دائماً ذاتياً متعلِّقاً بالجماهير، وإنما تلعب فيه الأنظمة العربية دوراً كبيراً حين تستخر أجهزتها الاستخباراتية والأمنية من أجل عرقلة أو قمع كل محاولات لمساندة الشعب الفلسطيني في كفاحه. ففي المغرب، مثلاً، ومنذ أكثر من شهرين، أصبحت وزارة الداخلية لا تستحي من أن تسلّم منفاً مكتوباً لأي طرف تقدم إليها بطلب رخصة تنظيم تظاهرة من أجل دعم الكفاح الفلسطيني. وفي الأردن، صرح النظام أنه سوف يُدْعَى إلى الحاكم كل شخص يتظاهر من أجل القضية الفلسطينية. وفي مصر، تطورت لغة للهراوات بشكل خطير، حتى إننا بتنا نسمع عن حالات استشهاده. وكذلك الشنل في البحرين، وغيرها من البلدان العربية.

لكننا مع كل ذلك مدعوين إلى للتفكير جدياً في عمل يجعل هذه الاندفاعات وهذه الجاهزية الجماهيرية إلى نوع من الاستمرارية. تبني الوعي وتؤسس الذاكرة وتتحوّل إلى ضغط فعلي على الأنظمة. فانتظمتنا تتجاهلنا وتُخضع لأوامر أميركا وصندوق النقد الدولي، وهي أنظمة - بنوياً - مبنية ضد الأهداف القومية والوطنية والدينية للأمة، لكنّها ليست، في نهاية المطاف، مُؤَلَّفة للقدرة على المصمود والتحصن من آثار الجماهير. إضافة إلى ذلك فإن هذه الأنظمة في حاجة، ولو من باب التكتيك، إلى الاعتذار للسادة الأمريين بضغط الجماهير. نُذكر في السياق ذاته أنه في حوار في مجلة نيوزويك

السبعينيات، كنا نذهب إلى التجمّعات العامة المناصرة للقضية الفلسطينية من أجل تحقيق هدفين: أن نساند القضية الفلسطينية، وأن نناكف الإيديولوجيات المناوئة. وكنا ندخل في نوع من المزايدات والشعارات والشعارات المضادة مثل القول إن «فلسطين إسلامية» في مواجهة القول بأن «فلسطين عربية». وأحياناً تقع مشادات بالأيدي. وأحياناً أخرى يخرج طرف سعيداً لجره، أنه أفضل للطرف الأخر نشاطه عن القضية الفلسطينية؛ لقد كانت، بحق، فترة أُنسم فيها اللاهويون السياسيون والجززيون بنوع من الطفولة والمراهقة السياسية. ونعتقد أن الحركة الإسلامية لم تكن في هذا الأمر بَشْطاً في الشارع السياسي العام في المغرب.

أما اليوم فهناك قناعة بأنّ حداً أدنى من الضغط والتجرد للقضية يدفع إلى الاهتمام بها بعيداً عن اللافتات والألوان وهذا التحول الذي طرأ على الحركة الإسلامية يكاد يطول معظم الأحزاب السياسية المغربية الأخرى. وكبر دليل على ذلك تولّينا في المغرب على لجنة للتنسيق تتعدّد دولاً لمساندة الكفاح الفلسطيني. وهي تتميز بكثير من التجرد والإخلاص والذويان في القضية القومية، وتُشَرّص على ألا ترفع لافتات وشعارات وعناوين تسمي هذا أو تسمي ذاك. وياتي كل المشاكل تُحلّ عن طريق توجيه الشعارات واللافتات، والحرص على أن تكون مميّزة عن مواقف من القضية لا عن الجهة التي تُبرّر هذا الموقف ويبيح الإشكال الأساس الذي يُعترض لجنة التنسيق أثناء تنظيمها للمسيرات الاحتجاجية هو الوجهة أو الصنف الأول من المسيرة، وهنا لا بد أن تتراص كل الأطراف، فيقع نوع من تبادل المواقف ونوع من الإرضاء والتمثيل الرمزي. ومن نقاضات لجنة التنسيق في أجواء ملائمة فهي مسيرة الرباط الأخيرة كان جميعاً قد التزمنا، نظراً، بكل مقترحات لجنة التنظيم. غير أنه أثناء التطبيق في الشارع الذي يروج باللاين، يأتي الشباب الأغرا أو اللنسون والمفرسون، ويأتي من تتبسمهم روح تسمى بـ «السيكولوجية الجماعية»، فتقع بعض الروحانات والصبيانيات، إلا أنّها تبقى محدودة.



إذا استلطنا محاصرة انظمتنا بعمل ممنهج أحدنا تغييراً جزئياً في خياراتها

علناً وبدون استحياء في اليوم مختبئة في جحورها، بفعل جنوة الانتفاضة التي تقوَّرت في وجوههم وأبطلت دعاويهم.

لكن الوعي الاستراتيجي بقضية فلسطين غائب عند الكثير من الأحزاب والقطاعات والجمعيات، للأسف. وكثير من هذه الجهات تعيش حالات من الانانية الذاتية والانتكاسة والانغلاق على الشأن المحلي والوطني. وقد ينضف إلى ذلك الجهات التي تهدف إلى الركوب على القضية الفلسطينية بغية الوصول إلى تحقيق شعبية جماهيرية أو تسجيل مقوِّر أو استعراض عضلات. وأما الجهات التي لها رؤية قومية أو دينية مركزية، فعماني افتقاراً إلى الأدوات المعرفية الناضجة، وإلى الليات الحداثة بمنعها التقني. كما تشكو من غياب للتنسيق في ما بينها، في حين يَحْتَاج النضال من أجل القضايا القومية الكبرى، مثل قضية فلسطين، إلى تنسيق واسع وعميق. فنحن لا نقاتل إسرائيل وحدها، ولا نقاتل أميركا بمفردها، وإنما نقاتل قوة دولية تُشود العالم وتُحكمه بالتكنولوجيا والعمل الاستخباراتي الدولي والدراسات الاستراتيجية والمستقبلية، وتُحكمه بالحديد وبالنار وبالإسالة النووية وبالمؤسسات المالية الخطيرة

لذلك فإن الرهان الأكبر في هذا المجال يبقى على الجاليات العربية والإسلامية القاطنة في دول الغرب، والتي بدأت - من خلال تكتلها في المعاهد والراكز والجمعيات - تقديم علاقات تسقيفية مع الجهات الحقيقية والمتاخلة للمستقلة والجربية. ونستطيع أن نذكر، على سبيل المثال لا الحصر، المركز الإسلامي في ستراسبور، الذي عَقَدَ شراكات واسعة مع جهات أوروبية ويحل في حوارات مسيحية وإسلامية وحوارات فرنسية - مغربية. ونذكر كذلك منظمة MASS لمنظمة CAIR بالولايات المتحدة الأميركية، وهما منتظمتان تعلمان دوراً حيوياً في مجال التواصل مع الشعب الأخرى. ومن شأن هذه التكتلات وغيرها أن تُشهم في التأثير في الرأي العام الغربي، وأن تعمل على إخراج القضية الفلسطينية إلى بعدما الإنساني. ولا بد من التفكير في البعد المسيحي

سالت المحاور الأميركية الرئيس مبارك عن أسباب عدم تمكنه من الضغط على ياسر عرفات للاستجابة لاقتراحات باراك وبسوط كليفتون في مباحثات كلمب ديفيد، فريد مقولةً استقلالية الرئيس عرفات في اتخاذ القرارات التي يراها في مصلحة وطنه، وأن مصر لا تملك مفاتيح الرئيس الفلسطيني، ثم عاد ليبرز عدم خطه على عرفات بفورة الشارع المصري وموقف الجماهير السلمي من كل ضغط قد تمارسه الإدارة المصرية على القيادة الفلسطينية في اتجاه القبول بالشروط الإسرائيلية - الأميركية. لذلك فإن الجماهير هي العمق الاستراتيجي الذي يُبقي أن ترتد إليه الأنظمة العربية للممارسة الممانعة تجاه إكراهات الرأهن، وأظهرها إكراهات العدو الصهيوني والطرسة الأميركية. فإذا استلطنا محاصرة انظمتنا بعمل ممنهج ومنظم يستعصي على الإذابة ويصمد في وجه القمع ووسائل التفتيت والإغراء وشراء الذمم، فبإمكاننا أن نصل إلى نتائج يُمكننا أن نُحدث تغييراً ولو جزئياً في خيارات هذه الأنظمة وتجعلها، من ثم، أمام ضغط من جانبين، جانب داخلي مؤثر يمثل في قوة الشارع، وجانب خارجي ممثلاً في المؤسسات الدولية والإدارة الأميركية. وهو ما يضطره أذاك في لقل تقدير - إلى انتهاز سياسة المناورة مع تعاطيها مع القوتين الضالعتين. ونعتقد أن قضايانا القومية، مثل قضية فلسطين، يُمكننا أن تلعب دوراً كبيراً في بلورة الوعي بأهمية الشارع العربي وبعده المركزي في صياغة القرار السياسي العام للأمة، بل وللغرب الواحد. فتحة تعالَى بنوري بين القضايا القومية والقضايا الوطنية في المغرب، على سبيل التمثيل لا غير. أثبتت الدراسات العلمية وجود مخاطر كبيرة من الاختراق الصهيوني، سياسياً واقتصادياً ومصبياً. والذي استطاع أن يُلغى الانتباه إلى هذه المخاطر وأن يجد منها قليلاً في الانتفاضة، ولعلنا بحثُ عناجرتنا بالمطالبة بإغلاق مكتب الاتصال الإسرائيلي بالمغرب، لكن الذي أُلغى هو الانتفاضة. والرؤوس التي خرجت تساند، باسم السلام وثقافة السلام، الصهيونية المالية

## المغرب (٢): الشارح العربي - بوادرُ تخلُّق الرأي العام

عاطفيَّةً وانفعاليَّةً، أي قدرته على الصراخ في وجه الظلم والظالمين. وفي مستوى آخر لا بدَّ لهذه الجماهير، مع مرور الوقت، من أن تنضب بشكلٍ أليّ، بفعل عمليَّة تربية بطيئة وعميقة.

ومع ذلك قد لا يكون مضرّاً بالمصلحة والمقصد أن تغفل الجماهيرُ مثلاً: «سنزعي إسرائيل إلى البحر»، لأنَّ هذا النوع من الخطاب لا يعبرُ عن رغبة وإحبة ومؤسَّسة تتحوَّل إلى فعلٍ مخطَّط له ينتهي إلى الإصرار عليه، خاصةً بالنسبة إلى الشعوب الإسلاميَّة التي تعاملت مع الصليبيِّين والاستعمار. هذا الصراخ يعبرُ عن حالة غضب، ويعبرُ عن مضمون غير المضمون اللساني للجملة، اللهم إلا إذا التقلَّصت الصهيونيَّة ويكَّته بنوع من «التقلَّص» الذي يهزُّ نوازغ الخوف ممَّا يسمي بـ «النارِية الجديدة».

ورغم أننا ننتمي إلى التيار الإسلامي، ونؤمن بالكثير من مقولاته، وبعضها عاطفي، فإنَّنا انزعجنا كثيراً من الشعارات التي رُفعت في المسيرات التي عرفها الغربُ وقادها عربٌ ومسلمون. فثمة شعارات قد تُقِلُّ داخل العالم الإسلامي إلا أنَّها تظل مخيفة في بلد كفرنسا يحكمه اللوبي الصهيوني. وقد بيَّنا ذلك بعد مسيرة ستراسبورغ في مارس ٢٠٠٢. كما أنَّنا لا جدوى من إطلاق شعارات باللفَّة العربيَّة في مجتمع يُهدِّد إلى إبطال أصواتنا إليه.

وجملة الشعارات التي تُطْلَقها في مسيراتنا، وبخاصة في الغرب، قد تستفيد منها الاستخبارات الصهيونيَّة. ففي فرنسا ينتهج شارون سياسةً معقَّبةً عن طريق سفارته في باريس، يُهدِّد من خلالها إلى بدِّ الربح في نفوس اليهود الفرنسيِّين الذين يريدون من سبعمائة ألف نسمة، ولك من خلال إيهامهم بأنهم في خطر لكي يتمكن من تهجيرهم إلى وإسرائيل. ولهذا فإنَّ الشعارات لا بدَّ أن تأخذ بعين الاعتبار هذا الأمر، خاصةً عندما تُصدَّر عن الساسة في أعلى الهرم. فنكَّر في سنة ١٩٦٦، عندما سُئل عبد الناصر، ماذا ستفعلون بإسرائيل إذا ما انبثقت الحربُ بينكم وكان الانتصار حليفكم؟ أنه أجاب قائلاً: «سنزيعهم في البحر». هذه العبارة

للقصيَّة. فهناك مقدَّسات مسيحيَّة يُعدُّى عليها من جهة العدو الصهيوني، ويُهدِّد إلى تهويدها أو طمس معالمها. ولم تؤخَّر قواتُ شارون لا مدينةً الناصرة برمزيَّتها عند المسيحيِّين وارتباطها بالمسيح عليه السلام، ولا بيت لحم، ولا كنيسة المهد. والحاصل أنَّ المسيحيِّين، عالمياً، هم، قوة ديمغرافية عملاقة، واهتمامهم بالقضيَّة الفلسطينيَّة - من زاوية الاهتمام العاطفيِّ والدينيِّ - يمكنه أن يلعب دوراً في عملة القضيَّة الفلسطينيَّة بالمعنى الإيجابيِّ للكلمة.

**قراءة في سيمياء الشعارات في الشارع العربيِّ والغربيِّ**  
يبدِّع النقاشُ في موضوع عقلنة الرأي العام العربيِّ ومأسسته، إلى الغوض في مسألة الشعارات التي يتبنَّاها الشارُّع العربيُّ أثناء تظاهره لفائدة القضيَّة الفلسطينيَّة. وقد قيل عن الشعارات التي حملها المتظاهرون في المسيرات العربيَّة، ومنها مسيرة الرباط إنَّها كانت راديكاليَّةً وغير عقلانيَّة وبعيدة عن الواقعيَّة السياسيَّة وغارقة في التزوعات الرومانسيَّة. والحقيقة أنَّ ثمة علاقة جديَّة بين طرفيِّ الطرف الأوَّل هو لفة البواش الداذية، التي هي المفتاح الحقيقي لتحرير الإنسان. والطرف الثاني هو عقلنة الإطَّار والمقصد الذي تهدف إليه. والحكمة أن نجد نوعاً من التوليفة الناجحة بين الطرفين. فالجماهير تتحرك في المظاهرات كحالة عاطفيَّة، وتُحْمَلُ الشعارات التي تعبِّر عن هذه الحالة، ومن ثمَّ لا يُمكن أن تتحوَّل هذه المظاهرات أو تلك الشعارات إلى حالة رياضيَّة وعقلانيَّة مجردة لكن، من جهة أخرى، هناك إطار معيَّن وموضوعي يجب أن تصبَّ فيه حركتُنا من أجل تحقيق أهدافها. وإلقاء الطرف الأوَّل باسم الطرف الثاني لا يُحدث التظاهرة أصلاً. وإلقاء الثاني باسم الأوَّل يُطْعِمها تُخْرَج إلى مقصود غير مقصدها. فالولجب على القادة المؤرَّخين أن يخلِّصوا بيد الشعوب بطريقة نكيَّة وينوع من التربيَّة للتدرُّج والعميقة، للوصول بها إلى مستويات من الانتظام الذاتيِّ الداخليِّ الذي يرسِّسه الوعي والروية السليميَّة. بحيث لا يُقلِّد الإنسان حيواناً ووحوشه، عنده





السيرات تدعم الفلسطينيين وتسهم في دفع المصلحين وتحجبلهم

من العنصرية عند اليهود واحتقار الآخرين وتجويز الإضرام بهم. أمّا الفرق بين الصهيونيّ اليهوديّ والصهيونيّ العثمانيّ فهو فرق في المعتقدات التي لا تتجاوز القلب والعقل. إن الفرق بين هرتزل وبين غوريون وعازرا وإيمان الذين كانوا يوظفون المعتقدات اليهوديّة بنوع من الانتهازية لجذب يهود العالم، وبين اليهوديّ البينيّ التطرف مثل مناحيم بيغن وإسحق شامير وأرييل شارون، هو فرق في الاعتقاد الروحيّ والفكريّ ولا علاقة له بالواقع العمليّ. ولهذا لا يعيننا أن يكون الذي كاد للفلسطين ويثر لها مثل هذه المسألة علمانيّ كهرتزل، أو خرافيّ كشاريون. فالنتيجة عندنا واحدة.

وأما شعار ربط الصهيونيّة بالنازية، فهو يتغيّأ النقر على البعد الأخلاقيّ الذي يُشكّنه أن يصرّح الضمير الغربيّ. ولأنّ اليهود احسنوا لابتزاز الضمير الغربيّ تجاه اليهوديكويست، فإنّ هذا الضمير بات حساساً ضدّ النازية. لهذا علينا أن ننشأ إلى الله من باب الاستنتاج المنطقيّ والرياضيّ أن يكون موقفه من شارون كموقفه من هتلر. وإذا كان هذا الضمير يتأزّم باستمرار ويصنّ بعقدته تجاه ما اقترفه هتلر ضدّ الإنسانية، فإنّه مطالب اليوم بأن يراوده الإحساس نفسه تجاه ما يقترفه شارون ضدّ الشعب الفلسطينيّ. كما أن ربط الصهيونيّة بالنازية ليس من باب الشعارات الأخلاقية، ولشأ يستند إلى معطيات تاريخيّة دقيقة أظهرت مدى التنسيق التاريخيّ بين النازية والصهيونيّة. بل إنّ أعداء الصهيونيّة كانوا عملاء للنازية. وقد اعتمد هتلر على جنرالات يهود في جيشه للقيام بأعمال ضدّ اليهود من أجل خدمة المسألة الصهيونيّة من خلال بثّ الرعب في يهود العالم كي يهاجروا إلى فلسطين وشطر لا يستهان به من اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين كانوا قد هاجروا تحت مظلة استغلال الصهيونيّة لأعمال النازية. وقد أترج الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه للصهيونيّة، النازية، ونهاية الفخاريخ وثائق قيمة في هذا الموضوع. كما أدرج جارودي وثائق في شكل مراسلات سرية بين مناحيم بيغن وعدد من رموز

العنفية التيقلها الإعلام الصهيونيّ ومطّلها وكثرها ونقّز بها الأومغة حتى وزّعها وابتزّ بها الضمير الأوروبيّ والغربيّ بطريقة انتهازية ماهرة رُعت بها شعارات جمع الأموال لدعم الصهيونيّة.

من بين الإشكالات التي طرحتها الشعارات التي رُكت في المظاهرات في العالمين العربيّ والإسلاميّ، درجة الخلط بين ما هو سياسيّ ودينيّ في التعامل مع المسألة الصهيونيّة. وفي هذه النقطة بالذات قد يقع لبس شديد. فإذا كنا نقصد بالديانة اليهوديّة تلك الديانة التي أوحى بها الله إلى موسى، والتي ضمّتْها في كتابه للوحي به إلى بني إسرائيل عن طريق التوراة، فلعلها لا علاقة للصهيونيّة بها، خصوصاً أن مؤسّسي الصهيونيّة كانوا كلهم ملاحدة ومتطرفين في الحادهم، وكانوا علمانيين وضدّ الديانة اليهوديّة - من هرتزل إلى بن غوريون، مرورا بعازرا وإيمان لكنّ إذا كان المقصود في تلك الشعارات الديانة اليهوديّة المرفقة، والتي تتضمن فكرة شعب الله المختار، وفكرة أرض الميعاد، وهيكل سليمان، وكلّ السمّيات التي تصادر الهوية الفلسطينيّة والهويّة العربيّة الإسلاميّة للفلسطين، وتلقي حقّ شعب في الوجود باسم مسيحيّ إيديولوجيّ خرافيّ، فلا شكّ أن هناك تراكبا بينسويّا والتحاماً قوياً يصعب معها الفصل بين اليهوديّة والصهيونيّة ويمكننا أن نستأنس في هذا المقام بآراء روجيه جارودي في كتاب الأساطير المؤسّسة للسياسة الإسرائيلية، وأراه إسرائيل شاحك في كتابه التمييز التاريخيّ اليهوديّ والديانة اليهوديّة: وطاة ثلاثة آلاف سنة في الكتاب الأول، قسمّ جارودي الأساطير الإسرائيليّة إلى أساطير دينيّة وأخرى سياسيّة، فدرس دراسة معصيّة الأضحية الدينيّة المولقة بشكل انتهازيّ من قبل الصهيونيّة أما شاحك فقد دخل في أعماق الخيال والعقليّة الأثروبولوجيّة والتاريخيّة للديانة اليهوديّة، وبينّ التحالفات البيويّة والمنطقيّة التي تؤدي مباشرة من الاعتقاد اليهوديّ إلى الموقف الصهيونيّ. وقد غاص لتأكيد ذلك في الدوراة وتقسيمها وفي التعمود وتقسيمه وفي الميثانج (وهي الدويّة الفقهيّة اليهوديّة)، وأخرج منها إشكالاتاً

## المغرب (٢): الشارع العربي - بوادرُ تحلُّقِ الرأي العام

رموز الثقافة الشعبية التي تعطي صورة نمطية *image de marque* لأميركا. فمن عندما ندعو إلى مقاطعتها في شعارات المسيرات التي ننظمها فإننا نهدف إلى كسر العنجهية الأميركية، وإضعاف نفوذها على الجماهير وتحريرها من الاستلاب الثقافي الأميركي. أما المقاطعة تريبوي، فإنها تتمثل في تربية الشعوب على التقليل من الاستهلاك والتقليل من الإقبال على المنتجات الغربية حتى ولو كانت رديئة فالماك دونالدز في أميركا هو زبالة للمتوجات الأميركية، إلا أنها تحوالت عندما إلى مظهر من مظاهر الرقي الاجتماعي ولكن عملية المقاطعة، عملية تقنية وتخطيطية. وعلى الجهات المعنية أن تخطط بالتدرج بعملية المقاطعة، كان توجه في كل مرحلة بياناً تنظيمياً يسمي هذا المقترح أو ذلك، على أن يؤخذ في الاعتبار أن جزءاً من اقتصادياتنا الوطنية مرتبط ارتباطاً عضوياً بالاقتصاد الأميركي. ولكن المهم هو أن نخلق الآن على المبدأ وأن نؤسس له ونشترك الجماهير في حلقات تلميرية. والأساس من كل هذا هو أن تنخرس الألسن التي تشكك في هذه المقاطعة بدعوى غيرتها على الاقتصاد الوطني. ونذكر في هذا الصدد أن إحدى الصحف الاقتصادية الفرنسية في المغرب تخرج علينا بمناشيت عريض: «لنقاطح الدولار الأميركي». غير أننا أثناء قراءتنا للموضوع نجد أنه يشير مسألة لاجدوى مقاطعة البضائع الأميركية. لذلك فهي تدعونا باستهزاء وسخرية إلى مقاطعة الدولار، لأنها تعلم أن امر مقاطعة الدولار من اختصاص وزارة المالية ومكتب الصرف وبنيك المغرب - وهذه مؤسسات لن تجرد على مجرد التلويح بمقاطعة الدولار

الرياء

المقرئ أبو زيد الإبريسي

استاذ جامعي ونائب برلاني عضو الأمانة العامة لحزب العدالة والتنمية، وهو الحزب الإسلامي المرشح له في المغرب. من مؤلفاته: في المسألة النقدية لحكومة التناوب، وفلسطين وحصراع الإرادات

الصهيونية الذين كانوا يرأسلون هتف سرّاً ويكرهونه باضطهاد فئات محدودة من الشيوخ والأطفال اليهود، وذلك من أجل استثمار ذلك إعلامياً لتخويف الشباب الاقوياء البنية كي يهاجروا إلى فلسطين. غير أن ما يجب تجاوزه في شعاراتنا هو شخصنة الإرهاب والتأزير في شخص شارون، حتى لا نمسك في فخ التيسيرية. فشارون ليس بشيء، بل هو يمثل ظاهرة الصهيونية، وإذا لا يُمكن عزله عنها. ولا يُمكن الحديث عن الحركة الصهيونية كحركة عبوانية وككيان إرهابي في شخص يمكن تحييده لتقليل الرأي العام من أجل لمة القضية وخداع الجماهير.

يبقى في نهاية هذا التحليل الحديث من شعار المقاطعة كمطلب للشارع العربي والإسلامي. فرغم الأصوات التي تملو هنا وهناك لإظهار لاجدوى مقاطعة أميركا تجارياً واقتصادياً مادامت البنيات الاقتصادية والتجارية للدول العربية مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالاقتصاد والتجارة الأميركية، فإن ما يعيب عن ذهن أصحاب هذا الاتجاه الواقعي والبراغماتي أن القناة أو الفكرة السامية الهادفة لبناء أمة أو لتحقيق الأهداف القومية النبيلة لا يتحقق مجزئاً إن الوعي بمعركة المقاطعة، والوعي بوسائل المقاطعة أداة استراتيجية، يحتاجان إلى عملية بناء مستمرة ودائمة.

المقاطعة فعل مادي وفعل رمزي وفعل تريبوي. أما المقاطعة فعلاً مادياً، فلأن اقتصاد الدولة - مهما كان عمالاً، كالالاقتصاد الأميركي - يتضرر ويهتز ويعيد حساباته، خصوصاً وأن الإنتاج الأميركي من الضخامة بحيث لا يُمكنه أن يستمر إلا اعتماداً على جل أسواق العالم. وإذا ما تحرك في الشعوب العربية حس مقاطعة البضائع الأميركية، وحقق ولو واحداً في الملة من النجاح، فإن ذلك سيُعدّ كشيء عظيم للشارع العربي، من شأنه أن يُزعج أميركا أكثر مما تفعل البيانات الرسمية العربية للجوء. وأما المقاطعة فعلاً رمزياً، فلأنها ترمز الرموز الثقافية لأميركا، مثل الماك دونالدز والماربور وكوكاكولا وهواي ودي وغيرها، وهي بالتحديد

## سان فرانسيسكو وواشنطن: حركة التضامن مع الشعب الفلسطيني في أميركا - نقد الشعارات والتكتيكات

□ ناصر البرغوثي

### تقديم: انكسار التابو

ما زالت فلسطين موضوعاً غير شعبي في أميركا. ولكن كلمة «فلسطين» دخلت على الأقل في معجم حركة السلام في الولايات المتحدة، بعد عقود من الكفاح المرير. فطوال الستينيات والسبعينيات والثمانينيات والتسعينيات كان مجرد ذكر هذه الكلمة يثير سجالات لا تنتهي داخل اليسار على الأخص، ودخل حركة السلام بوجه عام. وكانت شعارات بسيطة من قبيل «الحرية لفلسطين» تُعتبر جذرية جداً وغير ملائمة بالنسبة إلى التيار السائد في حركة السلام داخل الولايات المتحدة، مع أن هذه الحركة سبق أن دعت شعارات جذرية جداً في ما يخص نضالات شعوب أخرى: من جنوبي إفريقيا، إلى نيكاراغوا وفيتنام، مروراً بتيهيمو الشرقية وكوبا.

غير أن التابو (الحرم) الذي منَع شعار «الحرية لفلسطين» إلى محض «نعم للسلام في الشرق الأوسط» انكسر أخيراً هذا العام. ففي المظاهرات من التظاهرات الضخمة في طول البلاد وعرضها باتت الشعارات والهافات، التي كانت ذات يوم متطرفة، شائعة جداً. وهذه المقالة ستحلل الشعارات، والتكتيكات، وتكوين حركة التضامن مع فلسطين في الولايات المتحدة، كاشفة عن بعض الميوب وسواها القصور التي تعد من فصائل هذه الحركة ونجاحها. وسيستند هذا التحليل إلى مشاركات مباشرة في هذه الحركة، وإلى ملاحظاتي من قلب الحدث «الفلسطيني» في أميركا.

ما الذي يجعل دعم القضية الفلسطينية في التيار السائد في أميركا أمراً بهذه الصعوبة؟

يلبي القول إن حركة التضامن الأميركية مع الشعب الفلسطيني تعمل في أكثر البيئات عدائية. فلقد أُنشِج وضوح الشمس أن الولايات المتحدة - حكومة، وإعلاماً، بل وشعباً في غالبية - تقف

وحيدة في العالم في انحيازها المتطرف إلى الجناح اليميني المتطرف في إسرائيل. وما نُشِجه في الولايات المتحدة ليس فقط اصطفاً خلف التعويذة التقليدية الغائبة بوجود «واجب مقدس» يتمثل في حماية أمن إسرائيل، وإنما استرضاءً مخفلاً - وعلى جميع الصعد - لأربيل شارون وحكومته الفاشية. صحيح أن ثمة تفرقات إيجابية قد حصلت، مثل تظاهرة يوش بكلمة «فلسطين» أو نشر بعض التحليلات المستنارة عن الموضوع؛ ولكن الولايات المتحدة تبقى، في نهاية المطاف، مضارة إلى إسرائيل كما كانت منذ الأزل. فقد عمد اللوبي المؤيد لإسرائيل إلى اختطاف الكونغرس الأميركي رهينة بين يديه، الأمر الذي أدى إلى صدور أكبر عدد من القرارات المعادية للفلسطينيين والمغرب (9 قرارات متوالية حظيت بتأييد كل رجال الشيوخ ونواب الكونغرس تقريباً، مع استثناءات لاقتة). ولم تكن وسائل الإعلام الأميركية عن تضخم الاكاذيب الإسرائيلية في عقر دار المواطنين الأميركيين التمسرين أمام التلفزيونات، مخدعة صورة طافحة بالارهاب الفلسطيني، ولرد الإسرائيلي المبهر... صحيح أنه كانت ثمة استثناءات في صحف لوس أنجلوس تايمز ونيويورك تايمز وواشنطن بوست، لكن للحصيلة النهائية هي هي: تكثير من وسائل الإعلام الأميركية أشبه ببولدوز يدمر أي بنية تحتية صغيرة يمكن أن تحكي الرواية الفلسطينية للأميركيين. وقد أحاط الرئيس يوش نفسه بالأكبر الحكومات عداءاً للحرب في التاريخ المعاصر، بحيث بدت حكومة كلينتون نفسها «وسطياً نزيهاً». وإذا بالقوة الحاكمة، التي هي ثالث مكون من الإعلام والشرق التنفيذي والشرق التشريعي من السلطة، مطلقاً التنديد لإسرائيل. علاوة على ذلك فإن الخطاب السياسي في أميركا، خلافاً لما نجده في أوروبا حيث اتحادات العمال والحركات اليسارية والأحزاب الشيوعية قوية إلى حد ما وتستطيع من ثم أن تتحدى الأحزاب الحاكمة بقوة، أكثر خضوعاً لتحكم هذا الثلاث المهيمن. ولذلك ليس ثمة

## سان فرانسيسكو وواشنطن: حركة التضامن مع الشعب الفلسطيني في أميركا - نقد الشعارات والتكتيكات

والثبات، والحركة اليهودية التقدمية. وكانت التظاهرة لافتة في الآلاف للقليلة من للتظاهرين العرب الأميركيين ذابوا حقاً في مُصيفساء من عشرات الآلاف الأشخاص المتحدرين من عشرات الإثنيات التي تكوّن المجتمع الأمريكي. وكانت التظاهرة لافتة أيضاً في الياضات التي حملها المتظاهرون، وفي الهتافات التي أطلقوها (وهو ما سنتحدث عنه بالتفصيل لاحقاً).

أما واشنطن دي سي، وهي عاصمة القوة الأميركية وعاصمة الخداع الأميركي، فقد شهدت تظاهرة أكبر من التظاهرة الأولى، ضمت مئة ألف شخص، وتبثّ شعار «الحرية للفلسطين» شعاراً أساسياً، وكان الشعار الأساسي الآخر هو «غوليمو الديموقراطية» (في إشارة إلى ممارسات المتظاهرين لما يُسمّى عولمة اقتصاد العالم). هذه التظاهرة كانت الأولى في تاريخ حركة التضامن مع الشعب الفلسطيني في هذه البلاد، من حيث عددها، ومن حيث ربطها بين قضايا الكوكب وقضية فلسطين.

والحق أنّ شعارات التظاهرتين كلتيهما، بل وعشرات المظاهرات الأميركية الأخرى الأصغر حجماً، كانت متقدمة جداً من الناحية السياسية فقد ربطت بين الاحتلال الإسرائيلي من جهة، والمساعدات الأميركية لإسرائيل من جهة ثانية، والحرب الأميركية على «الإرهاب» من جهة ثالثة. ودانت الماسي الإنسانية التي سببها التدمير الإسرائيلي الهائل مستخدمًا الأسلحة الأميركية وغير الأميركية. وحدثت مواطن الانتهاز في الإعلام الأميركي. وأشارت إلى صعود الفاشية المُطرد في إسرائيل. ولكن أهم ما في هذه الشعارات صلاتها في دعم الشعب الفلسطيني. فهي لم تكن كشعارات التجسّعات من أجل «السلام في الشرق الأوسط»، بل كشعارات حركة تضامن مع فلسطين لأنها تطلب بإنهاء الاحتلال الإسرائيلي لكل الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، وتفكيك المستوطنات اليهودية، وبناء دولة فلسطينية حرة وقابلة للحياة. وهذا فارق نوعي مختلف عن الشعارات التي سبق أن تبنتها حركة السلام الأميركية التقليدية إزاء مسألة فلسطين.

مصدر معلومات الشعب الأميركي يُمكن أن يشكّل بدلاً حقيقياً للإعلام الرسمي السائد.

نتيجة لذلك كله، مازالت غالبية الناس في الولايات المتحدة يتأخّرون إلى حد كبير مع «مسألة» إسرائيل، من غير أن يتأخّروا بتعاطف شديد مع المسألة الحقيقية للشعب الفلسطيني. وهذا الواقع يُعَلّل من الصعوبة بمكان طرح شعارات جذرية في أي تجمع أو تظاهرة داخل التيار الأميركي السائد. وأنّ تسمية حركة ما بـ «الراдикаلية» فذلك في وسائل الإعلام الأميركية أسوأ من الحكم عليها بالموت، لأنّه سيُفهم تلقائياً أن يرفض الجمهور شعارات هذه الحركة وأن يُفضّض عنها، خلافاً لحال بعض الدول الأكثر ديموقراطية حيث وتصدّ المرو بـ «الراдикаلي» قد يكون انقياداً ولبناً chic بل قد يزيد من فتنة الحركة التي ينتمي إليها.

ولا بدّ هنا من تذكّر عامل مهمّ آخر، وهو أنّ دور المثقفين في الولايات المتحدة طفيف إلى حد كبير. وهذا يقود الخطاب السياسي إلى درجة عالية من الديمagogية التي تتحكم بها الأموال. وفي هذا المجال فإنّ اللوبي المؤيد لإسرائيل أكثر تجهزاً من حركة التضامن مع فلسطين، لأسباب كثيرة تاريخية ومالية ولوجيستية، وكلّها تقع خارج نطاق هذه المقالة.

### الشعارات الجديدة القديمة

ولكنّ على الرغم من هذه الصورة القائمة، شتة تفجّرات أساسية حصلت في ما يخص قضية فلسطين. فقد شهدت سان فرانسيسكو، عاصمة الراكياتية الأميركية، مظاهرة عارمة في ٢٠ نيسان (أبريل) سُحِرت بحوالي ٥٠ ألف شخص، وكان الشعار الرئيسي لهذه التظاهرة: «ألغوا الاحتلال الإسرائيلي: الحرية لفلسطين الآن» وخلف هذا الشعار سارت كلّ مشارب الحركة السلامية الأميركية تقريباً: من الكنائس، إلى اتحادات العمال والاتحادات المهنية، والحركة النسائية، وحركة حقوق المهاجرين، وحركة المثليين



الآن هو أن من يُباع هذه الشعارات اليوم أميركيون بيض

ملبئةً بخراء (بوش)، نأخذنا بذلك يمين كلمة Bush (اسم الرئيس) وBullshit (وهو الهراء، أو خراء؛ الشؤ بالمعنى الحرقي). وقد وجدت هذه الإشارة دقيقة جداً في وصفها لما تغطيه وسائل الإعلام الأميركية، لأن ما تغطيه هو حقاً خراء؛ ألقف بوش؛ إشارة أخرى تقول: «اقتروا كُتُب إسرائيل شاحك» (وهو الكاتب الإسرائيلي) الراحل الذي فصّح الممارسات الإسرائيلية العنصرية، وجنوز العنصرية في الصهيونية، بل وفي اليهودية (يضاً). وعلقت مجموعة من الأفارقة الأميركيين إشارة كُتُب عليها، «خمسون عاماً تكفي، يا شارون. ذع اللاجئين الفلسطينيين يعودون إلى بيوتهم». وحمل عمال في قطاع الصنعة إشارة كُتُب عليها: «بلايين الدولارات لحاربة الإيدز، لا ليقيم الأثرياء الإسرائيلي!»

هذه الشعارات تَعكس فهماً سياسياً متقدماً لحقيقة الأوضاع في فلسطين، وهي شعارات كان صعباً جداً قبل خمس سنوات فقط أن نطرح إلى رقيبته اليوم. والأمر الدال هنا ليس أن مثل هذه الشعارات لم يُزعمها متظاهرون قبل عشر سنوات أو عشرين سنة، وإنما الدال هو أن مَن يُزعمها اليوم أميركيون بيض وإفارقة أميركيين ولاتينيون وثقاليون ومؤرخون وكُتّاب ومحامون وفلسفون. وبكلمات أخرى، لقد قبل التيار السائد في حركة السلام هذه الشعارات اليوم، كما تشهد على ذلك التظاهرات المذكورتان.

#### هل إسرائيل الصهيونية شبيهة بالمانيا النازية؟

كانت أكثر الشعارات إثارة للخلاف هي تلك التي ساوت بين الصهيونية والعنصرية أو النازية. إضافة إلى تلك التي ساوت بين نجمة داود والصليب النازي الملقب. بالنسبة إلى الفلسطينيين، المساواة بين الصهيونية والعنصرية لا تحتاج إلى برهان. وأما المساواة بين إسرائيل الصهيونية والنازية الألمانية فليست بذلك الواضح، ولكنها حادثة لدى قسم من الجالية العربية الأميركية ذلك أن عدداً كبيراً من العرب الأميركيين يشعرون أن إسرائيل

#### جولة على الشعارات والهتافات في سان فرانسيسكو

يقال إن ما هو شعبي في سان فرانسيسكو اليوم يُمثّل بما سيصير تياراً سائداً في الولايات المتحدة خلال أعوام. ولهذا لجد من المفيد أن أتَرس شعارات وتكوين هذه التظاهرة الضخمة التي انطلقت في ٢٠ نيسان، أسلاً أن يكون ذلك إشارة إلى حدود تغيير ما داخل حركة السلام في أمريكا.

إحدى الإشارات تقول: «هذا اليهودي يهاض التوسّع الصهيوني»، وضمها يهودي في منتصف العمر من سان فرانسيسكو. وقد أخبرني أنه يؤيد تفكيك كل المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية وغزة والقدس شعاراً آخر، حملته هذه المرة شابة إيرانية. يقول: «إيرانية يهودية تُدعم (قيام) دولة فلسطينية». شعار ثالث حملته ثلة من الشُّبوة الكهلانات اللواتي ينتمين إلى مجموعة كنسية مسيحية من مقاطعة سونوما يقول: «جذات بنادين بالسلام من خلال الموسيقى». شعار رابع يقول: «فلنسمع مخيم جنين هُتافاً». وهناك شعارٌ يهتف مجموعة من النساء للكهلات أيضاً يقول: «مطالقات لتقويض الإرهاب الإسرائيلي» (وشعارها بالإنكليزية: QUIT, أي، اتركوا!). وقد أخبرني ناطقة باسم هذه المجموعة أن هذه الأخيرة أرسلت بعثة إلى مخيم عابدة للاجئين الفلسطينيين، وأن ما رآه هذه البعثة هناك جعل عضوات المجموعة مصمعات على فضح إسرائيل في الولايات المتحدة وعلى دعم حركة المقاومة الفلسطينية. وكان هناك رسمٌ على شكل علامة «قف»، تقول: STOP BUSH (أي: قف يا بوش، أو أوقفوا بوش) وهناك إشارة كُتُب عليها: «العالم ليس خزاناً وتوحي»؛ وقد أخبرني رالعة هذه الإشارة أنها مقتنعة بأن الإفراط في استهلاك الطاقة في أمريكا هو أساس قمع الشعب الفلسطيني لأن الولايات المتحدة ستُفعل أي شيء لحماية وصول النفط إليها من الشرق الأوسط. أحد الرجال المهنيين كان يرتدي ثلة ويُحمل إشارة كُتُب عليها: «CNN IS FULL OF BUSHIT» (أي: سي أن أن

## سان فرانسيسكو وواشنطن: حركة التضامن مع الشعب

### الفلسطيني في أميركا - نقد الشعارات والتكتيكات

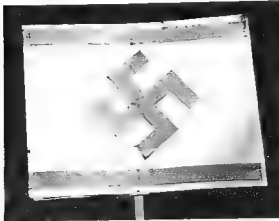
المشكلة في مساواة إسرائيل الصهيونية بالمانيا النازية هي أن هذه المساواة غير دقيقة من الناحية التاريخية. أولاً، وتنتشر قسماً كبيراً من حركة السلام في أميركا كان يُمكن أن يكون أكثر استعداداً في دعمه للفلسطين، ثانياً، إنها مساواة غير دقيقة تاريخياً لأن المانيا النازية أُنْكِتت الحرب على العالم واحتلت معظم أوروبا، فقتلت عشرات الملايين من بني البشر. ومن الواضح أن إسرائيل حتى الآن ليست قادرة على ارتكاب ٦١٪ مما فعله النازيون، ولا يبدو أنها في حاجة إلى ذلك. والحق أن هناك مقارنتين أدق بكثير، هما اللتان تشبهان إسرائيل بجنوبي أفريقيا زمن الأبارتايد، أو بصربيا أثناء حكم ميلوشيفيتش. إذ لا جدال في أن إسرائيل تستطيع أن ترتكب أعمالاً واسعة من أعمال التطهير العرقي بحق الفلسطينيين، وسبق أن قامت بذلك فعلاً. كما أنها طُبِّحت سلسلة من القوانين التي تتجاوز أكثر قوانين جنوبي إفريقيا الأبارتايدية عنصرية. هاتان المقارنتان بين إسرائيل من جهة، وجنوبي إفريقيا والعرب من جهة ثانية، فظيعتان بما يكفي لإدانة إسرائيل. والمبالغة في تصوير جرائم إسرائيل تُقلل في الواقع من هذه الجرائم لأنها تُنْطِش من مصداقية حركة التحرير الفلسطينية. وقد قال لي متظاهر إسرائيلي: صحيح أن إسرائيل تضع الفلسطينيين في معسكرات، وهذا أمر رهيب، لكن هذه ليست معسكرات إبادة كغرف الغاز النازية

#### حق العودة مايزال قائماً (حزماً)

شعار آخر أثار خلافاً شديداً ولم يُطَقْ حتى اليوم بتبني التنازل المساند في حركة السلام في أميركا، وهو حق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم. لقد طُرحَت وسائل الإعلام الأميركية هذا الشعار يبدو أشبه بوشوشات مضلّة، متجنّبة وجهة النظر الإسرائيلية القائلة بأنّ هذا الحق يؤدي إلى انتحار سياسي لإسرائيل، ومن دون أن تتوقف وسائل الإعلام تلك مرة لتسأل إن كان مقبولاً أن تُخرم دولة سكانها الأصليين من العودة إلى بيوتهم

تُرتكب جرائم تساوي في ضخامتها ما القرفه النازيون ضدّ اليهود. وهذا بالطبع يُشكّل إماناً عظيمةً للجالية اليهودية الأميركية، ومن ضمنها أكثر أفرادها تلقمياً. وقد أخبرني متظاهر فلسطيني، من رام الله أصلاً، أن هذا الشعار دقيق، ورائ أن نجمة داوود هي الرمز الذي اختارت إسرائيل لنفسها، وهو الشعار المرسوم على كل الدبابات الإسرائيلية وطائرات الأباتشي والد ف ١٦ وكل أسلحة الدمار الشامل الإسرائيلية. وأضاف أن التكتيكات التي يُطبّقها الجيش الإسرائيلي، كسطويع للذين الفلسطينيين والسعي إلى تجويعها وتدمير بناها التحتية، شبيهة جداً بالتكتيكات النازية تجاه بولندا وروسيا، ومن هنا مساواة هذه بترك حين سألته إن كان يُكره كل اليهود أجاب: «لا بالتأكيد. إذا غامرنا بلدنا فليس عندي أي شيء ضدّهم».

ومع ذلك فإنّ هذا الشعار الذي يجده كثير من العرب مقبولاً، إن لم يكن ضرورياً، إنما هو شعار يهين إلى حد ما قسماً كبيراً من حركة السلام في أميركا، وهي حركة كان الصراغ ضدّ اللاسامية بنداً أساسياً في أجندها على الدوام. أحد المتظاهرين الإسرائيليين اليساريين، وكان يُحمل إشارة كُتِبَ عليها: «أوقفوا البوغرمات ضدّ الشعب الفلسطيني» (والبوغرم تعميل على المجازر التي ارتكبتها قيصر روسيا ضدّ اليهود في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين)، أخبرني أنّه يجد استخدام نجمة داوود مهيناً جداً للشعاع لأنّها رمز ديني للشعب اليهودي. وقال إن مجرد استخدام حركة طالبان لاسم الله على عُلمهم لا يبرّر أن يُحمل متظاهراً معار لهم إشارة تساوي بين اسم الجلالة والشر أو القمع، لأنّ هذا سيكون بالتأكيد أمراً بالغ الإهانة للمسلمين. حين سألته عن الإشارة التي يُحملها قال إنّه لا يجد حرجاً من الاعتراف بأنّ إسرائيل تُرتكب جرائم حرب شبيهة في طبيعتها بالبوغرمات ضدّ اليهود في أوروبا



مسالاة نجمة داوود بالصليب المقلوب امانت لسيا كيبيرا من حركة السلام في اميركا

التغيير، لكي يكون فعّالاً، أن ينبثق من الولايات المتحدة، إلا إذا تمكنت حركة التحريض الفلسطينية من فرض عليها كاسر واقع. ولكن هذه الحركة اثبتت حتى الآن عجزاً عن القيام بذلك لأسباب ثلاثة رئيسية هي: الدعم الأميركي الشابت لإسرائيل، وتواطؤ النظام الرسمي العربي، وانعدام التوازن اتمداساً هائلاً بين إسرائيل والفلسطينيين من حيث القوة العسكرية. لذا، علينا أن نستنتج أن لا أمل لدينا إلى أن نغير موازين القوى، أي إلى أن نغير العوامل الثلاثة أعلاه، ولأنها الدعم الأميركي لإسرائيل. وعلى حركة التضامن مع فلسطين في أميركا أن تركّز على هذا الهدف: إضعاف الدعم لإسرائيل في كل المستويات. عندما فقط قد تفكر «القوة الحاكمة» في أميركا بالتضحية بإسرائيل، كما ستفكر في ضمت بشاه إيران، وماركوس، وبيونشيه، وغيرهم، والفروخيا الجنوبية، وقيامت الجنوبية، وغيرها. إن القوة الحاكمة في أميركا هي، قبل كل شيء، براغماتية وعملية. فهي لا تهتم أن تحارب معركة خاسرة. ولهذا علينا أن نجعل من دعم إسرائيل الأعلى معركة خاسرة.

على صعيد الوضع المحلي تشهد الولايات المتحدة انحرافاً خطيراً نحو اليمين، وقد ازداد هذا الانحراف في أعقاب أعمال ١١ أيلول (سبتمبر) الإرهابية. واليوم يهيمن على الخطاب السياسي في الولايات المتحدة الجناح اليميني في الحزب الجمهوري، الذي يسيطر عليه اليمين المسيحي والضيابط ذوو النزعة العسكرية. والحق أن غالبية الشعب الأميركي تؤيد الحلل العسكرية للمشاكل التي بين التاربع أن لا حل لها عسكرياً، مثل مشكلة الإرهاب. وهذا يؤكّد سلماً في قضية فلسطين، على مستوياتها ثلاثة:

- ١ - الشعب الأميركي اليوم يتفهم عظمى شاربون العسكرية. بل هو متجنب بها في سره، لأنها تحاكي عطية القيادة العسكرية الأميركية.
- ٢ - لقد تبني اليمين المسيحي مؤقلاً ايديولوجياً صهيونياً في ما

لأنها تريد أن تحافظ على طبيعتها الدينية اليهودية المحصورة والحق أن حركة التضامن مع فلسطين لم تنجح في شرح هذا الشعور للقسم الأعظم من حركة السلام في أميركا أو للجمهور الأميركي عامة. وقد يعود السبب في ذلك إلى أنه يناقض إيماناً راسخاً في أميركا، بل يكاد يكون إيماناً أعمى، بأن لإسرائيل الحق في الحفاظ على «طبيعتها اليهودية» فهذه هي، في النهاية، حقوى الصهيونية وجوهرها.

#### التكتيكات والاتجاهات

فصحت انتفاضة الأقصى نفاق الولايات المتحدة (وأنا لا أميّز هنا بين الحكومة والشعب، لأن النفاق يطبق عليهما معاً). ذلك أن قيم الحرية والديموقراطية، والمعادلة، ورفض الاضطهاد الديني والاثني، كلها يُفُسر بها عرض الحائط حين يتعلّق الأمر بفلسطين؛ وعلى العكس نجد تماهياً شديداً بين الحكومة والشعب الأميركي من جهة وإسرائيل بوصفها قوة كولوئالية استيعادية من جهة ثانية. وهذا النفاق المخزي أدى إلى بعض التغييرات المهمة. فلقد فهمت حركة السلام في أميركا أخيراً أن إسرائيل قوة استعمارية تهيمن على شعب آخر. وإذا قامت هذه الحركة بتبني معظم المطالب الأساسية لحركة التضامن مع فلسطين، وعلى رأسها: إنهاء الاحتلال، وقيام دولة فلسطين مستقلة عاصمتها القدس، وتعليق المساعدات الأميركية لإسرائيل إن لم يكن وقفها. وهذه كلها مكاسب ذات دلالة كبيرة، وعلينا أن نثقف بها قسماً.

قد يتساءل القارئ: ومن يهزم أمر حركة السلام في أميركا أصلاً؟ جوابي هو التالي: إن باستطاعة الحركات ذات القاعدة الشعبية في أميركا أن تؤدي إلى تغييرات سياسية. وقد فعلت ذلك فعلاً، ولأسماً في ما يتعلّق بسياسة أميركا الخارجية. كما هو الحال مع جنوبي أفريقيا وبعثتنام وأميركا اللاتينية. إننا نعيش في عالم أحادي القطب، تهيمن عليه أميركا بصورة متزايدة. ويبدو أن على

## سان فرانسيسكو وواشنطن: حركة التضامن مع الشعب الفلسطيني في أميركا - نقد الشعارات والتكتيكات

متجنبةً للموضوعات المثيرة أو التي يُستهل إساءة فهمها، فمثلًا هناك اليوم دعمٌ كبيرٌ لفكرة إنشاء دولة فلسطينية، ولكن ثمة غموضٌ حول طبيعة هذه الدولة. دورًا هو أن نزيل هذا الغموض وأن نحدد سمات هذه الدولة بطريقة تتوافق وتطامعات الشعب الفلسطيني. أمّا بالنسبة إلى هدفنا الآخر المتمثل بحق عودة اللاجئين الفلسطينيين، فهذا يحظى بتفهمٍ أقل بكثير، ولذلك لا نستطيع أن نجعل منه اختبارًا للسياسيين الأميركيين، ولكن بإمكاننا أن نبدا حملة تنقيحٍ حول هذا الحق (عبر الكتب وأفلام الوثائق والأفلام التي تروي أحداث النكبة)، والحال أن هناك منظمات عدة، بما فيها اللجنة العربية - الأميركية المناهضة للتمييز ADC والمعهد العربي - الأميركي، قد أطلقت بدايات حملةٍ تُهذف إلى تحقيق ذلك.

السياسات التقدمية، الاستراتيجية للربحية الأخرى هي أن نتوحد من أجل هزيمة قادة اليمين المسيحي. كثير من أعضاء حركة السلام في أميركا، بل ومن أعضاء الحزب الديمقراطي أيضًا، يُعتقدون أن اليمين المسيحي هو عدوهم رقم ١؛ وهذا قاسمٌ مشتركٌ بيننا. إن هزيمة أيٍّ عضوٍ في اليمين للمسيحي خطوةٌ في الاتجاه الصحيح. ولكن نتجح في ذلك، فإنّ على خطاب حركة التضامن مع فلسطين أن يكن أكثر انفتاحًا على الآخرين وأكثر تقدميةً حيال قضايا العدالة الاجتماعية وبحقوق العمال والحرريات المدنية داخل الولايات المتحدة. فلم يعد في وسعنا أن نبقي على الخطوط الجانبية، ثم نتوَّع أن يعصنا الآخرون!

التشديد على المصالح المستقلة للولايات المتحدة. هناك عدد كبير من الأميركيين الأحرار الذين يُروّجهم تحكُّم اللوبي المؤيّد لإسرائيل بالقرار السياسي في واشنطن (مع أن هذا اللوبي يمثل مصالح أقلية ضئيلة في ٧٢ فقط من للشعب). إن صورة ييمي ناتانياهو يليق ذراع الكونغرس الأميركي، لكي يُلوي هذا بدوره ذراع الرئيس بوش، لهي صورةٌ مُثيلةٌ ومهينة. فإذا فضّحتنا هذا الواقع بطريقة صحيحة، استطعنا أن نربيع أصواتنا أكثر إلى

بعض قضية الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، إلى حدٍّ أنه لم يترك مجالًا لأيّ خطاب آخر. وهذا الموقف يقول بوضوح إن اليهود هم الشعب المختار، وأنهم سكان فلسطين الأصليين، وإن تأسيسهم دولةً يهوديةً شرطٌ أساسيٌ لعودة المخلّص

٢ - أمّا الحزب الديمقراطي، الذي كان وما يزال أكثرًا تأييدًا لإسرائيل من الحزب الجمهوري، فيجد نفسه في موقع الدفاع، الذي يدفعه إلى إظهار ولائه لإسرائيل بأن يصبح ملكيًا أكثر من الملك (بوش) في هذا المجال.

نستنتج من هذا أن المؤسسة السياسية في الولايات المتحدة مؤيدةٌ لإسرائيل إلى حدٍّ مثيرٍ منه، وأنّ على أيّ تغيير أن يُعرض فرضًا على هذه المؤسسة من تحت أو من الخارج، لا من داخلها. وأقصد بـ من تحت: المنظمات والحملات ذات القاعدة الشعبية. وأمّا من الخارج، فيعني إيذاء المصالح الأميركية عبر العقوبات الاقتصادية من أجل إجبار المؤسسة السياسية المذكورة على أن تكون أكثر توازنًا.

في ما تبقى من هذه المقالة سألرسم مخططًا عامًا لما اعتقد أنه قد يكون استراتيجيةً مُربحةً لحركة التضامن مع فلسطين داخل الولايات المتحدة. ولهذه الاستراتيجية المقترحة عناوينٌ متعدّدة في التالية:

القوة الانتقائية. إن على رأس الاستراتيجيات الفعّالة بناء الجاليات العربية - الأميركية والسلمة - الأميركية (التي تقدر بـ ٦ ملايين شخص في أميركا اليوم) كتكتلة انتخابية. وأنا أؤمن بأن على حركة التضامن مع فلسطين في الولايات المتحدة أن تتوحد مع تحالفٍ واسع من القوى من أجل بناء حملةٍ تُهذف إلى إسقاط الأعضاء المؤيدين لإسرائيل داخل مجلس الشيوخ والكونغرس والطبقة السياسية الحاكمة. أمثال لاتنوس وبلاي وفانستين وغيرهم. وعلى هذه الحملة أن تخاطب الجمهور الأميركي وتُثبّت لهم أن أفعال هؤلاء السياسيين مُهمّةٌ بمصالح أميركا على المدى البعيد،





مسيرة صهيونية  
فرنسيسكو: عشرات  
الإنسياس ذابت في  
سيفساء من ٥٠ ألف  
متظاهر

نُتعت بالعداء للحركة اليهودية، ومن ثمّ بالعنصرية أو الأصولية أو ما شئتُم من نوع. فذلك سيُضبط أمرٌ أبل لدينا في إحداث تغيير شعبي في الولايات المتحدة.

إنّ الاعتراض الرئيسي على هذه الإستراتيجية هو أنّ اليهود التقدميين، رغم تقدّميتهم في كل القضايا، لا يُدعمون حتى الآن الحقوق السياسية والتاريخية للفلسطينيين، ومن ثمّ فهم لا يفتكّن يدفعون إلى تمييز هذه الحقوق، ويشير المعترضون إلى فترة الثمانينيات، حين أدّت تحالفات من هذا النوع في الولايات المتحدة إلى تبني شعارات غامضة مثل دعم السلام في الشرق الأوسط، وهو شعار لا يتصدى لصميم المشكلة، ألا وهي الحقوق التاريخية والسياسية للفلسطينيين. ومع أنني أتفق مع هؤلاء المعترضين، فإنني أجد تديلاً لدى قسم كبير من الجالية اليهودية التقدمية باتجاه تبني هذه الحقوق. وعلينا أن نواصل الإصرار على هذه الحقوق لأنها لم أبأ تعالقر عتيدي.

وختاماً نقول إنّ حركة التضامن مع فلسطين قد كسبت في هذا العالم زخماً هاماً، على نحو ما يدلّ حجم التظاهرات ونضج الشعارات التي رُفعت فيها. ولكنّ يبقى أمام هذه الحركة طريق طويلاً ووعراً من أجل مزمنة إيديولوجيا القوة الحاكمة في أميركا، وهي إيديولوجيا مهمة ومؤثرة لإسرائيل. ومن أجل تحقيق ذلك ينبغي على هذه الحركة أن تُشوّق التحالفات وأن تركز على الأهداف القابلة للتحقق.

سان ديفيو، كاليفورنيا

ناصر البرغوثي

ناشط منذ أعوام طويلة في حركة التضامن مع فلسطين في الولايات المتحدة، وعضو في فرع سان ديفيو للجنة الأميركيّة - العربيّة لمكافحة التمييز. يحمل شهادة دكتوراه في العلوم الحاسوبية من جامعة كولومبيا (نيويورك)، ويمك شركة البرامج الإلكترونيّة

جانبنا الواقع هو أنّ لا أحد، لا في أوروبا ولا في روسيا ولا في الصين، يملك النفوذ الذي يملكه الصفوّ الإسرائيليّون في الولايات المتحدة. ولا أحد، باستثناء الميسامين الإسرائيليين، يملك الجراءة على أن يتحدّث بمثل هذه الصفاقة في الأمور الداخلية للولايات المتحدة. فهم يعلمون أنّهم قادرين على ذلك بسبب هيمنة العقيدة المؤيدة لإسرائيل على الفئة الحاكمة في أميركا. وإذ ذلك فإنّ فضح هذه الهيمنة قد يُكسبنا أصدقاء جددًا كثيرين.

العصيان المدنيّ: تُختصر حركة التضامن مع فلسطين إلى التكتيكات الدراماتيكية التي تبنّيها حركات أخرى، مثل حركة مناهضة الحرب ضدّ فيتنام أو الحركة المعادية لنظام الفصل العنصريّ (الأبارتايد). فهذه الحركات استخدمت إستراتيجيات العصيان المدنيّ والتكتيكات الدراماتيكية، في حين أنّنا نلجأ بأنفسنا عن ذلك. وأعتقد جازماً أنّنا فعلنا ذلك لأننا إلى حدّ كبير محافظون في توجّهاتنا. فنحن لا نعرف كيف نُستعمل الحركات التي حصلنا عليها في أميركا وكيف نؤمّع الهوامش المتأخرة. علينا أن نعيد التفكير في هذه الأمور. وحقيقة الأمر أنّ هناك دلائل على بدايات تغيير كهذا في جامعة بيركلي في كاليفورنيا، حيث يُعمل الطلاب بكثّة على حملة لحسب الاستثمارات الأميركية من إسرائيل.

التحالف مع الجالية اليهودية التقدمية: لعلّ أكثر توصياتي عرضةً للخلاف هي ضرورة بناء تحالفٍ مرحليّ مع الحركة اليهودية التقدمية في الولايات المتحدة، وهي حركة يتّبنى اليوم معظم أوقادها أهدافنا الأساسيّة. إنّ الجالية اليهودية في أميركا جيّارة. ولكنّ لها أيضاً تاريخاً طويلاً من الاضطراب في القضايا التقدميّة. واعتقد أنّ كسب اليهود التقدميين إلى صفوفنا لا يمكن إلاّ أن يقوّي حركتنا وأن يعطينا أيضاً استشرافاً أبعد لكيفية حلّ المشكلة اليهودية بموازاة المشكلة الفلسطينية في فلسطين. إنّ أكبر خطرٍ يواجهنا، كحركة تضامن مع فلسطين في أميركا، هو أن

## قيامه الأنا. غناء الآخر

. أنا ترشحاني

إلى أبطال الانتفاضة

لطفولة أرلى

يُمَلِّمها لدى،

لطفولة

تَشْتَقُ ملحمة الوطن،

غنى لنا..

ورمى الكلام على اللهب.

غنى لنا..

واستل من حجر الفضى

حجراً تشرج بالفضب.

♦♦

هو في عبود المسجد الأقصى

ربيع منتظر

ودم لحنجرة الشموع.

هو أرجوان صليبا

ولذا.. تكذب ما يحيى به الردى

فَذَفَ الكلام على المطر

ومضى..

يُقلبُ موته

بين الشرور.

♦♦

مسكونة

بروائح الليمون،

والحب المقاتل،

واللظى.

مسكونة بندق النجوم.

صدري تجلي الأرض،

آن صلاتها.

فاسعوا إلى نوري الجريح

ما من سواي،

شهادة الماء المحيط.

ما من سواي،

دم بأعزله،

يقوم إلى

حديد الفاصين.

هي ذي سرايا الياسمين

وبلاغة الألم القديم.

هي ذي أنا..

وشراة الهجمي

تقصب آية الأحياء والموتى

وتجتث النجوم.

هي ذي أنا..

حرية تملو بقبضتها

وتجرح الفيوم.

♦♦

حين اعتلى

أقواس ثورته وذوئله،

ورأى الدم الحروق

يصهل في اغترابات النشيد،

بزغت كواكب في الحمى.

ركض الشهيد

إلى الشهيد..

فرس الكفاح على الجموع

واستل من بين الضلوع

قلبا بحجم القدس

نادى:

وا.. محمد.. وا.. يسوع.

حلب



## حوار مع محمد السרגيني

### ■ أيُّ خصوصيةً للقصيدة المغربية؟ ■

الشاعر محمد السرجيني واحد من المثقفين المغاربة الذين أسسوا لكتابة شعرية مغايرة في المغرب. فقد خاض برهقة ثلثة من الشعراء المجددين تجربة الحداثة الشعرية منذ أوائل الخمسينيات. ومنذ ذلك التاريخ وهو يعمل على تعميق تجربته الشعرية، حتى غدا اسمه الآن مقروناً بمنظور خاص للشعر. مكّنه مقامه بالعراق طلباً للعلم، وتردّده المستمر على باريس منذ وقت مبكر، وإتقانه للغة الفرنسية واللغة الإسبانية، من الاحتكاك المباشر بالتجارب الأولى للقصيدة العربية الحديثة، وباستكناهم لأهم التجارب الشعرية العالمية المعاصرة. وإذا أضفنا إلى هذا كله أنه يُعد من الأساتذة الأوائل في الجامعة المغربية، أدركنا أنه قد تجمعت في يديه أهم المؤهلات التي جعلت منه شاعراً متميزاً.

من الصعب أن يحيط حوار واحد بتجربة محمد السرجيني الإبداعية والثقافية في جلسة واحدة؛ فهو رجل متعدد الاهتمامات. صحيح أنه أخلص للشعر أكثر من غيره، ولكنه كتب الرواية واهتم بالنقد والترجمة والتراث أيضاً. إنه نموذج للمثقف الموسوعي الذي بدأنا ننتقده في العالم العربي.

أجرى الحوار: حسن مخافي

انت واحد ممن اتروا تأثيراً كبيراً في صياغة المشهد الثقافي والشعري المغربي والعربي، وهذا يعود بنا إلى البدايات الأولى لهذه القصيدة، وإلى الإسهامات التي قدمتها إبان تلك البدايات.

يُمكن الحديث عن هذه الفترة، التي ابتدأت في أواخر الأربعينيات واستمرت إلى أوائل الخمسينيات، بتأثيراً من ممارسة الكتابة الشعرية على الطريقة التي كانت سائدة في العالم العربي آنذاك. وهذه الطريقة الشعرية تأثرت بالشعر المجهري وأبي القاسم الشابي، وبييض شعراء مجلة **أبولو**، ذلك أن الذين كانوا يتجنبون الشعر من السابقين على ما قمت به كانوا جميعاً رومانسيين، وروافدهم لا تخرج من هذا النطاق الذي ذكرته. إلا أن بعضهم مثلاً بقدره التمثل أكثر من غيره.

لقد كانت هناك إرماصات قوية جداً تُذكر بأن أقول شمس الشعر العمودي قد دنا فتمت تهارباً مكرراً قام بها البير ابيب مثلاً، صاحب مجلة **الأليب اللبانتية**. يُضاف إليه مجموعة من الكتاب الذين لم يُغادروا المشرق، ولكنهم كانوا ذوي إحساس بجوهر التغيير، ولأسبغاً في لبنان الذي أصطل شعراؤه بالشعر **العربي** والشعر الفرنسي خاصة ثم جاء جبران وميخائيل نعيمة، ولكنّ منهما طريقة في التعبير، وكنا نعتبر أن القصي ما يُمكن أن يصل إليه المرء في التجديد هو ما وصل إليه هذان الأدباء اللبانتيان، ولكننا بعد ذلك اكتشفنا أن جبران لم يتكلم بغير البصيص عن الحقيقة التي عاش فيها، وخاصة إذا قارنا عمله بما كان يُشترط في الغرب، وهو الذي عاش في اميركا وفي فرنسا مدة طويلة، فقد كان ينبغي أن يُكتبه مثلاً إلى الحركة التكعيبية التي كانت منتشرة في باريس إن هذه الفترة، إذن، تضافر على التأثير فيها مجموعة من شعراء المهجر ولأسبغاً بروحهم الرومانسية الإنسانية التي بدت واضحة عند إيليا ابي ماضي، وذات صبغة تيولوجية عند نعيمة. إضافة إلى ذلك، لعب الشابي دوراً كبيراً في تطوير هذا الجيل، وكان مثلاً بما يقرأه من شعر غربي مترجم وخاصة لامرتن، وراح يصوغ ذلك في القالب الذي ظهر به ديوانه الغنائي **الحياة** لقد كان الشابي يقرأ المترجمات، ولعله قرأ الأسس التي قامت عليها الرومانسية الإنجليزية المتجذرة في كورنيلج وورنر، ولكنّ كتاباً مقدماً لديوان مشترك بينهما حدداً فيه الإطار العام للرومانسية. وهذا الإطار نجد ظلاله الكثيفة في كتاب الشابي عن **الخيال الشعري**. كذلك الأمر بالنسبة إلى شعراء **أبولو** فقد كانت روافد إنجليزية وألمانية وفرنسية تُرشد أعضائهم وقد وجدت بعد هذه الفترة أني أسير في ركاب مجموعة من الشعراء تأثرت بهم ولكن أعمالهم لا تنم عن كبير إبداع، فكانهم هم الآخرون متأثرين بغيرهم. ولذلك سنقول عليّ أن أطلع العلاقة بهم وبحث عن نفسي في إطار آخر. فكانت المرحلة الثانية، وهي المرحلة التي ابتدأت بنهاية إلى باريس

هناك عكست على قراءة الشعر الفرنسي المعاصر، ولأسبغاً الشعراء الذين كانت لهم ميولاً سريالية، والشعراء الذين كانت لهم ميولاً اشتراكية في قالب شيوعي، وشعراء الزنجية، ثم بعض الشعراء الذين كانوا يتجنبون شعراً ملتزماً إنسانياً. هذا بالإضافة إلى قراءتي للشعر العالمي المترجم إلى الفرنسية: فقد قرأت **أبولو** نيرودا مترجماً مثلاً. واكتشفت أنني كنت في المرحلة الأولى تأنيماً وأني الآن وجدت طريقي ومساب إلى فكرة الالتزام كانت طاعية، لا في العالم العربي وحده، ولكنّها انتشرت أول ما انتشرت في العالم العربي نفسه وهو التزام سارتر وماركسي أساساً. وهذه الفكرة التي طفت على الشعر جعلتني أنظر حوالي وأحاول أن أعبر عن الواقع بالطرق التي كانت مألوفة في ذلك الوقت وهذه الفترة يُمكن أن تُطلق عليها «الفترة الواقعية». ولذلك كانت قصائدي تتقنّى ببعض الأبطال الثوار، وتُلفتني القمع الذي يعانيه الإنسان في شتى مناطق العالم ومن ضمنها العالم العربي لكنّ سرعان ما توقفت قضية الالتزام، لأنّ الحرب الباردة التي كانت قائمة أخذت تُشجع ملامحها لتبدو الغلبة فيها على الجانب الذي كنا نعتقد أنه الجانب الذي سينتصر في هذا الوقت، ونظراً لأنّ بعض الشعراء الروس لم يُرضخوا لفكرة الالتزام بل بقوا مستعدين في أعمالهم رغم ما نالهم من تعسف، رأينا أن الشعر لا يُمكن أن يفتقر بهذه الصورة. فمن الممكن أن نُشعر بالملطف على شعب مقموع، ولكنّ بطريقك الخاصة، وهذه الطريقة هي التي يجب البحث عنها.

قسمت مسيرتك الشعرية إلى ثلاث مراحل. أود أن أقف معك عند المرحلة الأولى، لأنها المرحلة الأكثر ضبابية. ما هي الملامح الفنية التي استبقتها المسحة الرومانسية على قصيدتك في تلك الفترة؟

لا يُمكن أن  
يُفبرك الشعر  
على صورة  
الالتزام، كما يُراد  
لبعض الشعراء

اللامع التي يَلْقَى عندها الرومانسيون جميعاً كانت حاضرة في شعري آنذاك، والسيما، حضور المرأة، واعتبار الطبيعة في صحتها وفي غيبتها تعبيراً عن بؤس الإنسان أو سعادته. ثم حاولت النظر إلى الإنسان على أساس وجداني خالص، لا على أساس غيره، وككله الوحيد الذي يُشَيِّ. ومن حيث الشكل، فإن اللغة الرومانسية لها قاموس معين، لا خروج عنه. وهذا القاموس هو الذي كان وراء الفكرة الخاطلة التي أخذ بها النقد، وهي أن من اللغة ما هو شعري وما هو غير شعري.

يذهب أغلب الدارسين إلى أن الرومانسية قد رمت حجراً في بركة القصيدة العربية، وذلك من خلال مظهرين على الأقل: المظهر الأول يتجلى في اللغة التي اعتمدت قاموساً سهلاً قريباً من القاموس اليومي. والمظهر الثاني يتمثل في تكسيدها للثقوب الإيقاعية، كاعتبارها تعدد القافية وتعدد البحور في القصيدة الواحدة. هل يمكن اعتبار هذه المرحلة تمهيداً لمظهر القصيدة الحديثة؟

اعتقد ذلك، لأنه بمجرد أن يُخرج الإنسان عن قوالب جرى العمل بها قروناً طويلاً فإن ذلك يُعتبر نوعاً من محاولة الانعتاق من أسر ما كان سائداً. بالطبع هذه القضية تطورت، إذ يلاحظ أن الخطوات التي قطعها الشعر العربي الحديث والمعاصر آثاراً في الشعر المعاصر بالعرب. تأتي المدرسة الرومانسية وتقدم مفاهيم معينة تعيش لحظة معينة ثم تفسحل، وعلى انقاسها تقوم حركة أخرى.

فيما يخص تجربتك الشخصية في الإبداع الشعري، ماذا مفتحك التجربة الرومانسية؟

من حيث الشكل لم أتحسن شيئاً، لأنّ مُجمّعها محدث. ولكن من حيث المضمون تحسّنتي مبدأ مهماً جداً ما زال أؤمن به، وهو الإنسان. الإنسان ذو جوانب متعددة، ولم يستطع الشعراء أن يصلوا إلى هذه الجوانب إلا بعد أن فك إسهائه الإحساس الرومانسي. ذلك أن أهم جانب في الإنسان ليس محيطه الخارجي كذات فيزيائية، بل محيطه الداخلي كتجربة

من هم الشعراء المغاربة الذين قاموا معك هذه التجربة الرومانسية في تلك الفترة؟

ربما سنّ إلى هذا النوع من الكتابة الشعرية، ولكن بفهم متواضع، عبد الكريم بن ثابت وعبد المجيد بيجلول. وقد كانا ينشران شعرهما في النابز الشرقية. أما في الفترة التي كان الشعر الرومانسي يُشعر فيها في شمال المغرب، وخاصة في تطوان، فقد كان من مجالي محمد الصباغ. إن أن هناك فرقاً بيننا فهو كان يُكتب ما يُمكن أن يُسمى «قصيدة نثر» على طريقتي الخاصة، وأما أنا فقد كنت أكتب شعراً موزوناً عروضياً تتعدّد فيه القوافي، وفي بعض الأحيان تتعدّد البحور. وكانت قصيدتي، وهذا هو المهم من بدايتها إلى نهايتها، مؤسسة تأسيساً عضوياً كاملاً. ولذلك فإنها حتى لو قُسمت إلى فقرات فإن كل فقرة تؤدّي إلى الفقرة الموالية، وهكذا.

عند الحديث عن قصيدة التفعيلة بالمغرب نجد أن هناك شبه اتفاق بين النقاد على أن تلك القصيدة بدأت ملامحها وأضحت مع بداية الستينيات. هذا التاريخ يحيلنا على نوع من التأخر في ظهور هذا النمط الشعري في المغرب مقارنة بمثيله في المشرق (حوالي سنة ١٩٤٧)، لم تُرجع هذا التأخر؟

المسألة بسيطة. المغرب كان من حيث الثقافة العربية يعمل نمو المحافظة. ولذلك لا يُمكن في أي حال أن يتفكّل هذه الموجة الجديدة التي ظهرت في المشرق. إلا أنه يجب أن نلاحظ أن قصيدة التفعيلة، التي سبق في المشرق زميلتها بالمغرب، ما كانت لتظهر تبعاً لشعور دقيق بالحاجة إلى التغيير، بل ظهرت نتيجة للتقليد. فلو لم يكن السيّاب ذا علاقة بجبراً الذي نرس في إنجلترا، وكان متديباً بثقافتها، وهو الذي مكّن السيّاب من تكوين الشعر الغربي من خلال ما ترجمه، ما كان السيّاب ليصل إلى التدرّج التفعيلي. وأياً ذلك أن بداياته كانت عمودية. والشيء نفسه يُقال بالنسبة إلى البياتي. وفي العراق كانت مجموعة من الشعراء تكتب شعراً حديثاً ولكنه عمودي، مثل حسين مردان. فالتأثير الذي حدّد أساسه نزعة المحافظة هذه. لقد كان المغاربة محافظين، وكانوا أكثر إقبالاً في هذا الوقت بالذات على القصيدة العمودية. فالتأخر السوسي كان يُكتب قصيدة مُخلّعة لقوالب الشعر الجاهلي. كما أن الذين أخذوا يرون من قصيدة المهجريين أو قصيدة التفعيلة كانوا على علاقة بالشرق مثل الصباغ، الذي كانت تُزيّبه وشائج مع بعض الشعراء الذين درسوا في المشرق مثلي أنا ومثل أحمد الجاوي.

قصيدة التفعيلة  
ما كانت لتظهر  
تبعاً لشعور دقيق  
بالحاجة إلى  
التغيير، بل  
نتيجة للتقليد

إذا كانت نازك الملائكة والسيّاب يتنافسان على الأسبقية في اكتشاف القصيدة الحديثة، فإنّ في المغرب عدداً من الشعراء يُقَنّأون هذا المسبق أيضاً - ونذكر منهم السريغيني والمجاوي ومحمد الخمار الكوني. في رايك هل تمّ تبني النموذج التفعيلي من طرف هؤلاء الشعراء في وقت واحد، أم أنّ واحداً منهم نُظِمَ على الطريقة التفعيلية ثم تبعه الآخرون؟

بدايات المجاوي والخمار كانت عمودية. أمّا أنا فقد ابتدأتُ رومانسياً صحيح أنني كنتُ أحترم الوزن كما كان يُجرى به العمل في القصيدة العمودية. ولكنني كنتُ حريصاً على تنويع الغافية وأحياناً البحر في القصيدة الواحدة. والسبب في ذلك أنّ كلاً من الخمار والمجاوي ربما نشأ على حبّ القصيدة العمودية في أجلى وأنضر نماذجها، ولذلك تمسكوا بهذا السمت. ولكننا لا نلاحظ في ما كتباه من شعر عمودي تأثيراً مهيّجاً، ومعنى ذلك أنّهما كانا يَسْتَقْبِلان من القصيدة العمودية وحدها، على العكس مني. رغم أنني كنتُ على اتّصال بالتراث قراءة ودرسا. وهذا هو الفرق

هل يُعَنّ القول إنّ مقامك بالعراق لعب دوراً حاسماً في هذا السبق الشعري؟

بالطبع لعب دوراً حاسماً في ميولي نحو التحديث الشعري. فقد كنتُ طالباً في العراق حين كان النبائي حديث التخرُّج من دار المعلمين، والسيّاب حديث التخرُّج من دار المعلمين العالية. ويلند الحيدري في بداياته وكنتُ ألتصق بهؤلاء مرّة كل أسبوع في مقهى برازيليا. هذه الإقامة دامت من سنة ١٩٥٤ إلى سنة ١٩٥٩. ومن حسن حظي أنني شهدت في هذه الفترة صعود القصيدة التفعيلية بالعراق، وحضرت كل الممارك التي خاضها ووكّنها ضدّ التيار الآخر. كما حضرت تأسيس جماعة بغداد للفنّ التشكيلي الحديث، التي كان على رأسها جواد سليم وغيره. وكانت هذه الفترة من الفترات الزاهية في تاريخ العراق الثقافي المعاصر.

في هذه الفترة التي كنتُ تقم فيها بالعراق كان الشعرُ العراقيّ يعطى تياراً شعرياً جامعاً، وفي مقابله كان هناك تيار شعريّ آخر في لبنان تتزعمه حركة مجلة شعر. والناظر في شعرك يجد أنّك أقرب إلى حركة مجلة شعر منك إلى الشعراء العراقيّين.

هذا صحيح، لأنّ مرجعيّات مجلة شعر هي من المرجعيّات التي كنتُ أحبّها - وهي مرجعيّات فرنسيّة بصفة خاصّة - بينما مرجعيّات الحركة الشعريّة بالعراق كانت متراجحة لأنّ أغلب الذين أسسوها لهذه الحركة هم شيوعويّون ذوو روافد متنوّعة. ناظم حكمت وبابلو بيرودا وأراغون وغيرهم ويبدو لي أنّهم لم يهضموا بشكل دقيق جدّاً المصطلحات التي كانت وراء هذا الانجلاء، وإنّما أخذوا السطح الذي يتلقوا على الظاهرة، فتمجّسوا عن الطبقات المسحوقة وغيرها من الموضوعات دون أن يوفّقوا بينها وبين متطلّبات العمل الشعريّ.

هذا الاقتراب من حركة مجلة شعر يجعلنا ندخل في عمق تجربتك الشعريّة. فالانتدب للإنتاج الشعريّ الذي نشرته في مجموعات يلاحظ أنّ من بين المرجعيّات اللطافية على شعرك مرجعيّتين: الأولى مرجعيّة صوفيّة، والثانية مرجعيّة محليّة. من الناحية الأولى نلاحظ تركيزاً على المُجْمَع الصوفيّ، ومن الناحية الثّانية نلاحظ ذكراً لمجموعة كبيرة من أسماء الأئمة التي تتعلّق بمدينة فاس. كيف وفقت بين المحليّة وبين الصوفيّة التي هي في العمق تجرّبة إنسانيّة؟

قضيّة التشرّب بالتصوّف في الشعر قضيّة أصبحت تُشبه تمجّس عثمان. كل شاعر يمثي توظيفها، ويَسعى إلى ذلك. لكنّ هناك مغالطة كبيرة يتبّني أن توجّه وهي أنّه لا يمكن أن تترك مجموعة من المصطلحات الصوفيّة في شعرك من أجل أن يُقال عنك إنّك تسير في هذا الانجلاء فالمصطلح الصوفيّ له استعمال خاصّ جدّاً. فقبل ظهور الصوفيّة كانت كلمتا «القبض» والبسط تدلّان على شيئين محدّنين، وليس استعمال مثل هذه الكلمات يدلّ في ذاته على مرجعيّة صوفيّة. الذي يهمّ في القضيّة هو هل المرء تشرّب بالتصوّف بصفة عامّة؟ أيّ هل عرف القصد الذي يرمي إليه، وهو محاولة استكناه الباطن الإنسانيّ إذا تشرّب المرء هذا العمل فمن الممكن أن يُقال عنه أنّه يَسْتَحْضِر التصوّف في شعره. وإنّ فرامبو نعب إلى إفريقيا من أجل الصوفيّة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى غوته الذي تأثّر بها عندما كتب

للمصطلح  
الصوفيّ استعمال  
خاصّ جداً، ولا  
يكفي أن تردّد في  
شعرك ليقال عنه  
إنّه صوفي

**البصيرة الشعرية،** ويروون ذكر أن طريقته في الكتابة الشعرية مستوحاة من هرميس، وتُذكر بعض النصوص المسمّية في المصدر الوسطى ومعنى هذا أن توظيف التصرف أمر مشاع، لا يتميز به شاعر عن آخر المم هو كيف يتمثل الشاعر، وكيف يُقل على إقراغ هذه القضايا من حواتها الغيبية، ليضع فيها حمولة معاصرة، وهي التي استبّتها بالمحاوية .

في دواويك المتعددة بالاحظ أن هناك شعراً استثنائياً بالمقارنة مع ما يُنشر في الشرق، وهو شعر استثنائي في طريقة توزيع القصيدة على بياض الورقة، لأنه يوحي لأول وهلة أن الأمر يتعلق بقصيدة نشر، رغم أنه شعر موزون. وهو استثنائي أيضاً بذكر أسماء الأماكن بشكل مكثف. هل تكتب شعراً تحت هاجس البحث عن خصوصية النص الشعري المغربي؟

أود أن أقول أولاً إن هذا الهاجس مشروع، ويجب أن يكون هاجس جميع الشعراء المغاربة، ولا معنى لأن يركز المرء غيره، وأرى أن هذا الهاجس من شأنه أن يحرّك الحاسة الإداعية لدى الشاعر، وحين يتشكّن منها يصبح عفويّاً ثم إنني أعتقد أن المكان سحرّاً على المرء، أكثر فوّاً من سحر الزمان يُضاف إلى ذلك أن بعض الأمكنة ذات أسماء سحرية، فهي مركبة صوتياً من حروف جميلة «دوبركان» بالنسبة إليّ اسم جميل، فقد جتّع بين الباء والفاء والكاف، مع أن هذا الاسم بربري. الحي الذي يوجد بجانب الحي الذي وادّ فيه يُسمّى «شق بنجاجة» لا ترى أن هذا الاسم جميل؟ إنّه يتضمّن صورة سريالية رائعة، فكيف لا يستغلّها الإنسان؟ وهناك حي قريب من الحي نفسه يُقال عليه «دعقة الفزان». وما إلى ذلك من الأسماء، وهي كثيرة، لا في فاس فحسب، بل في المدن المغربية كلّها. وهو ما يدل على أن إحساس الشخص الذي وضّع هذه الأسماء أوّل مرّة كان سريالياً

هل استطاعت القصيدة المغربية الحديثة، بالمقاييس التي توجد عليها منذ الستينيات، أن تفرض نفسها كنموذج شعري مخالف للقصيدة العربية في إطار القصيدة المتميّزة داخل المشهد الشعري العربي؟

هذه القضية لا يُمكننا أن نتلوه بشكل جليّ إلا بعد أن نتّفي المركزية فالمرتكزة المهيمنة التي هي المركزية المصرية، وذلك شبيه بما حدّد بالنسبة إلى القصيدة الأميركية الجنوبية إزاء القصيدة الإسبانية الأميركية الجنوبية أشعوا شعراً غايّة في الجمال والروعة، ومع ذلك كانوا مقموعين من طرف المركزية الإسبانية، فلم يُستطيعوا الخلاص من هذه المركزية إلا بعد أن صار لهم كيان خاص. يجب علينا كمغاربة أن نتّهي من قضية الإحالة على الآخر، وأن نقول «نحن». وأنا أعتقد أن القصيدة المغربية، ابتداءً من الوقت الذي ظهرت فيه إلى الآن، قد اكتسبت خصوصياتها التي لا يناعها أحد فيها. وهذه الخصوصية تتمثّل أولاً في أنها تحيل على مراجع لها علاقة مباشرة بتاريخ البلد. وهي ثانياً تستخدم توناندا لغويّة مستعلة هنا في المغرب، وبغير مستعلة هناك في المشرق والأهم من كل ذلك أن المغاربة كانوا سائقين إلى قراء الشعر العالمي في لغات الأصلية، وهذا هو الذي جعل هذه التجربة مخترعة وقوية، وربما أكثر صدقاً وأقلّ انتمالاً ممّا نقرأه من شعر آخر وهذا لا يتعلق فقط بقصيدة التفعيلة، بل نعهده أيضاً في قصيدة النثر. إننا نقرأ لشعراء شباب قصائد غايّة في الإبداع.

دفاعاً المستميت عن القصيدة المغربية الحديثة يتكرّرنا بمفهوم القطيعة الذي يقول به الأستاذ محمد عابد الجابري، حين يؤكّد على خصوصية المدرسة المغربية والإنليسي في شئنا انماط النشاط الفكري. هل خصوصية القصيدة المغربية التي تقول بها هي اعتقاد لذلك الجدل القديم بين الشرق والغرب؟

من الصعب جداً أن نقول إن ذلك يمثل اعتقاداً، كذلك من الصعب أن نقول إن هناك قطيعة في هذا الباب. أستحضر مقولة ميشال فوكو وهي أن الثقافة الإنسانية هي سلسلة متواصلة الطلقات. وفي الشعر بالخصوص لا يُمكن أن تكون هناك قطيعة، لأننا نكتب جميعاً بلغة واحدة. وكل ما هنالك أننا نأخذ اللغة التي نكتب بها. وفي ما يتعلق بالشعر الانليسي خاصة، فإنّه كان من حيث الشغافيّة ومن حيث الروح أقوى من الشعر في الشرق، والسبب لاختلاف الطبيعة والمحيط. إذ لا ننسى أن الشعر الانليسي تأثر بالشعر الذي وجده في المنطقة، بينما الطبيعة في الشرق صحراوية. لكنّ تبغني الإشارة

■  
من خصوصيات  
القصيدة المغربية:  
إحالتها على  
مراجع ذات علاقة  
مباشرة بتاريخ  
البلاد، وتوليقاتها  
اللغوية

إلى أن الميراث الصحراوي للشعر العربي أعلى الشعراء المتأخرين قدرة على التخيل إلا أنه يجب أن نتصور، لكي تكون لنا طريقتنا الخاصة، أننا قد تجاوزنا تلك السن التي تجعلنا نبقى تابعين. لقد أصحنا في سن أخرى توكلنا لأن نصبح متبعين لا تابعين.

هل يعود هذا إلى تعثر انتشاز الشعر المغربي، أم يعود إلى أن الإبداع المغربي لم ينضج بعد لكي يصل إلى درجة تضاهي الإبداع الشرقي؟

لا يمكن أن نعتقد أن الإبداع في المغرب متأخر عن الإبداع في الشرق. فقد يوجد مبدعون متأخرون عن زملائهم هنا، وقد يوجد مبدعون متأخرون عن زملائهم هناك. إنما يجب أن نشير إلى أن طرق انتشاز الإبداع الشرقي ميسورة جداً، على حين أنها غير ميسورة في المغرب. ثم إن في الأمر معضلة كبيرة: ففي الشرق لا يمانون ازدواجاً لغوياً إذ إن معظم الناس يكتبون بلغة عربية حتى وإن كانت ثقافتهم إنجليزية أو فرنسية. أما نحن فنعاني عملية الازدواج - وهي مسألة جيدة من حيث القضي الفكرية، ولكنها في الوقت نفسه ذات تأثير سلبي في هذه القضية. ويترجع السبب في التقدم الحاصل في الخطابات التي اشترت إليها إلى ما ذكرته سابقاً، وهو أننا هنا نتصل مباشرة بالمرجع العربية وفي لغاتها الأصلية. ولكن هذا لا ينعكس أن كثيراً من الذين يمارسون هذه الخطابات لا يستطيعون أن يبرزوا بشكل واضح، والظنة منهم هي التي فرضت مكانتها. وهذا ما جعل الشرقيين يهتمون المغاربة بأن اللغة التي يكتبون بها غامضة.

## شعراء المغرب الكاليفرافيون لم يراعوا سوى الجانب الشكلي لا المضمون العام

أريد أن انتقل بك إلى الوقوف عند بعض التجارب الشعرية في القصيدة المغربية الحديثة. وكما سبق أن تفضلت به، فإن القصيدة الحديثة ظلت تبحث عما يعبرها منذ زمن. وربما تبدو التجربة الكاليفرافية التي ظهرت في أواخر السبعينيات تعبيراً عن هذا البحث المتواصل عن الخصوصية.

ينبغي القول أولاً إن المغاربة كانت لهم مع التجربة الكاليفرافية علاقة وطيدة قبل هذا التاريخ بكثير. فممدون بلحاج، وهو شاعر تقليدي وفتية، خُطب القصائد بأشكال تقدم على الكاليفرافيا. وأما التجربة الكاليفرافية التي دعا إليها بعض الشعراء المغاربة المعاصرين فلا تتضح سوى نوع واحد من الكاليفرافيا، وهو استعمال الخطوط واستغلال البياضات استغلالاً يمكن أن يضيف إلى الناحية الشكلية للقصيدة. وهناك أنواع من الكاليفرافيا، ومنها ما مارسه بعض الشعراء الفرنسيين مثل أبولينير الذي كتب قصيدة تحت عنوان «شجرة» على شكل شجرة. وهناك نوع كان الشعراء يستعملونه في عصر الانحطاط كان يكتبوا قصيدة تقرأ طرذاً وعكساً، أو من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين. هذه كلها بالنسبة إلى تجارب كاليفرافية. أما التجربة التي نحن بصدها فلا تمثل إلا جزءاً ضئيلاً من الكتابة الكاليفرافية.

يلاحظ أن هذه التجربة ترجع في أصلها إلى النص الديني، وربما كان مصدرها غير عربي. فنحن نعرف أن كتابة الآيات على شكل صورة حيوان أو مكان كان شائعاً منذ القدم، ويوجد فيه نوع من التماثل بين الجسم وبين مضمون الآية. فالكتابة هنا تخدم دلالة النص، في حين أننا نجد في التجربة التي نتحدث عنها نوعاً من الإعتباطية. في رأيكم ما الذي يبرر اللجوء إلى هذا النوع من الكتابة؟

ليس هناك إلا مبرر واحد، وهو أن الشعراء الذين تبوأوا التجربة ودافعوا عنها لم يهتموا بالمنى الذي جُردت من أجله الكتابة الكاليفرافية. والواقع أن هذه الكتابة استفادت من القدرة الهائلة التي يمتلكها الحرف العربي على التشكل بزخرفة أرابيسكية، وهذا ما جعل بعض الخطاطين يزينون بين الحرف والمعنى. ولكن شعراء المغرب الكاليفرافيين لم يكونوا يراعون سوى الجانب الشكلي للمسألة، دون أن ينعكس ذلك على المضمون العام.

إن هذه التجربة في كل الأحوال قد لفتت الانتباه إلى بُعد آخر في الشعر، وهو البعد البصري. وهذا ما أوحى لبعض الشعراء المغاربة بالقيام بأعمال شعرية بالاشتراك مع رسامين تشكيليين.



يمكن أن نُعتبر هذا أيضاً جزءاً من خصوصية القصيدة المغربية والواقع أنه منذ أن اكتشف النقد أن الفنون تتداخل وتتوحد، وجد الرسامون بخاصة مادة غنيّة في الشعر، وكثير منهم حاول شرح أعماله بطريقة شهيرة ثم إن كثيراً من الرسّامين في الغرب كانوا على علاقة وطيدة بالشعراء - بيكاسو مثلاً - وكوكرو وغيرهما إلا أن الملاحظ أن التجربة المغربية تُخالِف ما رآناه في المشرق. ففي حين أن التجربة في المشرق كانت لا تتجاوز أرسناعات الشاعر وإنطباعاته على اللوحة، فإننا في المغرب بدنا نجد أن هناك نوعاً من الاستبطان: أي أن الشاعر لا يتكفي بتوظيف أرسناعاته، بل يحاول الدخول في عمق العمل الإبداعي التشكيلي - وهذا شيء جميل وطريف قد نُمتاز به القصيدة المغربية يُضاف إلى ذلك أن بعض التشكيليين المغاربة ممن لهم مرجعية هم الذين استطلعوا أن يتحدوا مع الشعراء المغاربة. وأغلبية الرسّامين المغاربة مرجعيّتهم غربية، ولذلك لم يجدوا من يُمكن أن يُقلدوا معه من الشعراء، باستثناء ما قام به الطاهر بنجلون في توظيفه لرسوم محمد بناني التطواني.

ربما كان فشل التجربة الكلاسيكية هو الذي أدّى بالقصيدة المغربية إلى اللبث عن خصوصيتها في تجارب أخرى، إلى أن وجدت نفسها أمام قصيدة النثر. ونحن نعرف أن قصيدة النثر قد تبلورت بشكل واضح في أواخر الخمسينيات مع انسي الحاج والمناغوت وجبرا وغيرهم. وهذا ما يجعلنا نسجل مرة أخرى أن هناك تأخرًا في ظهورها في المغرب. فكيف نفسّر هذا التأخر؟

المغاربة محافظتهم عائلة وريثة، ولا يمارسون شيئاً قبل أن يَحْضُمُوهُ ويَتَمَلَّوْهُ. إن القصيدة التفعيلية، رغم أنني أكتبها إلى الآن، قد وصلت إلى الطريق المسدود. ولا يُمكن أن يُلْغى المرء أفقاً جديدة إلا إذا بحث عن مخرج من هذا المأزق في قصيدة النثر. لكن قصيدة النثر أشكال وأنواع، فليها يُمكن أن يلبي هذا الطلب؛ هناك أولاً قصيدة النثر التي دعت إليها مجلة شعر، وهي قصيدة نثر تُشْتَغِل باليومي وتحاول ما أمكن أن تُشْعِرَ، ولكنها في صلبها الشعرية هذه تقع في مازق التسطيح، لأنها تَقْدِم الصورة الواحدة بأشكال مختلفة. غير أن هناك أنماطاً أخرى، وهو الأنماط الذي تُشْرِب القصيدة الفرنسية، ويظهر عند انسي الحاج، الذي بالإضافة إلى ما ذكرته - يحاول ما أمكن أن يُوجِّد (من الوجدان) ما يريد أن يقول، ويبدو أنه مازال إلى الآن واقعاً تحت تأثير الرومانسية ثم هناك قصيدة نثر ثالثة، وهي القصيدة المركبة يوضع لها عنوان شامل، وتوضع تحته عناوين فرعية، وعلى القارئ لكي يضمّ شتات هذه الأشياء أن يُبحث في العناوين الفرعية عن مراجع تجعله يصل إلى نتيجة، وهذه القصائد يُصْغَب لِم شتاتها وهناك قصيدة رابعة قريبة من الهايكو، وهي قصيدة مكثفة وصغيرة مكتوبة بلغة الاستعمال اليومي. وهذه الأنواع التي مازالت تحت الاختيار لم تُسْتَطِع أن تجعلنا نستقر على نوع معين.

هل يمكن القول إن النقد أسهم بشكل أو بآخر في هذا التعدّد داخل قصيدة النثر؟

إن النقد الذي تعامل مع قصيدة النثر وقع ضحية فكرة طائلة، وهي أنه توجه إلى البحث عن قواعد لقصيدة النثر في كتاب سوزان برنار قصيدة النثر من بوبليو حتى إيامنا. والكتاب أثخّن نماذج له من الشعر الفرنسي، وقد كان وفقاً لكل خصوصيات اللغة الفرنسية التي تتطلبها الكتابة الشعرية بهذه اللغة. فكيف يُمكننا في المغرب وفي العالم العربي أن نقبّس هذه الأسس ونطبّقها على الشعر العربي؟ من الممكن أن نعود إلى شيء من البلاغة القديمة التي وصفت الكفاة بأنها «ما قلّ وقول» وإنّنا نأخذ من البلاغة القديمة بعض الأسس التي تجعل الكتابة فنّة، ومنها ما يتعلّق بالمعالم الذي يتلخّص أن يُخَصَّص للأسس الجملة العربية ويُمكن أن يُجسّد في فتح أفاق أخرى بناءً على ما وصلنا إليه من ممارسة.

إن قصيدة النثر، تبعاً لما تفضّلت به، تعيش نوعاً من الفوضى لأنها تُقتصر إلى قوالب محدّدة. والنقد الذي يماريها مازال يُبْحَث عن أدواته، إذ يعتمد في الغالب على مرجعيّات غربية ذات خصوصية لغوية مخالفة. وهذا يؤدّي إلى نوع من الضيائية بالنسبة إلى القارئ، إذ كيف يميّز بين الشعر والنثر؟

لشكّلة نفسها أثّرت عندما بدأ الشعراء يُكتبون قصيدة التفعيلة. ولنتذكّر أن العقاد، حين كان على رأس لجنة الشعر في أحد المنابر الأدبية، سلّط بين يديه قصيدة لصالح عبد الصبور، فليها بملاحظة

## القصيدة

التفعيلية، رغم  
أنني أكتبها الآن،  
وصلت إلى  
طريق مسدود،  
ولا مخرج إلا  
في قصيدة النثر

مفادها أن النص يحال على لجنة النشر، إذ لم يكن المفاد من الرفاهة بحيث يتكشف أن النص مؤزن  
الشيء، عنيّه بقع الآن: إذ يخجل إلى الذين يتجنبون أنهم قد تحمروا من كل الضوابط الشعرية

لقد أصبحت في إيماننا طياعة الكتب ميسرة، وأصبح كل منا بإمكانه أن يجمع كتابات  
ويصنورها تحت يافطة الشاعر. وهذا أدى إلى نوع من الخلط مرده إلى غياب الأسس  
الواضحة التي يمكن بواسطتها أن تميز بين قصيدة النثر وغيرها.

أولاً، أن ينجب الإنسان في فراغ تقديري لهر أصعب ما يمكن أن يقع فيه. أعتمد أن أصعب كتابة في  
الشعر هي كتابة قصيدة النثر. ذلك أنه يخجل إليها، في غياب القواعد، أنه يمكن أن تكون أحراراً. وهذا  
خطأ ثانياً، أنا لا أعتمد أن هذه الكتب التي تطبع يمكنها أن تسمى، إلى قصيدة النثر، بقدر ما تسمى، إلى  
اصحابها. فهي يمكن أن تصلح مادة على أساس من الله لا يمكن في الأرض غير الصالح. ويمكن أن  
يستخرج المرء من مثالب هذه الكتابات الطرق القوية لقصيدة نثر حقيقية.

هناك من الشعراء من تدرج من القصيدة العمودية، إلى قصيدة التفعيلة، فقصيدة النثر.  
ولكننا لا نجد في القصيدة المغربية مثل هذا التدريج. قد نجد من انتقل من قصيدة التفعيلة  
إلى قصيدة النثر، ولكن أغلب من يكتبون قصيدة النثر في إيماناً بدواؤا الكتابة بهذا النمط  
مباشرة.

قلت منذ قليل إن قصيدة النثر هي الطريقة الوحيدة للخلاص من الباب المسدود الذي وصلت إليه قصيدة  
التفعيلة. ولكن إذا مر الشاعر بتلك المراحل، فإنه يتجسب خبرة تمكنه من كتابة قصيدة نثر جيدة. هؤلاء  
الذين يرتعون من أول وهلة في أحضان قصيدة النثر نوعان: نوع يقرأ باللغة الفرنسية، أو بلغة أجنبية  
أخرى، ويتأثر بها ويسير على منوالها. ونوع آخر يسير تقليدياً. إن عملية الانتقال من شكل كتابي إلى  
شكل آخر هي عملية صحيحة. وقد لاحظناها في الشعر الفرنسي. فهناك من كان يكتب القصائد على  
الوزن الإسكندراني وتخلص منه، وأخذ يخطف الأوزان، إلى أن وقع في نهاية المطاف في كتابة قصيدة  
النثر.

فنتقل إلى الحديث عن تجربتك الثقافية الخاصة. وهناك سؤال يشغل بال دارسي الشعر  
المغربي الحديث، وهو أن أجيالاً بكاملها لم يتح لها الاطلاع على مرحلة هامة من مراحل  
إبداعه الشعري، بسبب عدم نشره في مجموعات شعرية؛ فهو إما منشور في مجلات  
يصعب الوصول إليها، أو بقي حبيس الرفوف. وما نشرته في مجموعات هو ما ينتمي  
تاريخياً إلى اللامعنيات، في حين أنك بدأت النشر منذ أواخر الأربعينيات.

يمكن أن أقول إنني أهملت الفترة الرومانسية على أساس من سذاجتها، ولأنها لم تعد تمنّني. ومع ذلك  
فقد جمعت هذا الشعر، وستتاح الفرصة لنشره. أما الفترة التي أتت بعد ذلك، وهي فترة طويلة، فنكها  
منشورة في المجلات والجرائد. وإذا قرر لأعمالي الشعرية الكاملة أن تُنشر فستُشر هذه معها. ثم إنني  
أعتقد أن بيت الشاعر هو قصائده. وأنت إذا سكنت بيتاً أخذ يتهاوى شيئاً فشيئاً، فانت مطالباً بتريمه  
بين وقت وآخر. وعملية الترميم تدل على أن الفترات السابقة تجوزت، ولا مجال للحديث عنها إلا على  
أساس لتمامها إلى التاريخ. ونقطة النهاية هي الأهم.

يعرف القارئ أيضاً أن لك تجربة في مجال الكتابة الروائية، تتمثل في نص وجدتك في  
هذا الأرخيل. ما هي دوافع لجوئك إلى الكتابة الروائية؟

الواقع أن هذا العمل هو نص سيرواتي، ولكن الناشر وضع رواية على غلاف الكتاب. المهم أنني أردت  
أن أقول من خلال هذا العمل إن في الإمكان أن يكتب المرء رسالة أو سيرة ذاتية بما لا يخص من  
الوسائل. من هنا فإنّ وجهتك في هذا الأرخيل فيها الشعر النثري، وفيها اللغة العربية والفرنسية،  
وفيها الكتابة بالأسلوب التاريخي الذي يقوم على الحكى، وفيها المسرح أيضاً. وكل هذا يعمل الطريقة  
التي أردت أن أقول بها إن التحديدات التي وضعت في المناهج هي تحديدات غير دقيقة ولا تصف سوى  
عمل أو اثنين.

■  
إذا مر الشاعر  
بمراحل القصيدة  
الثلاث اكتسب  
خبرة تمكنه  
من كتابة قصيدة  
نثر جيدة

عندما صدرت الرواية مرّ عليها النّقدُ مرّوا الكرام. ايعود هذا إلى صعوبة النصّ وعموضه، ام يعود إلى أن الرواية لم توزّع بشكل واسع وظلّت تقتصر على مكتبات فاس؟

التفسيران معاً صحيحان فهي لم توزّع لأن الناشر أهمل توزيعها. ولأنّ النّقاد - باستثناء واحد أو اثنين - قراها بالطريقة التي يقرأون بها الأعمال الأخرى، أي بقوافٍ مسبقة. مع العلم أنّ على النّقاد أن يُلحّح أدواته عندما يهيم بقراءة عمل ما، وأن يبتعد عن الأدوات التي يقرّحها العمل

ووجهت اهتمامك بحكم عملك استاذاً جامعياً، إلى النقد والمناهج النقدية. ولك إنتاج في هذا الميدان. النقد العربي الآن، وسط هذا الزحام من المناهج يتعبد مرجعياتها، هل استطاع فعلاً مقارنة النصّ العربيّ، بالخصوصيات التي تحدثت عنها؟

إنّ الذين يتعاطون النّقد قد كثروا ولأنهم كثروا فكّل واحد يريد أن يبحث لنفسه عن مكان تحت الشمس ولذلك يعمدون إلى الكتابات السريعة، ويملأون الساحة أعتقد أنّ النّقد هو دون الإبداع الشعريّ، وأنه لا يمسّ من السرمديات إلا جانب الشكل لقد درّست مناهج النّقد لطبتي، ولم أكُنْ أتنبئ أيّ منهم في ذاته على الإطلاق، بل كنت أقرب هذه المناهج إلى الآخرين: والغاية من ذلك تعليميّة لا أكثر ولا أقلّ ولكن حين حلّقت قصيدة المراكبة، لجبران كنت ألع على جانب اللّصمّون الذي تُهمل تلك المناهج يوم يصيح الناقد يؤمن بأنّه مسؤولٌ مسؤوليّة كبيرة، وربما تكون مسؤوليّة تاريخيّة، فإنّ مسؤوليّة تتحدّد في تقريب الإبداع لا إلى الجيل المعاصر وحده وإنّما إلى الأجيال الآتية. يوم يمتقد ذلك يستطيع أن يكون في مسعى المأمورية التي انتدب نفسه لها.

ربما تُرجّع للمشكلات النقدية في جانب كبير منها إلى الترجمة. وإنت من الذين اهتموا بالترجمة وكانت لك إسهامات في هذا المجال. في رأيك هل مشكلة الترجمة هي مشكلة لغويّة فحسب؟

مشكلة الترجمة هي في المترجم أولاً. فقد اتفق كلّ من كتب في هذا الباب أنّ المترجم ينبغي أن يكون على اطلاع بيّن على اللّغتين معاً. ولكنّ المترجم من اللّغات الأوروبية إلى اللّغة العربيّة يواجه صعوبات كبيرة من هذه الصعوبات اختلاف البنى اللّغويّة في اللّغات الهندوأوروبية واللّغات اللاتينيّة عنها في اللّغة العربيّة. وهناك أيضاً مشكلة المصطلح. الفرنسيّون اخذوا يترجمون المناهج الآتية من أميركا، وقبل أن يُقدّموا على ذلك وضعوا قوانين للمصطلحات حاولوا بها أن يوحّدوا تلك المصطلحات، ووضعو لذلك معالج. في العالم العربيّ بدانا مباشرة بالترجمة دون أن يُلحّ هذا الاتفاق على المصطلحات. وهكذا أصبح للفرنسيّين مصطلحاتهم، والمغاربيّة مصطلحاتهم، والمشرقيّ أيضاً مصطلحاته. وهذا أحدث ارتباكاً كبيراً جداً. وأعتقد أنّ الحلّ الوحيد لهذه القضية هو أن يتجاوز المترجم الترجمة الحرفيّة وأن يُترجم المعنى. فهناك بعض المعاني لا تجد لها نظيراً في اللّغة، والحلّ هنا هو إثباتها بلغتها والتعلّق عليها من أجل التوضيح والمشكلة الكبيرة التي وقع فيها المترجم الذي يتقنون لغة أجنبيّة ولا يتقنون العربيّة هي أنّهم شوّهوا اللّغة العربيّة، شوّهوا أساس الجملة العربيّة فالجملة العربيّة في أصلها هي جملة فعليّة، ولكنهم حوّلوا إلى جملة اسميّة. وكثير من المنوعات في الأساليب العربيّة تمّ تشويهها.

اسمح لي في نهاية هذا الحوار أن أطرح عليك سؤالاً من نوع خاص: ما هي القصيدة التي لم تكتفها بعد؟

القصيدة التي لم أكتبها بعد هي القصيدة التي أستطيع فيها أن أقول جماع ما أريد قوله. وما أريد قوله هي الحقيقة يتدبّر بين حقيّة وأخرى فإذا بدا لي أنّي في الحقيقة الرومانسيّة تغنيت بالإنسان والطبيعة والحب، جات حقيّة نسخت ذلك، وقدمت معطيات ومفاهيم وقيماً جديدة. ومن الممكن جداً أن تأتي الحضارة المعاصرة بقيم ومفاهيم جديدة جداً، والإرغاصات التي تدلّ على ذلك هي هذه الاختراعات النّظريّة بأساليب الاتّصال، ومنها الحاسوب. إذن القصيدة التي لم أكتبها هي القصيدة التي أستطيع أن أعبر بها عن اللّحظة الآنية وما وصلت إليّ من مكتشفات وتقدّم.

الدار البيضاء

الحلّ الوحيد

للارتباك في

الترجمة هو أن

يتجاوز المترجم

الترجمة الحرفيّة

ويترجم المعنى

# من يصدق الرسائل؟

♦ ياسين عدنان

إلى صندوق البريد ١٤٩٢  
مُعَلَّتِي بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ،  
حبيبتي هند،

لقد مرت الأمور كما اتفقنا كل شيء نُفِّذُ بدقة. فبعدما قتلناها معاً وغادرت، سحبتُ الجثةَ بهدوءٍ إلى حجرة النوم (لا تنزعجي.. لقد ارتبيتُ القفارتين). نزعتُ عنها المغطى القطنى وشققتُ قميصها والميني جوب ليبدو كما لو أن الجريمة اغتصاب (ساكنون الأكثر بعداً عن الشبهات في هذه الحالة كما تعلمين). لم أقترِب من الدواب كما وعدتك. تكفيني الأساور والقلادة الذهبية التي أخذتها قبل ليلتين. حبيبتي، ابقى حيث أنتِ عند عمك. أرجوك، تحملي ثمراتها الخرفة. ولا تتدخلِ ثانيةً في عراكها مع الجارات. دعيتها تُشغَل الحرائق في الحارة كما يحلو لها. لستِ امرأةً إطفاء. ربما سيكون عليك أن تنتظري طويلاً؛ فانا مجبر على البقاء قريباً لكي تظَلَّ الشبهة بعيدة. سأخضع من دون شك لاستنطاقات الشرطة. فانا حبيبها على حدٍّ ومهما، والكل يُعرف ما بيننا. ولكن بعد أن تهدأ القضية وينتهي دوري، سامرٌ إلى شقتك، اللهم ما خفَّ حملهُ من شين متاعك، واخفُ إليك.

حبيبتي... ما أجمل الحب، هذا الأبيض الطري، بعد عملية حمراء كهذه!

ليت هذا أجزئتنا ما نعد  
حبيبتي نوال،

لقد مرت الأمور كما اتفقنا كل شيء نُفِّذُ بدقة. حتى إن المسكينة صَنَعَتْ أكثر الآن في عداد الأصوات. فبعدما أطلقْتُ عليك الرصاصة تلك... (تضحكين!) نطقتُ أرائبَ مذعورةٍ من عينيها، وأُغمي عليها في الحين. بصعوبة بالغة، اعني بسلسلة من الصفعات، جعلتها تنطق. قلتُ لها: «غادري فوراً، وأنا اتكفل بالباقي.» قلتُ لها أيضاً أن تغادر فوراً من أجل أعصابها. ثم صرختُ في وجهها: «قلتُ غادري...» فحملتُ أعصابها وحقيبةَ يدها ومضت.

حبيبتي، اسف إذ لم أكلّف نفسي الإشادة - للثق - ببراعتكِ في أداء الدور. فقد كان عليّ أن أقنعي أُنزَ الأخرى، وأناكذ من أنْها ستُجَزَّ حقاً ما وعدت. لم اتفلس الصعداء إلا بعدما رأيتها بأنم تصعد الحافلة المناسبة بالذعر المناسب. الممقاء لم تَقْهَم أن حباً أقوى من أن نساومَ عليه. لم تَقْهَم أيضاً أنني مفروم بك هائم، و أنك لا خِلَ هواك ولا خمر، فإن كنتُ مطبوعاً... (إلى آخر القصيدة) ثم إن مفتاح بيتها في جيبِي. حلالٌ عليك غنائمهُ.

اه يا حبيبتي، ما أجمل الحب، هذا الأحمر الطري، بعد جريمة بيضاء كهذه!

اعلُ النفس بالآمالِ أرقبها  
حبيبتي منى،

لقد مرت الأمور كما اتفقنا. كل شيء نُفِّذُ بدقة. فالأولى نظنَّ نفسها شريكاً في جريمة قتل، وهي الآن غارقة في الكوابيس وثرثرات صمتها هناك. والأخرى هنا تعللُ النفس - عيلاً - بنسائم الحب وغنائم الغرفة المهجورة، إنما هيها! قلبي ليس زهرةً ليُعطَف، ولا

♦ - صندوق البريد ١٤٩٢، هو عنوان كتاب مخطوط للشاعر سعد سرهان.

حديقة منزلية أعرس بها أي نبتة شئت. إنه حمامة طليعة اختارت أن تحط إلى الأبد بين أغصان نوحه أنوثتك (كما أقول في آخر قصيدته كتبها عنك).

حبيبتي، أشكر مساعدتك لي على دعس العقربتين لقد كانت الخطوة ناجحة. فهنيئاً لحبنا. بعد الزوال، سأمرك عليك في صالون الحلاقة. سأخذ سيارتك لساعات، ومفتاح شقتك أيضاً فطلي أن أنقل أشياء هند وما خف من متاعها إلى بيتك. بعد انتهائك من العمل، أرجوك استلقي سيارة أجرة إلى البيت، فلن أتمكن من المجيء إليك ساكون مشغولاً بإعداد أشهى عشاء لأشهى الحبيبات. أه يا عزيزتي ما أجمل الاستلقاء تحت شجرة الحب الخضراء في هدنة خضراء بعد يوم من المتاعب بالألوان!

### ما الحب إلا للحبيب الأول أبي العزيز

لقد مرت الأمور كما اتفقنا كل وصاياك نفذتها بدقة. فقد انقطعنا عن حياة اللهو التي جذبتني طيشي الأول إليها وانصرفت - والله شهيد - إلى العمل بكل جوارحي. وإذا كانت رسائلي إليكم قد انقطعت هذه السنة، فإلاني كنت خجلان من نفسي. لم استطع أن أكتيك إلا بعدما تأكدت أنني أصبحت شخصاً آخر، غصناً أخضر صالحاً يُمكنه - عن جدارة - أن يُفخر بالانتماء إلى شجرة عائلتنا الوارفة. ويمكنكم بدوركم أن تفخروا منذ الآن بي

والذي العزيز، بفضل وصاياك الغالية ودعواتك المستجابة، وانشغالي بالعمل عما سواه، تمكنت هذه السنة من جمع ثروة صغيرة يُمكن أن أبدا بها، إن شاء الله تعالى، حياتي الجديدة. (بالمناسبة، لقد اشتريت سيارة).

لكني ما عدت أحتمل العيش وسط هذه المدينة المجنونة الإنسان مخلوق ضعيف يا أبي، وهذه المدينة غول شديد البأس. إنها وكُر شياطين. صخب لا يُحَد. مناكر. ومفريات. لا أخفيك أنني بها أخشى فعلاً على نفسي من أن أعود، والعياذ بالله، إلى سيرتي الأولى. لذا قررت أن أرجع إلى البلدة، وأفكر في الاستقرار نهائياً هناك

أبي العزيز، يمكنك الآن أن تذهب برأس مرفوع عند عني حميد وتخطف لي بنته الياقوت الياقوت لي، وأنا لها! هكذا أوصت جدتي يامنة في ذلك المساء الشتوي القديم

أبي... ما قد نفذت وصاياك. نفذ إن وصيتها.

### جربك أخيراً في ألم قائم التي... عزيزي القاري

لقد مرت الأمور كما لم أخطر قط كنت للتو قد انتهيت من كتابة تلك القصة، حينما تخرجت حبكتها ككرة بلياردو مجنونة فوق سرير الحب الذي أسكن إليه منذ شهور. والحكاية بدأت هكذا تركت المسودات فوق مكتبي الوطي، المجاور للسرير، وخرجت لشراء الليمونة. كانت «عقبة» مستلقية فوق السرير تداعب حلمتي نهديها، كعادتها كلما سرحت في البعيد.

ولا شك أنها كانت قد بدأت تتعلم فوضى المكتب في محاولة للانفعال عن غيابي حينما وجدت الرسالة. الرسائل الأولى كانت مدسوسة في العدد الأخير من المجلة. والأخرى لم تجد غير الأخيرة. لم تستطع أن تكبح جماح فضولها الأنثوي، وقرأت: «أبي العزيز، لقد مرت الأمور كما اتفقنا... إلخ».

رجعتُ بالليمونة. فتحتُ الباب بصخب سعيد. وجدتُ الغرفة على الفوضى المرحية التي تركتها عليها قبل دقائق. لكنْ أشياء لم تكن هناك: حقيبة يدها. قرطاسها اللذان تتخفف منهما عادةً ساعة الحب. ساعتها الذهبية. علبة سجاثرها المنامة السوداء التي قررتُ ذات ليلة أن تتركها عندي لأنني الوحيد الذي أستحق أن أراها بها. وحده عطرُها الصديق كان يظلُّ ردهة للسكون.

بعد لحظات من الذهول بدأتُ أتحرك في الغرفة محاولاً استيعابَ ما جرى.

انتبهتُ إلى ورقة مضغوطة بعصية وملقاة قرب الأباجورة. كانت الأكسسوار الزائد الوحيد هرعْتُ إليها. للتقطُّعها سرحتها. وقرأتُ: «أبي العزيز، لقد مرت الأمور كما اتفقنا....»

يا إلهي... مَنْ يصدق؟ مَنْ كان يخمنُ هذا الفخ؟ مَنْ سيوضح لها الآن أن الرسالة ليست رسالة. وأن الأمر لا يتعلق سوى بالجزء ما قبل الأخير من قصتي «مَنْ يصدق الرسائل؟» مَنْ يستطيع إقناعها بكل هذه الفوضى؟

بل أين هي... أين هي لأقول لها إن الأمر محضُ حكاية، وإنْ مَنْ يحكي كمن يخُفر بئراً في بحرٍ والماء يتسرَّب أمامه من كل الجهات؟ ها قد مضت. صدقتِ الرسالة ورحلتُ بعيداً عن الجرح الذي ليس جرحاً لأنَّ الرسالة ليست رسالة.

أه، ما أغنى هذه القصة. أعني تلك القصة. فبسببها يُنْشِب الحبُّ الليلةَ مخالفته في سريري الفارغ الباردان

وَرِزَّازَات (المهريب)

# • عبد الله المتقي الممثل الذي تقياً على المسرح

يسحب المخرج من سيارته أنفاساً عميقة وسريعة. كان متوتراً! يبدو هذا جلياً من انشغالاته بمقارب ساعة معصمه، ثم من مشيته جيئةً ونهايًاً.

الجمهور في القاعة المجاورة بدأ صبره يُنفد.

يتوقف المخرج فجأةً، يركّز نظراته في مقبض الباب، دون جدوى.

الجمهور بدأ يصفر.

المخرج يصقّ على الأرض بنفزة مفروطة، ثم اشعل سيجارة خامسة وريماً عاشرة.

أخيراً وصل الممثل.

تنفّس المخرج من متخريه طويلاً... طويلاً.

تعرّ الممثل بعنّة الباب. كاد يسقط على رأسه لولا... وجلس على أوّل كرسي صانده بقرب الباب.

الجمهور بدأ يصفر تباهاً.

اطلّ المخرج من وراء الستارة برأسه الأصلع، معلناً بعينيّه قرب بداية العرض المسرحي. وبعد دقائق معدودة، أقبل الممثل من الجهة اليمنى للخشبة، وكاد يسقط ثانيةً لولا...

تسرّ وسط المسرح كتمثال من رخام. فرك عينيّه. تفرّس جيّداً في قاعة العرض. ركّز عينيّه في وجوه الجمهور، ثم أرسل من فمه أنوباً من القي.

تقرّز الجمهور. غادر الجميع كراسيهم. تسابقوا نحو الباب كقطع من البقر في شريط لرعاة البقر.

في الحانة المقابلة للقاعة المسرح كان المخرج يبخن ويسعل، يهذي ويسعل، ويبخن من جديد.

المقرب

# على رصيف الحلم

• بسمه الخطيب

جلستُ على الرصيف. ولم أهتمُ لنظراته المرتابة. صحيح أنه طردي، ولكنْ بلطف. كم كنتُ ساذجةً حين توقّعتُ أن أقابل رئيس مجلس الإدارة من دون موعد أو توصية. قال لي إنَّ أحداً لا يدخل إلى هذه المؤسسة الإعلامية إلا إذا كان «مدعوياً»، وغمز بعينه، ففهمْتُ. ولكنِّي لم أجد سوى عمود الكهرباء داعماً لي أمام باب المؤسسة.

احسستُ برغبة في الغناء. فرحتُ أغني بصمت: «يا حبيبي أنا عصفورة الساحات، أهلي ندروني للشمس وللطرقا...» هكذا هي فيروز، تاتيني كغمامة تظللني وكشلال فرح ينعشني وعندما ترنمتُ بتلك الأغنية التي كنتُ في طفولتي أتصورُ أنْ يبلّثها هما أبي، وجعلتُ إلى سريري الدافئ وليلالي الحيرة الباردة: «يا حبيبي شو نفع البكي، وشو إلو معنى يتد الحكي، مازالا قصص كبيرة.. تخلّص بكلمة صغيرة.. حبّوا يعضُّوا تركوا يعضُّوا». كانت أُمِّي تحبُّ الأغاني الحزينة، وهذه الأغنية بالذات. في تلك الليالي كنتُ استيقظ لأسباب مجهولة فأشعر بوجعها. استدير بجسدي الصغير نحوها، أبحثُ عن عينيها في العمة، أراهما رطبتين ولا أفهم سرَّ بريقهما. تقول «أقراي الفاتحة خمس مرات وستنامين في الحال». أقرأها وأرشد تلك الجملة كالاعتاد: «نَمْ يا عبد الله وانكَل على الله». تنام عائلتي منكّلة على الله، أما أنا فأتأججه بصوت خفيض. أحرك شفطي من دون أن أنطق، خشية أن أوقظ إخوتي من نومهم. يا ربِّ لماذا لا تجيبيني أُمِّي عن تساؤلاتي؟

في الصباح التالي تروح تتنقل بين الموقد والمجلى، تغني مع المزمار وتبكي معه. تريد لي أنْ أهمّ شيء في هذه الحياة هو العلم وأنْ عليّ أنْ أتعلّم كل شيء. أعلموني في المدرسة أن الأرض كروية، وأنّ الفصول أربعة، وأنّ الفيوم كُفّدت البرق والرعد وتُثّر المطر. كان هذا قبل أن تغفل مدرستي ويترك أهل الضيعة بيوتهم وحقولهم بسبب الحرب.

يومٌ ونعشني طفولتي ونُذعت الحرب بلدي. هكذا أعلن المزمارُ، رفيقُ أُمِّي الدائم المتنقل معها بين غرفتي بيتنا، الذي كان ينقل إلينا ما يدور خارج ضيعتنا الصغيرة ويُطلّب من بيروت، سنّ الدنيا، أن تقوم من تحت الردم لأنّ الثورة تولّد من رحم الأحرار.

ما هي هذه الدنيا ومن هي بيروت؟ لمن هذه الدنيا ولن بيروت؟

ظلت هذه الأسئلة تُزكّني حتى أنهيت دراستي الثانوية في ضيعتي والتحقّت بالجامعة اللبنانية في بيروت - كلية الإعلام كما أرادت أُمِّي. هناك عرفتُ بيروت وتعرّفتُ إلى دنياها. وبعد أربع سنوات عرفتُ الأحرار ورحم الأحرار.

مضتُ سنواتٍ منذ تخرّجي ومازالت الأسئلة تزحف في ذهني. أسمع غليظ أُمِّي ولا أريد أن أسألها لماذا حدثت الحرب، لأنني أحسّ أنها ستعلم. اليوم لا يتخلّطنا إلا إيجاباً عمل يناسب موقلاتي. ولكنّ المؤسسات المحترمة لديها شروطٌ غريبة للتوظيف. أممها أن يكون لدى «مرجع» وطني، أو أن أكمل توصية ما، إضافة إلى سنوات الخبرة. ومن أين لي بهذه الخبرة؟

في كل مرة أعود إليها خالية اليمين أعلمها بأنني لا بدّ أن أعود غداً بخبر مفرح. لعل هذه الأسباب اخترع الإنسان الكتب. قلتُ لها: لقد وافق. أعطاني فرصة شهر تحت التمريض، وبعد الشهر سيرفطني. يقول ليّني تشبيلة ونكيّة.

مضى الشهر وأنا أتردد على بيروت. أوهم أُمِّي أنني ذاهبة إلى الإذاعة، وأنها ستسّمعني قريباً أُنيع الأخبار، أو أعلن بدء برنامج ما، أو أدير ندوة ما. ولكنّ كيف سأواجهها غداً عندما تفتح مذياعها لتبحث عن صوتي ولا تجده لأجل هذا أنا متسمّرة هنا بانتظار مدير الإذاعة. سالت عمة كما فعلتُ تلك المتسوّلة التي اضطرتني لأن أعطيها إحدى روثي المال اللثيث كانتا يحوزتي، فأجبرت على العودة مشياً كل هذا من أجل القلب الذي تقاسمتُ دمانه وأنا جنين، واحسستُ بوجعته وأنا طفلة، ونذتُ الأمان وأنا شابة.



يمرّق صوّثها سكّونٌ صَدري عندما أَذكرُ كلماتها: «أريدك أن تدرسي الإعلام، وتقولي الحقيقة لمن لا يعرفها، لمن يخشى أن يسمعها». هذا كان حلم أمي: أن تسمعي عبر منياعها الذي لم تبكّه، المنياح الذي نَقَلَ إليها إعلانَ تاعميم قناة السويس ونَبأ احتلال القدس وموت عبد الناصر ومعاودة كامب ديفيد واجتياح بيروت ومجزرة قانا وأغاني أم كلثوم وعبد الطيم، ونقل إليها أخيراً اندحار العدو الصهيونيّ من الجنوب.

أجول في شوارع بيروت الباردة. يرتطم رأسي بالأبواب المغلقة.

كم أنا بحاجة إلى حضنك يا أماء، إلى حكاية حكيبتها لي في زمن ما وانتهت بالنبات والنبات إلى الجملة التي كنت تخدريني بها كي انام هانئة. ولكنّ أخبريني، أولاً، في أيّ زمن تنتهي القصصُ والنبات والنبات؟ إنني لا أجد لهذا الزمن أيّ أثر. لماذا كذبت عليّ؟ لماذا قلّتي لي إنّ بيروت جميلة؟ ما أنا اليوم في بيروت، أسمعُ في شوارعها، أبحث عن مكان يؤيّنني ولا أجده، أمدّ يدي لأهلها لأعطيهم فلا يلتفتون إليّ. هي مدينة لا تحبّ أن يعطيها أحد مدينة ترخّب فقط بمن يأخذ منها ويحتال عليها.

في الشوارع التي غمرتها اليوم رأيتُ القذائف والصواريخ والنبابات والحرائق والشهداء، وربما أبي! صمّيح أنّ كل شيء عاد برأفًا سليمًا لا خدش فيه، إلا أنني رأيتُ الحرب كما كان يُحكى عنها وأحسستُ أنّ قلب أبي مازال يحتفظ برصاصة، وأنه ينتظر من يرمعه. لو أجدك اليوم يا بابا لقلّت لك إنّ قلبك صغير وإنّ لا أحد يهتمّ بالقلوب الصغيرة.

مرّت النجمات التلفزيونيّة والإذاعيّات مبسمات بقيت جالسة.

وأخيرًا ها هو.

ركضتُ إلى سيارته وهو بهمّ بالصعود إليها: مرحبًا. هل تُذكرني؟ تقدّمتُ بطلب منذ شهور عندما طلبتم موظفين للعمل في الإذاعة.

أريدك أن تسمعي لخوان.. أرجوك.

نعم، قالها بتجهّم.

ارتبكتُ ثم قلت: لا أريد سوى أن تعطيني فرصة. لا أريد وظيفة ولا معاشًا ولا ضمانات لا شيء سوى كلمة نعم. أرجوك قلّها لي.

اعتبرتني متمرّنة

– ولكنك لست الوحيدة التي تريد أن تتمرّن. لذيّ المئات من أمثالك.

– ولكنّ أنا بحاجة ماسة إلى العمل. إنّها أمي..

– أمك؟ ما شانني أنا بكرويلك؟

وانطلقت السيارة.

هذه الليلة لن أرى أبسامة أمي.

دخلتُ أطلّس طريقي في الظلام. الجميع نيام. وحده المنياح يهمس. فتحتُ عينيهما. هذه المرة لن أدعي أنني لا أفهم سرّ بريقيهما.

قالت بصوت متهدّج: كنت تكذبين عليّ.

لم تنتظر منّي أن أدافع عن نفسي. كانت تعلم أنني لا أمك جوابًا. لذلك مدت يدها نحوي وتعلّنت لآنام قريبة.

عندما دخلتُ فراشها فوجدتُ ببيروت. ارتجفت. غرستُ أنفي في فستانها العتيق فامتلات رنتاي برائحة الأمومة. عدتُ تلك الطفلة التي تلبس أن تمام قبل أن تجد أجوبة عن كل أسئلتها. لكثني منذ اليوم لن أسأل. منذ طارت تلك السيارة وتركتني اتعمّر بفبار الطريق، منذ ارتعش جسدي تحت شمس أب في مدينة ترتدي الضباب صيفاً وشتاءً ولا تعرف كيف تطلعه.

النشيد الوطني يعلن نهاية الإرسال. انتهى الإرسال، امه. اقلبي مذيعك. فكلنا للوطن، ولكن الوطن ليس لنا لا وطن لي. فاحضنيني أكثر كي أشعر بالوطن. دفتيني. لماذا انتِ باردة الليلة؟

الليلة أريدك أن تبكي وأبكي معك. ليكي، لن ير أحدٌ دموعك في هذه الليل. لن يعود أبي ليدافع عنا. هل تذكرين عندما كنّا نتشاجر؟ كنتُ أترك البيت وأقول إني ذاهبة للبحث عن أبي ليُصيغني. وبعد أن اتعب من البحث أعود إليك. أقف عند الباب بانتظار أن تسمح لي بالدخول، ولكنك لا تلتفتين إليّ تتابعين عملك وكأنّ شيئاً لم يكن. وفي الليل عندما أشكو إليك تعب رجلي من المشي تضمينني، تبئين حناناً جسدي في السرير ليتنعم به أطفالك الصغار وينسوا دفة أبيهم الغائب. إن رجلي تؤلمني كما في الطفولة، فهاتي حناك. لديّ شيء أخير أقوله لك: سامحيني لأثني خذلك. سامحيني لأثني سباحتي منذ الصباح العمل في دكان العمّ أبي جميل لأسجل أسعار السكر والسمن والمحارم والودون الفواتير كما كان يلح عليّ وكنتُ انتِ ترفضين. توقعاتُ أن تنفض عندما تسمع هذه الجملة. لكنّها نامت. وأنا أيضاً سنامت.

اطلّ الصباح. لم يكن مذيع. ولم تكن فيروز.

يسلم عليّ أبو جميل. يشدّ على يدي معزّناً ويضيف مطمئناً. مكانك في المحلّ محفوظ.

أضحك من شدة الوجد وأسأل: ألا تحتاج إلى توصية وشهادة خبرة؟

ببيروت

# الحركات الإسلامية المغربية وقضايا الحداثة

أعدّ الندوة وصاغ ورقتها التوجيهية مراسلُ مجلة الأراب: عبد الحق لببض

## المشاركون

استاذ محاضر بكلية الحقوق في الدار البيضاء. صدر له كتاب بالفرنسية بعنوان الملكية والإسلام السياسي في المغرب، وصدرت ترجمته العربية مؤخراً.

محمد الطلوزي

استاذ بكلية الحقوق في الرباط. صدر له مؤخراً كتاب تفاصيل سياسية. وهو كاتب عام الشبيبة الاتحادية سابقاً.

محمد الماسي

باحث، رئيس تحرير جريدة التجديد الإسلامية، وعضو قيادي في حزب العدالة والتنمية الإسلامي. صدر له مؤخراً كتاب الحركات الإسلامية بين الثقافي والسياسي.

محمد يقيم

استاذ العلوم السياسية بكلية الحقوق في الرباط، ومدير «مركز تواصل الثقافات»، له العديد من الإسهامات في مجال علم السياسة.

عبد الحي مودن

## ورقة بمثابة أرضية توجيهية للندوة

باسم مجلة الأراب أشكر الإخوة الأساتذة على تفضلهم بمشاركتنا في هذه الندوة. كما أشكر الصديق العزيز الدكتور عبد الحي مودن مدير «مركز تواصل الثقافات» على مجهوداته الرائعة وتنسيقه الجدي معنا لإنجاح غايات هذه الندوة.

إذ نألمس اليوم موضوع الحركات الإسلامية في المغرب فمن أجل أن نعيد التفكير في أسئلتها وخصوصياتها والبحث في حصيلة ممارساتها، بعيداً ما أمكن عن المسجانية الإعلامية وعن اندفاعات الهوس الإيديولوجي والسياسي الحزبي.

ليس الإسلام السياسي ظاهرةً مستحدثةً في الخطاب السياسي العام. فالنظام الملكي المغربي نفسه يقيم شرعيته على أسس دينية. فقد جاء في الفصل التاسع عشر من الدستور المغربي أن «الملك أمير المؤمنين، والممثل الأسمى للأمة، ورؤس وحيتها، وضامن فوام الدولة واستمرارها، وهو حامى حمى الدين، والسلم على احترام الدستور. وله صيانة حقوق وحريات المواطنين والجماعات والهيفات. وهو الضامن لاستقلال البلاد وحوزة المملكة في دائرة حدودها الحقة»، ومن القواعد الأساسية التشريعية المؤسسة لإدارة المؤمنين قاعدة «البيعة»، وهكذا سعى هنا

الجانب من المؤسسة الملكية المغربية إلى بلورة استراتيجية دينية تدعم شرعية إمارة المؤمنين وتروج مفهوم الإسلام الرسمي الذي تتبناه الدولة. فكان أن أسست مجموعة من القنوات التي تتأخر من خلالها التوجيه الديني والعقدي للأمة، ومن بينها: دار الحديث الحسنية، سنة ١٩٦٤، وهي مؤسسة تسهر على تكوين مجموعة من العلماء الذين يوظفون في سلك الوظيفة العمومية؛ ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية التي تسهر على التأطير الديني وتوجيه العلماء وتضد من وزارات السيادة التي تخضع مباشرة لتوجيهات الملك لا لتوجيهات الحكومة، بل إن مقرها يوجد إلى جانب القصر الملكي. وهو مؤشر على العلاقة المباشرة والوطيدة بين النظام والشأن الديني العام.

كما اعتمدت الحركة الوطنية المغربية، منذ بداياتها أوائل الثلاثينيات، على مكون الإسلام في صراعها ضد هيمنة الحماية الفرنسية. غير أن هذا الخيار تم التراجع عنه في ظل تعدد الشاربات السياسية التي ظهرت بعد الاستقلال واعتمدت مرجعيات جديدة وأسست لثقافة سياسية جديدة. وقد ظل حزب الاستقلال بزعامة الفكر السلفي علال الفاسي متمسكاً بمفاهيم الإسلام السياسي السلفي.

وبهذا يبدو أن الحركات الإسلامية التي ظهرت أوائل السبعينيات قد جاءت في ظل مسار تاريخي محكوم بتطورات نوعية في مستوى التعاطي مع المكون الديني والنظام الدعوي، فلم تكن هذه الحركات في مواجهة نظام علماني ذرع عن نفسه أي شطأ ديني، وإنما كانت في صراع على تنازع الشرعية بينها وبين النظام ومؤسساته الدينية.

وقد تأثرت الحركات الإسلامية المغربية بالحركات الإسلامية في المشرق العربي. ويظهر ذلك التأثير في وجود حركتين إسلاميتين سياسيتين مغربيين هما حركة الإسلام الدعوي التي فُتحت بالناوحي الترويية والتخليقية والاجتماعية؛ وحركة الإسلام السياسي الجهادي، التي تنحو منحى المواجهة لفرض رؤيتها السياسية وإبراز قوتها الاجتماعية. ويمكننا أن نمثل للاتجاه الأول جماعة التبليغ والدعوة، التي تأسست في المغرب في سنة ١٩٦٤ على هدي من الجماعة الأم بالهند، والتي كان قد أسسها الشيخ محمد إلياس الكاندلوي (١٣٠٣-١٣٦٣). ويمكننا أن نمثل للاتجاه الإسلامي الجهادي بـ «حركة الشبيبة الإسلامية» التي تأسست قانونياً سنة ١٩٧٢ بزعامة عبد الكريم مطيع. وقد أقامت هذه الحركة تنظيمها على أساس مقاومة التبلد الماركسي الإلحادي ومواجهة «جاهلية» النظام. وقد اتهمت باعتقال المناضل اليساري عمر بن جلون سنة ١٩٧٥، فاضطر مطيع إلى مفادرة التراب المغربي نحو فرنسا. وقد شكلت هذه الحركة جناحها العسكري ممثلاً في «منظمة المجاهدين بالمغرب» سنة ١٩٨٤. كما أسست مجموعتين جهاديتين أطلق على الأولى اسم مجموعة «٧» وعلى الثانية اسم مجموعة «٣». وقد واصل عبد الكريم مطيع نضاله من فرنسا بإصداره مجلة المحاهد التي اعتبرها البعض من نشطاء «حركة الشبيبة الإسلامية» خروجاً على الخط المأثور لهذه الحركة، الأمر الذي تسبب في زعزعة البناء التنظيمي للحركة ولاسيما بعد حملة من التصفيات التي قام بها النظام لأهم كوادر الحركة.

أما الاتجاه الإسلامي السياسي المعتدل الذي يَنبذ العنف ويدعو إلى ثقافة الحوار فقد خرج من معطف «حركة الشبيبة الإسلامية» ممثلاً في جمعية «الجماعة الإسلامية» التي كانت رد فعل على ممارسات مطيع ومن لف لفه. فقد رفع مجموعة من الشباب بزعامة عبد الإله ينكيران بريقة إلى الديوان الملكي يؤكدون فيها أنهم شباب متدينون يهدفون إلى الإسهام في تأسيس مستقبل أمته من خلال تجديد فهم الدين وفق الكتاب والسنة والإجماع، وبالدعوة إلى تجديد الالتزام به. كما أكدوا في رسالة أخرى رفعوها إلى وزير الداخلية بأنهم للتعف وللإرهاب، والالتزامهم مقدسات البلاد والنظام الملكي الدستوري. وقد استبدل بعد ذلك اسم «الجماعة الإسلامية» باسم آخر هو «حركة الإصلاح والتجديد».

أما الحركة الإسلامية الثانية فهي «جماعة العدل والإحسان»، وهذه الجماعة لم تندمج بعد في النسق السياسي العام للمغرب، ولكنها مبدئياً ترفض العنف والمواجهة. وقد تأسست بمبادرة من مرشدتها الأول الأستاذ عبد الصلاد ياسين الذي كان قد بعث برسالة - نصيحة إلى الملك الراحل من مدة صفحة تحت عنوان «الإسلام أو الطوفان»، وقد اعتُقل جرّاءها وقضى في السجن حوالي ثلاث سنوات دون محاكمة إلى أن أُفْرِج عنه في مارس ١٩٧٨. وفي سنة ١٩٧٨ أصدر العدد الأول من مجلة الجماعة التي صورت بقرار إداري على عملة طريقة المنع في المغرب. وعاد إلى السجن سنة ١٩٨٢ بسبب ما جاء في صحيفة الصبح التي كان قد أصدرها بعد منع الحلة الأولى، وتمّ الإطْرَاج عنه سنة ١٩٨٥، ليوضع سنة ١٩٨٩ تحت الإقامة الجبرية إلى سنة ١٩٩٩.

وتتمثل مجلة الجماعة الإطار الذي ساعد على تأسيس جمعية «أسرة الجماعة» سنة ١٩٨١، وهي جمعية لم يتم الاعتراف بها قانونياً من طرف السلطات العمومية. وبمهدا أسست جمعية باسم «جمعية الجماعة الخيرية»، التي غيرت اسمها إلى «جماعة العدل والإحسان». وقد أصدرت السلطات قراراً بحل الجماعة سنة ١٩٩٠.

أما الحركة الإسلامية السياسية الأكثر اعتدالاً وانفتاحاً على الحوار فهي جمعية «البديل الحضاري»، التي أسست بمدينة فاس في ٢٢ أكتوبر ١٩٩٥. وقد أصدرت الجمعية بياناً سمته «البيان الحضاري»، أي خيار البدل الحضاري، وأجابت فيه عن مسوِّغات التأسيس وأهدافه، وعن الأسئلة المتعلقة بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ومسألة الهوية والمسألة النسائية. كما أكدت فيه أن «البديل الحضاري اجتهاد في إطار دائرة الإسلام يسمي على نهج أهل السنة والجماعة، لا ينبغي تمثيل الإسلام، بل هو مجرد اجتهاد».

وقد دفعت التحوّلات السياسية التي شهدها المغرب منذ بدايات عقد التسعينيات إلى انتخاب المؤثّنين للحياة السياسية في المغرب خطاباً جديداً ذا ذبّرات ومفردات مختلفة عن حقل التداول السياسي المغربي، تقوم في مجملها على بنية التوافق والتراضي بين الفرقاء السياسيين والمؤسسة الملكية. فبعد سنوات الاحتقان السياسي والإقصاء المتبادل ما بين النظام الملكي وكتلة الحركة الوطنية ممثلة في الأحزاب «الديموقراطية الوطنية»، دخلت الحياة السياسية في المغرب دورة تاريخية جديدة أطلق شارئها الأولى الملك الراحل في خطاب يوم ٤ أكتوبر ١٩٩٤. ففي هذا الخطاب أعلن الملك عن رغبته في إشراك أحزاب المعارضة التاريخية في تمثيل دفة الحكم في البلاد وتسمية الوزير الأول من المعارضة. وهو ما تجسّد في تشكيل حكومة «التنوّب التوافقي» سنة ١٩٩٨ بزعامة المناضل الحقوقي والسياسي الأستاذ عبد الرحمن اليوسفي، وهي الحكومة التي جاءت بعد توقيع ميثاق الشرف بين السلطات والقوى السياسية، وصيغ بنوع من التوافق والتراضي بين كل الأطراف والمكونات؛ كما جاءت بعد استفتاء على تعديلات الدستور سنة ١٩٩٦ وتوّج بإجماع وطني وتكريم من طرف صناديق الاقتراع.

ورغم ما يُقال عن سلبية هذه التجربة والثقرات التي خلّفتها، ومن أبرزها اعتماد أسلوب «الديموقراطية الموجهة»، والتناوب السياسي المقتنّ، فإنها تُعتبر بمثابة كوة تتطلّع من خلالها الأطراف السياسية المغربية إلى تحقيق انتقال سياسي سلس وهادئ دون صدمات كهروالية قد تُزهِن مستقبل البلاد للمجهول أكثر ممّا هي مرهونة له حالياً بفعل الفساد السياسي والإداري والاقتصادي الذي عتّون صفحات طويلة من تاريخ المغرب المعاصر. ولعلّ أبرز ما يميّز هذه التجربة السياسية هو المشاركة، ولأوّل مرة في تاريخ الانتخابات العامة في المغرب لفصيل سياسي إسلامي يُنَشِط في إطار حركة الإصلاح والتجديد.، وقد مثّلت هذه المشاركة مؤشراً على سيناريوهات جديدة في المسلسل السياسي المغربي لتلجّبه من متغيرات بنوية في التوجه السياسي العام.

فمن داخل هذا المتغير السياسي العام، بدأ الحديث عن دور الحركات الإسلامية كحركات سياسية جماهيرية لها تطلعات سياسية تسعى من خلالها إلى القبض على اليات السلطة، والإسهام في تسيير الشأن العام. كما شرع التفكير في مستقبل الوضع السياسي المغربي في ضوء المتغيرات التاريخية والثقافية، وفي ضوء تحول نظم التفكير السياسي وتجدد الفاعلين السياسيين. وقد أخذ ذلك الحديث وهذا التفكير وجوهاً مختلفة: من المقاربة العلمية الأكاديمية الرصينة والمحايدة، إلى الطروحات السجالية والمزايدات السياسية، مروراً بالمقاربات الاختزالية الوضعية، ولعل حظ المقاربات السجالية أو الاختزالية الوضعية قد كان أوفر حظاً من المقاربة الأكاديمية البحثية الخالصة؛ وهو الأمر الذي أسهم في ذبوع ثقافة الاحتقان والصراع التي تلقي الحوار وتباعد الرأي.

ولما كانت الحركات الإسلامية المغربية تسعى إلى استلاك أسباب السلطة وتجبير الشأن السياسي العام، فإنها تدرج نفسها في سياق مفاهيم الدولة والمؤسسات والديموقراطية والحريات العامة والصراع السياسي؛ وهي مفاهيم لا يختلف اثنان في انتمائها إلى منظومة الحداثة. فالحركات الإسلامية وهي تشتغل ضمن هذه الحدود تجد نفسها مجبرة على التعامل مع مفاهيم الحداثة وأسئلتها، ومضطرة لأن تعلن عن مواقفها منها وعن مرجعياتها الفلسفية والتاريخية والاجتماعية.

وإذا ندعو اليوم إلى ملازمة قضايا الحركات الإسلامية في المغرب، فإننا نضغ صوب مرمى نظرينا إعادة التفكير في قضايا هذه الحركات من داخل منظومة الحداثة. لأننا نعتقد أن هذه الحركات وجدت أصلاً لتجيب عن مخلفات صدمة الحداثة. فعندما تداخ الحركات الإسلامية عن إسلامية الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية تجد نفسها منخرطة في أسئلة الحداثة. بل حتى عندما ترفض الحداثة الغربية، فهي لا تعدم أن تفكر في بلورة مشروع حداثة إسلامية يقبل بالبعد التقني للحداثة بعد أن يفرغها من أبعادها الفلسفية.

تهدف ندوتنا اليوم إلى مقاربة قضايا الحداثة في التفكير السياسي والثقافي والاجتماعي للحركات الإسلامية المغربية، وذلك من خلال أسئلة ومجاور نحددها كالتالي:

- هل تمثل الحركات الإسلامية مواصفات الحزبية كما هي متداولة في أبحاث العمل السياسي الحزبي الحديث؟ وإذا كانت الحركات الإسلامية المغربية تنظميات حزبية، فكيف يمكن التوفيق داخلها بين المجال السياسي والتنظيمي والمجال الدعوي والإرضادي الذي حدد مجال تحركها في بدايات تكوينها؟

- ما هي نوعية الثقافة السياسية السائدة لدى الحركات الإسلامية المغربية؟

- أي الحق لجعل الشرعية الدينية القاطم بين النظام الملكي المغربي والحركات الإسلامية المغربية؟

- هل تتعارض الثقافة السياسية لحركات الإسلام السياسي مع مفاهيم الحداثة والديموقراطية والاعتدال والقبول بحق الاختلاف السياسي ومبدأ تداول السلطة والتعددية المنهجية السياسية؟

- هل تمتلك الحركات الإسلامية المغربية مشروعاً سياسياً واقتصادياً ومجتمعيّاً وثقافياً يميزها عن الحركات السياسية المغربية الأخرى؟

- أية علاقة ما بين الحركات الإسلامية ومكونات المجتمع المدني، كالتنظيمات النصائية وجمعيات حقوق الإنسان والجمعيات الأمازيغية؟

- أي دور للحركات الإسلامية في إعادة صوغ توازنات سياسية في مرحلة الانتقال السياسي الراهنة وفي مرحلة التثاقب الديموقراطي الذي تمتاز به البلاد ولوجه بعد انتخابات ٢٠٠٧؟

- ما مدى إسهام الحركات الإسلامية المغربية في وضع أسس حداثة سياسية يطمح العديد إلى تحقيقها في الممارسة السياسية في المغرب؟

وأبداً بالأساذ محمد الساسي ليجعلنا عن ظاهرة التحزب السياسي في المغرب وخصائصه.

إنَّ الحزبية الإسلامية المغربية واقع قائم يُظهر في شكل تيارات سياسية طُمَح الوصول إلى الحكم وتهدف إلى تقديم منظورها في تدبير الشأن العام. ومن المفروض علينا أن نُعترف بالقوة السياسية والمقاتلة التنظيمية للحركات الإسلامية: وأنْ نخشَى عن ترديد شعار أن الشباب خاصة وأفراد الشعب عامة عاززون عن السياسة وأنْ هذا هو ما فتح الطريق أمام حركات طارئة لتستغل في تطاير الشتات المجتمعي. فمثل هذا الشعار يُضفي حقيقة فشل التنظيمات السياسية المغربية في تطاير للجمع وفي تدبير شانه السياسي اليومي والمباشر. إنَّ اللحظة التاريخية الراهنة في المغرب تشهد، على عكس ما يُشكِّده الفاعلون السياسيون، مشاركة سياسية جماهيرية مكثفة. ويجب أن نُعترف أنْ هذه الحركة المجتمعية توظف لفاعلة الحركات الإسلامية، التي تتقوى على حساب الحركات السياسية الأخرى.

ما يميّز الحركات الإسلامية المغربية أنها حزبية طارئة لأنها لم تنشأ بالتوازي مع ميلاد الحزبية الحديثة، وإنما ظهرت في فترة تاريخية لاحقة. غير أنْ حداثة هذا الكيان لم تحلْ دون إحدائه انقلاباً قوياً داخل المشهد السياسي المغربي، علماً أنْ البناء المؤسساتي في المغرب لا يُكس هذا الانقلاب، سواء في المجالس الجماعية أو في البرلمان أو في غيرها من المؤسسات. والتمهيش الذي يطول الحزبية الإسلامية، بحضف أعضائها، يتم اليوم بتواطؤ مع الأحزاب السياسية المغربية الأخرى؛ ويبدو هذا التواطؤ واضحاً من خلال إجماع الأحزاب المغربية عن اتخاذ موقف صريح من التمهيش والقمع اللذين تتعرض لهما القوى الإسلامية.

أسهمت عوامل عديدة في نشأة الحزبية الإسلامية المغربية أهمها: السلفية الوطنية، وتأثير حركة «الإخوان المسلمون» في المشرق العربي، والحركات القليبية والوعظية التي وفدت من آسيا إلى المغرب، وقيام الثورة الإيرانية. ويُمكن القول إنَّ نشاط الحركات الإسلامية المغربية قد أَسِم في بدايات النضال بظاهريتين، أولاً: تحالف النظام مع هذه الحركات من أجل تفعيل إستراتيجية تقليص صف المناهضين له؛ وثانياً: شُكِّل الناس عن السياسة وإبعادهم عن الخطاب الشيعي والأفكار الماركسية. لقد كانت هذه، بحق، هي الأهداف الخفية لوجود ما يسمى بالحركات الإسلامية في المغرب. إلى جانب الأهداف الظاهرة، ألا وهي الوعظ والإرشاد والإسهام في توصيل التربية الإسلامية إلا أنْه مع اندلاع الثورة الإيرانية صرنا نعيش زمناً إسلامياً جديداً في المغرب، من أهم ملامحه تصاعداً أشكال الاحتجاج السياسي المدعّر بالخطاب البني، بحيث انتقلنا من وضعيّة التقاطب الثنائي في الصراع السياسي في المغرب إلى التقاطب الثلاثي فبعد أن كان الأمر يتعلق في هذا الصراع بخافتين سياسيتين هما الملكية من جهة، والحركة الوطنية الديمقراطية من جهة أخرى، صرنا إزاء مشهد سياسي ثلاثي الأقطاب مع بروز الحركات الإسلامية.

ويتّسم قطب الحركة الإسلامية اليوم بفوز قوي يجعل منه أقوى تنظيم سياسي دون منازع. وإذا ما أُجريت انتخابات نزيهة في المغرب، فإنْ نتائجها ستعكس، بالضرورة، قوة هذه الحركة والسؤال الذي يُمكن طرحه في هذا المقام هو: هل تُثني هذه القوة والنفوذ الجماهيري أنْ الحركة الإسلامية تنظم الأغلبية الشعبية لإجابة عن هذا السؤال لا بد من التأكيد على أنْ الحزب السياسي لا يكون قوياً وكاسحاً لأنه ينظم غالبية المواطنين: فأي حزب سياسي لا يُمكن أن يملك الأغلبية بالقياس إلى عموم الشعب وبناءً عليه فإنْ قوة الحركات الإسلامية في المغرب لا تعود إلى تمثيلها لمعوم الشعب، وإنما ترجع إلى علاقتها بالتنظيمات السياسية المغربية الأخرى: فما تحتضنه الحركات الإسلامية من أعداد يفوق أعداد المنضمين قانونياً داخل الأحزاب السياسية المغربية مجتمعة.

ويُمكننا أن نُصنّف أهم عوامل قوة الحركات الإسلامية المغربية في المستويات التالية:

أولاً: الهوية فالحركة الإسلامية المغربية أوجدت معها في بداية تشكلها، شأنها في ذلك شأن الحركات الإسلامية في العالمين العربي والإسلامي، فكرة أن الإسلام هو المركز الوحيد للهوية لا المركز الأساس ففسب.

ثانياً: القيادة الشابة فإذا استثنينا عبد السلام ياسين وعبد الكريم الخطيب، فإن باقي قادة هذه الحركات هم من الشباب وأمام احتفاء مسلك دوران النضب بالنسبة إلى الأحزاب السياسية الوطنية، أرى أنْ ذلك يصعب امتيازاً لدى الحركات الإسلامية.

ثالثاً: الخطاب التبسيطي المباشر أمام فشل النظام التعليمي، تصبح التبسيطة بمثابة الوصفاء الجاهزة التي تحدّد للإنسان أشكال تدبير حياته اليومية من كفاءات الاستيقاظ والمشي والتفكير، إلى الإجابة عن مختلف الأسئلة التي تتوارى في ذهنه وأبداً: فشل الأحزاب السياسية المغربية، وذلك من خلال عدم قدرتها على تجنيد وجودها في الفاع الاجتماعي، وفي تطاير الجماهير سياسياً من أجل تنمية وعيها بقضاياها وبالأسئلة الجوفرية في مسيرة البحث عن البديل المحتملة.

خامساً: أشباح رقة الفقر وتنامي الطبقات المهمشة والشعبية المتحركة. فقد عُدّت الحركات الإسلامية إلى استثمار هذه العوامل من أجل تقوية وجودها. والملاحظ أنْ قوة هذه الحركات تزداد كلما أَسْع الهشاش وتقلّصت دائرة المركز

ساسماً، رفضُ الحداثة. وهو رفضٌ ناتجٌ عن العجز عن التأقلم معها. والحقُّ أنَّ فئات اجتماعية تشكو إغاةً بنبوءٍ تُمنعها من التأقلم مع الحداثة. فتجد ضالَّتها في الخطاب الدينيّ التفصيلي، فتكون إزاء رفض مزبورٍ للحداثة: رفضُ حداثة الآخر (خارج الوطن)، ورفضُ حداثة الموجودين داخل الوطن.

سابقاً: تفكُّني ظاهرة الفساد في مختلف جوانب تدبير الشأن العام. وقد عثرت الحركات الإسلامية في هذه الظاهرة على فرصة لتأصيل الحسن الدينيّ كصلاح أخلاقيّ في مواجهة تجلّيات الفساد.

ثامناً: الاستدراج الدينيّ. وقد تمثَّل في توظيف الخطاب الدينيّ الدعويّ لاستمالة عواطف المتلقّي والتأثير في وجدانه. وشكَّل هذا العامل امتيازاً للحركات الإسلامية مقارنةً بالأحزاب السياسية الأخرى، لأنَّ التنظيم الحزبيّ السياسيّ يأتي في الدرجة الثانية بعد الاستدراج الدينيّ عند الحركات الإسلامية.

تُحتكم الحركات الإسلامية إلى سمات عامة، وستفصل الحديث، بدايةً، في أهمِّ ملامحها، لنرى بعد ذلك ما إذا كانت الحركات الإسلامية المغربية تنضبط لهذه السمات أم تشذُّ عنها. ويُمكننا إجمالُ السمات العامة للإسلام السياسيّ في للمستويات التالية:

أولاً: السلطة العليا للنص الدينيّ. وهي سلطة تلغي العقل والنظر وتُجِلُّ محلَّتها شعراً «أموت وبجيا النص»، حيث يصير النصُّ موطنَ السعادة للإنسان. وإذا كانت السلفية التاريخية قد اجتهدت كيما تتلوَّع النصُّ للواقع بقرعة معيَّنة، فإنَّ الحركات الأصولية سنَّت إلى تأسيس سعادة المتلقي على البحث في النصِّ مهما كان الواقع غريباً، وإلى العمل - من ثم - على نفي الواقع من أجل أن يعيش النصُّ. وقد نتج عن هذه السمة رُفَعُ الشعار المعروف «الشرعية مصدرُ الحياة»، كما تؤكِّد عنها سلوكُ دينيٍّ محدّد.

ثانياً: الطرح الضامنيّ للهوية. ويتمّ انطلاقاً من مستويين: مستوى أولٍ يُظهر فيه إدراكُ هوية الآخر بمثابة كلٍّ لا يتجرأ ولا يُقرِف الاختلاف والتّمييز. فالغرب، بهذا الفهم، هوية واحدة وموحّدة، بحيث تُصبح تلك المناهضة العامة في منظّمة الغفوة الدولية، والتي تناضل عشرات السنن من أجل قضية معتقل سياسيّ في السجون العربية، في مستوى ذلك العسكريّ في قوات المارينز الأميركية الذي يرُمي بقنبلة أو صاروخ على ملجأٍ عامريّ؛ وعلى مستوى ثانٍ، نجد عند الحركات الإسلامية فهماً مماثلاً للهوية التي تُظهر هي الأخرى واحدة وموحّدة فالسلمون - بحسب هذه الحركات - ذوو هوية مشتركة ومتماثلة مهما اختلفت أعرافهم وألوانهم وأخائهم. وتبعاً لذلك تكون تلك الفتاة البوسنية ذاتُ العُيُنَيْن الزرقائين والشعرِ الأشقر، والتي لا تُشبهني في شيء، أقرب إليّ من جاري الذي لا يصلي ولا يؤدّي الشعائر الدينية.

ثالثاً: منطق التكفير والهجرة. وهو منطق يُفني ذلك الانخراط الوجدانيّ الكامل الذي يُجرّج فيه الإنسان وسطاً عائلياً وكلَّ ارتباطاته ليُنشئ إلى إسلام أصيل. وهذا المنطق يؤدّي إلى تبني مفهوم «الجماعة» التي تُخفّط عن الآخرين حتى داخل المجتمع الإسلاميّ نفسه. ويتركّب على هذا المنطق مسالمتا الفتوى والعقاب اللتان تصيران حقّاً من حقوق الحركات الإسلامية.

رابعاً: الروح العسكرية للتنظيم. فالحركات الإسلامية السياسية من حيث تنظيمها الحزبيّ قريبة من الروح اللينينية؛ فهي تُشكِّلُ طلاب العلوم الدقيقة والنساء والحرفيّين وتُعتمد الأحزاب الإسلامية، بخلاف الأحزاب الأخرى، على العلاقة بالجسد فترويض الجسد، والقِيام بالرياضات الحربية، يشكّلان جزءاً من التنظيم. وكل هذا يُعكس الروح العسكرية والجهادية التي تُمكن مقاربتها من عدّة نواحٍ أهمّها: الاستعمال المفرط لعبارة «الجهاد»، والحضور القويّ لشخصية المرشد العام، واعتماد سبيل الشوكة والقوة والجبروت لتطبيق المبادئ الأساسية للتنظيم. وإذا ما تخلّصت أيّة حركة إسلامية عن هذه الأسباب والإكسائات، تعرّضت لضعف في بنائها التنظيمي. وهذا ما لاحظناه في الجزائر ومصر: فكّما اعتدلت القياداتُ فقدت قواعدها التي تظلّ في حاجة إلى التعبئة الشعبية ذات الهواجس الدينية.

خامساً: النزوع الاستشهادي. فالحركات الإسلامية تبني تنظيمها وإيديولوجيتها على منطق الاستشهاد الذي يحرّض على الموت ويحث على الشهادة وطبيعيّ أن يكون لكل حركةٍ سياسيةٍ منظّمة في التضحية مادام يشكّل جزءاً من كلفة النضال لتحقيق الأهداف. لكنّ الشكل يصير عندما تُصمِّع هذه الكلفة هدفاً في حد ذاتها. لذلك يُلَاحَظ عدم وجود تحليل عقائديّ لمسألة «التضحية» في أيديّات الحركات الإسلامية. فالشهادة لا تُؤنَّزُ بعيزان العقل لأنها سعيٌّ إلى الله. ومن هنا نَظّم عبارات مثل «جند الله» و«حزب الله».

ساسماً: الأهمية الإسلامية. وهذه تُظهر من خلال سلوكيات ونماذج ثقافية تركزها تعابيراً من مثل «الطاوغة» و«الشيطان الأكبر» و«التكبير».

سابقاً: انتصار البيوتوبيا على الواقع. فالحركات الإسلامية تُنتمي إلى فكر ثوريٍّ عام يريد أن تُشعّر فيه البيوتوبيا على الواقع. ثامناً: الحركات الإسلامية حركات تحديّة لا حدائيّة، تتخذ بالحدائيّة في بعدها التقنيّ وتُقصي خلفياتها الفكرية.

تاسماً: الحركات الإسلامية ظاهرة طبقية. مادامت تمثّل صوت المستضعفين وتندافع عنهم.



يبدو أن التنميط الذي طرحه الساسي عام وشامل، ويحتاج إلى قراءات متعددة لمعرفة درجة كفايته وفعاليتها لكي يطبق على الحركات الإسلامية المغربية. وقبل أن نستعرض في البحث عن هذه الإمكانية لا بد أن نحدد الإطار التاريخي العام الذي منبرّت داخله هذه الحركة وصنّفت ثقافتها السياسية، كما نصف خصوصيات الحركات الإسلامية المغربية

## الطوري

رغم أهمية الطرح الذي قدّمه الساسي، فإنّ ذلك لا ينعّنا من ضرورة الوقوف على خصوصيات كل حركة على حدة، ونُحْصِ ديناميّة تطوّرها الذاتي. فهناك مراحل تاريخيّة مختلفة تعاملت فيما بينها لتسمّ توجهات هذه الحركة الإسلاميّة أو تلك داخل المشهد السياسي. ولذلك، أرى ضرورة طرح مسألة الإطار العام الذي يتحرّك فيه تاريخ هذه الحركات، وهو إطار ليس مرتبطاً بالمغرب فحسب، ولأنّنا نمتدّ علاقتنا إلى الجالين العربي والإسلامي، مادام الأمر يتعلّق بمسألة الهوية المشتركة التي تُحمّ الأجزاء المتباعدة. إنّ المعايير التاريخيّة تجعلنا نقف على مجموعة من المتغيّرات التي لاحقت منطق التفكير السياسي الإسلامي، لذا، فإنّ ما نجّ عن الحركات الإسلاميّة في مراحل سابقة بات اليوم متجاوزاً. ولننْخُذ على سبيل المثال فكرة «حركة الأجيال»، التي أشار إليها الساسي في معرض حديثه عن خصوصيات الحركات الإسلاميّة باعتبارها حركات شابة لا تُعرف ذلك التداخّل بين الأجيال الذي تشهده الأحزاب السياسيّة العربيّة. فالحقّ أنّ هذا الطرح صار متجاوزاً اليوم، بحكم أنّ هذه الحركات نفسها بدأت تُشاهد نوعاً من التداخّل بين الأجيال، نتيجة السيورة التاريخيّة وتقدّم القادة في السنّ ويُمكن أن يستغلّ هذا التداخّل في المستقبل، والشئ ذاته يُمكننا أن نقوله عن موضوع الحداثيّة والتحديث في فكر الحركات الإسلاميّة المغربيّة، وكل ذلك بسبب التحوّلات التي عرفها الإطار العام الذي تتحرّك داخله هذه الحركات. ويُمكننا أن نؤكد أنّ هذه التحوّلات في المستويات التالية

١ - المرور من نمط تنظيمي ومعيّشي، يعني إلى نمط تنظيمي ومعيّشي مدنيّ صناعي. وقد فرضَ هذا المرور نوعاً من التطلّعات للمعاصرة لدى الفاعلين السياسيين في المغرب، رغم ما يبدو بين التباين من اختلافات في مستوى الإستراتيجية والمرجعيّة. كما انعكس هذا التحوّل المجتمعي على نمط التقيّد وعلى السلوكات الدنيّة داخل الوضعية الاجتماعيّة الجديدة. ٢ - بزوغ الفكر الفرديّ: إنّ المرور من نمط يعني إلى نمط مدنيّ استدعى استحداث ميكانزمات للفعل والممارسة. وهكذا أخذ الفكر الفرديّ لدى الجماعات الإسلاميّة يتوضّع من خلال تبني مسألة قتل الألب، غنيّة قتل المجرع، وفي هذا السياق تُظهر القطيعة الحاسمة بين تيار السلفيّة التاريخيّة وتيار الحركات الإسلاميّة؛ ولأنّ كان الخطاب السياسي الإسلاميّ الجديد لا يُكتف عن هذه القطيعة فإنّه يُدو قائمة منهجيّة في التعامل مع النصوص أو في التعامل الانتقائي مع التجلّيات الموروثة عن الإسلام ومع التنظيمات الإسلاميّة الموروثة كالتصوّف.

٣ - انتشار التعليم فبالرغم ممّا يقال عن نقائص المنظومة التعليميّة في المغرب، إلّا أنّها تمكّنت من إيجاد جيل يتمتّع بإحساس القطيعة مع الجيل السابق. وهذه القطيعة تُطرّح في شكل علاقة الجيل الجديد بالدين وبالسياسة والمجتمع، الأمر الذي يكرّس انعدام التواصل بين جيلين مختلفين من حيث التكوين والرؤية والمنهج.

٤ - تقصّ الفارق بين ثقافة النخبة وثقافة العامة. وهو الفارق الذي كان نتاجاً لتعميم التعليم وانتشار وسائل جديدة للتواصل والمستويات أخرى من الخطاب والممارسة.

٥ - بروز فكرة العالمية. وقد تجلّت في الخروج من العشيرة كفضاء ضيق تُفرض نموذجها التديني الخاص، إلى ممارسة نموذج تدينيّ يسيطر من خارج العشيرة، حيث يكون المعيار الإسلاميّ وادّاً من مجالات مختلفة.

هذا في اعتقادنا هو الإطار العام الذي تتحرّك فيه الحركات الإسلاميّة. وتطلّ الظروف السياسيّة التي أسهمت في نشأة الحركات الإسلاميّة المغربيّة واردة ويقي السؤال «هل للسلطة يدّ وراء إيجاد الإسلاميين من أجل ضرب اليسار؟» قائماً ونحن في حاجة ماسّة إلى مقترح تاريخي دقيق لأنّه الكفيل بأن يساعدنا على بلورة إجابات موضوعيّة عن هذا السؤال. وفي انتظار ذلك، فإنّ ما يجب الحرص على التفكير فيه راهناً هو السؤال التالي: هل للحركات الإسلاميّة المغربيّة، ضمن الإطار العام الذي سطرنا أهمّ تجلياته، ثقافة سياسيّة؟

لحاربة هذا السؤال/الإشكاليّة أقترح عليكم التأمّل في الوضعية التي تعيشها الحركات الإسلاميّة المغربيّة، وبغیرها من الحركات الإسلاميّة الأخرى، والتنمّط في ذلك التعارض بين المسالك داخل الممارسة الحركيّة. فالإسلاميون يجدون أنفسهم مندرجين في مواقف عدّة تمكّس بجلال التوتّر بين التطلّع الحداثي والممارسات التي تُفرضها طرق أخرى. فالاستاذ يتيم الموجود بيننا اليوم، وبغيره من المثقفين الإسلاميين المشغلين بالهمّ الفكري، كانوا قد كتبوا، منذ خمسة عشر عاماً، في موضوع «الإمارة». وهذا الموضوع شكّل إحراجاً لهم بسبب التساؤل عن علاقة الإمارة والرشد بالديموقراطية وتجلياتها. فقد كانت الظروف الثقافيّة والتطلّعات الفكرية لدى تلك الجيل تُفرض إحداث قطيعة مع هذا الموضوع، لكنّ الأبيات التي مكّنت الحركات الإسلاميّة في المغرب من ولوج الحل السياسي كانت عائقاً أمام إنجاز هذه القطيعة. والتغيير الذي يتمّ في هذا الإطار يسير بنوع من البطء والتدرّج المحتشّمين.

إحراج آخر يولاه الحركات الإسلامية المغربية، ويؤثر في مستويات تعاطيها مع المسألة الديمقراطية، يتمثل في التحالف الأوتوماتيكي الذي يجمع كل هذه الحركات تجاه حركات المجتمع المدني. ذلك أن الحركات الإسلامية المغربية تجد إحراجاً، بفعل ذلك التحالف الأوتوماتيكي، من إبداء الرأي صراحةً في قضايا حساسة، وتجد صعوبة في التخلص من الاعتقاد بأنها واحد لا يُمكن تجزئته، علماً أن عمق الصراع بين هذه الحركات الإسلامية كبير. وهذا يؤدي إلى بروز ضبابية في الرؤى وعدم تقدم العديد من المفاهيم والمصطلحات التي - وإن تم تجاوزها على مستوى الممارسة من مثل «الجهاد» و«التكفير» - فإنها تظل حاضرة في أدبيات الحركات الإسلامية

ويتجلى مستوى آخر من عدم الوضوح في ذلك التناقض الحاصل بين مجالتي الممارسة السياسية والممارسة الدعوية. ورغم أن بعض الحركات الإسلامية المغربية تمكنت من إقامة الفصل بينهما نظرياً، فإن ذلك ما يزال يطرح صعوبات عديدة على مستوى الممارسة اليومية أهمها صعوبة التوفيق بين الدعوة التي يكتسبها معجم تقليدي وأهداف تقليدية مطبوعة بسمات الدين كتصور شامل، وبين السياسة ذات الأفق الحدائي العصري المستند إلى ثقافة وتصورات حديثة غاية في الوضوح والنسقية. وقد طرَحَ هذا التناقض إحراجاً شديداً أمام الحركات الإسلامية، خاصة أن التمييز بين المجالين الدعوي والسياسي يُمكن أن يكون له تأثير سلبي في مستوى التنظيم الدعائي. بل الحق أن الأساس في مقاربة موضوع الحركات الإسلامية المغربية هو التفكير ملياً في السؤالين التاليين: كيف يتم خروج الحركات الإسلامية المغربية اليوم من الدعوة إلى الممارسة السياسية؟ وما مدى انعكاس هذا الفعل على المسارَين سلبي وإيجاباً؟

وقبل أن أختتم مدخلتي أود أن أقتدر عليكم نقطة أخرى في نقاشنا، وتتعلق بما أسماه «اليمين الإسلامي» في المغرب، وهو الاتجاه بدأ يتجلى في تحالف خطير وموضوعي مع طرف من الدولة - سواء في مستوى التعامل مع الدين وتحرير وتظليله، أو في مستوى تطهير المجال السياسي والأخلاقي في علاقته بالدين

لجيش

نتجّه في نقاشنا إلى بلورة تصور عام حول علاقة الحركات الإسلامية بأسئلة الحداثة. لكن كيف يُنظر المثقف الإسلامي إلى مسألة الحداثة؟ وكيف يتفاعل مع مفاهيم الحداثة وأسلتها؟ وهل يتكّ تصوراً بديلاً لما هو قائم في السلوك النظري وفي بدهيات الممارسات السياسية والفكرية الحداثيّة أسئلة نوجّهها إلى الأستاذ محمد يتيّم باعتباره مثقفاً إسلامياً واحد قامة حركة «الإصلاح والتجديد» الإسلامية ورئيساً لتحرير جريدة إسلامية في جريدة التجديد

يتيم

لا أجد أن أؤشر نفسي في سجال أو في ريدو على بعض الأفكار التي جاء بها الإخوان، من منطلق أن النقاش هو الذي سيُفضي في نهاية المطاف إلى بلورة مجموعة تصورات متقاربة أو متباعدة. ويجب ألا ننزوي في تدقيق قضايا قد يتولى التاريخ الإجابة عنها، خاصة إذا كانت - منذ البداية - تدفع بالجيب إلى التحصن بلغة الدفاع ومحاولتي في بعض النظم. واتصور أننا إذا انحصرنا في هذه الزاوية فلن يكون نقاشنا فكرياً وثقافياً. والحال أننا مدعوون في هذه الندوة الفكرية إلى استثمار البعد الثقافي والفكري في النقاش، لا البعد السجالي السياسي الذي يبتغي له مقاماً وميافاً.

يبدو لي من الضروري، قبل رصد بعض أجوبة الحركة الإسلامية عن أسئلة الحداثة، أن أتساءل عن ماهية هذه الأسئلة، وعن السياق التاريخي الذي نشأت وتطوّرت فيه، وعن كيفية انتقالها إلى المجتمعات الإسلامية. وعن دلالة مسالة الحركة الإسلامية لمعرفة مرافقها من هذه الأسئلة، وعما إذا كان من اللازم أن تكون أسئلتنا في العالم الإسلامي هي أسئلة الحداثة الغربية بمولاتها الثقافية والتاريخية؟

لمقاربة هذه التساؤلات لا بد من عرض مجموعة من الملاحظات حول تطوّر فكرة الحداثة نفسها:

١ - لم تتفصل ككأن مفهوم الحداثة في الغرب عن فكرة الصراع، سواء في بعدها الداخلي، بين النظام البورجوازي الرأسمالي المصاعد والنظام الإقطاعي الكنسي الذي كان أيلاً إلى التداخي والسقوط؛ أو في بعدها الخارجي بين الحضارة الغربية المسيحية والحضارة العربية الإسلامية. ويشكّل الصراع الخارجي أهم محضّر تاريخي لبدء العصر الحديث ولبدائيات تشكّل مفاهيم الحداثة وأسلتها: فالعديد من المؤرّخين يحدّدون بداية التاريخ الحديث بسقوط القسطنطينية في يد السلطان محمد الفاتح العثماني سنة ١٤٥٣م وبسقوط غرناطة، آخر معقل إسلامي في الأندلس سنة ١٤٩٢م - وهو التاريخ الذي يصادف اكتشاف القارة الأميركية. ولهذا فإن فكرة الحداثة لم تتفصل في تكوينها عن مفهوم الصراع ومفهوم الغزو، وهو ما حدا ببعض الدارسين إلى اعتبار نهاية الصراع مؤشراً على نهاية الحداثة (الدكتور أحمد عمري: نظرية الاستعداد في المواجهة الحضارية للاستعمار: المغرب نموذجا، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة رسائل جامعية رقم ٢٠، ص ٢٢٤).

٢ - تحكّم منطق الصراع أيضاً في بداية الوعي بالحدثة في العالم الإسلامي. فالألفاء بالحدثة في الغرب، مثلاً، كان لقاءً عسكرياً (تمثل في هزيمتي إسباني وحرب تطوان). وقد أدت الهزائم في مواجهة الجيش الفرنسي، التفتُّق تفتُّقاً والمنظم تنظيمًا حديثاً، ضغطاً نفسياً نَغَمَ بالعلماء، وبالفقهاء، إلى الدعوة للتحديث العسكري. وهو ما أشر على بداية تبلور وعي تحديثي يُهَيِّف إلى النضال عن الاستقلال ضد الاحتلال ولتطوير، فيما بعد، إلى نسقٍ فكريٍّ وسياسيٍّ يطول العديد من مناحي الحياة داخل المجتمع ٣ - ارتبطت الحدثة في الغرب بثلاث لحظات أساسية:

(أ) اللحظة الأولى ارتبطت فيها الحدثة بالإحياء *la renaissance*، أي أنها لم تُكُنْ نقيضاً للتراث والعقائد.

(ب) اللحظة الثانية اتَّخذت فيها الحدثة سماتٍ ماديةً قويةً تُهَيِّف إلى إنجاز قطيعة تاريخية مع التراث والعقائد والعادات والأخلاق والعلاقات بصفة عامة.

(ج) اللحظة الثالثة تُعرف بـ «ما بعد الحدثة». وتُعتبر اتجاهًا يَحْصِم مع نموذج العلوم الحديثة. ويتَّخذ النمو المتواصل والخطي للتكنولوجيا الحديثة، كما يُتَّخذ إيديولوجيا التطور المؤسسة على إسقاط خطي *projection lineaire* لتطور العلوم. وهكذا فَبَدَل مقلات التقدم والتقنية والعقل باعتبارها الأطر الفكرية التي تشكّل الجهاز المفاهيمي للحدثة، نجدنا إزاء مقلات الكائن (*l'être*) والثقافة والمعنى والمُفسّر باعتبارها أطراً جديدة للتفكير تمكّن الأفراد والجماعات والثقافات من التعايش المنسجم الذي يلائم بين ما هو علمي وما هو إنساني.

من خلال ما سبق يُمكننا أن نسجّل الملاحظات التالية:

١ - تبلورت فكرة الحدثة في سياق تاريخي وحضاري غربي. ولذلك جاءت أسئلة الحدثة وأجوبتها حول مختلف القضايا محكومةً بذلك السياق التاريخي.

٢ - لم تُشجّ أسئلة الحدثة في العالم الإسلامي عن مصيرورة ذاتية للتطور، وإنما جاءت محمولةً على أسئلة الاستعمار الغربي لهذا العالم. ولأول مرة في تاريخ البشرية، صارت العلاقات بين المجتمعات تتم على أساس التبعية المُلحقة: بين «مركز» خلق نماءه الاقتصادي وتطوره الاجتماعي والسياسي من خلال نهج لم يسبق له مثيل في التاريخ للثروات الطبيعية واستعبادها لغيرها من البشر. وبين «محيط» تابع محكوم بعلاقات القوة والتبعية التي تُرْبِط بالمركز وتُوقِف انطلاق حركته التحديثية الذاتية. واعتقد جازماً أن الانخراط في إشكالية الحدثة كما تولدت عن المصيرورة التاريخية الغربية يشكّل أحد أكبر العوائق التي تُحُول دون تحقيقنا لمشروعنا وحدائنا الخاصة. كما اتصور، بالجزء ذاته، أن جوهر مشروع حدائنا الخاصة يُبَيِّن أن يكون مشروعاً تعديرياً تجاه إشكالية الحدثة وأجوبة الحدثة الغربية.

٣ - إن مساهمة المجتمعات الإسلامية، والحركات الإسلامية بالتحديد، عن أسئلة الحدثة كما بلورتها التجربة الغربية هي أحد مظاهر أزمتنا الفكرية، باعتبار أنها تُطرح إشكالية التحديث من منطلق التمرکز حول الحدثة الغربية.

٤ - إن واقع الظلمة والسيطرة الذي يُميز علاقتنا بالغرب ذو تأثير في المجال الاصطلاحي أيضاً. فالغرب يسيطر على حقل الثقافة، ويحتكر حقل الإعلام، ويملك المبادرة في طرح الأسئلة المتعلقة بالحدثة وتجلياتها. وتبعاً لذلك أضحت «الحدثة الغربية» واقعاً مفروضاً علينا، نسكن سلوكها ونُفَرِّق فكرنا ونُخَبِنها ونصوغ طموحاتنا. فالعقلانية تُستَهِمونا وتُعتبر عن حاجتنا إلى العيش في مجتمع مختلف تماماً عن المجتمع غير العقلاني. والديموقراطية، بغض النظر عن حملاتها الفلسفية، تُعتبر عن حاجتنا إلى التحرر السياسي. لقد أصبحت الحدثة واقعاً موضوعياً، ومفرداتها أصبحت «مما عت به البلوى»، كما يقول الفقهاء: وما عت به البلوى يجب أن يكون له حكمه الخاص. وأثبتت الرفض المطلق للتعامل مع الحدثة فشله في تجارب ماضية وحاضرة بحيث أُلْمَر نتيجة عكسية، وهي الانهيار أمام النموذج الحداثي الغربي. وهذا الموقف الداعي للانفلاق لايزال يجد من يروج به في أوساط بعض الحركات الإسلامية التي لا تُشْمِل الفكر والإبداع من أجل خلق توافق بين القيم الإسلامية ومظاهر الحدثة

لكن إلى جانب هذا الأجزاء، هناك اتجاه تحديثي قوي يُعْمَل على طرح إشكالية الحدثة والتحديث من منطق قيمنا الحضارية والاجتماعية والثقافية، فيغدو التحديث من منظوره «تجديداً»، أي سعياً إلى صياغة إشكالية الحدثة وأجوبتها صياغةً تتلاءم مع المنظومة العقدية والثقافية والحضارية للأمة الإسلامية. إنها، بصورة أدق، محاولة لـ «تبئية مفاهيم الحدثة». ويُمكننا أن نشهد في هذا السياق على إسهامات مفكرين أمثال الدكتور محمد عمارة، وخالص جلي، وجوخت السعيد، والدكتور طه جابر العلواني، والدكتور يوسف القرضاوي، والمرحوم محمد الغزالي، والدكتور أحمد الرسوئي، وكل إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي. في تجديد الفكر الإسلامي وتحصينه من الفهم الحزقي للنصوص ومن الفلج والتطوُّف، وفي تسليم الديمقراطية كفكر وممارسة. واعتقد أن هذه الإسهامات أهم بكثير من إسهامات عدد كبير من مُتَحَدِّين على الحدثة ويُستَعْمَلون إلى استنساخ الحدثة الغربية في مستوياتها الفلسفية أو في أبعادها المنهجية والمعرفية. ويُمكننا في هذا السياق أن نُشِير، على

سبيل التمثيل لا الحصر. إلى أعمال الباحث الإسلامي المغربي الدكتور أحمد الريسوني في مجال «تأصيل» مفهوم الديمقراطية في بحثه حول نظرية التقريب والتخليط وتطبيقاتها في العلوم الإسلامية. يؤكد الريسوني في هذا البحث على ضرورة الاستفادة بفعالية وباستقلالية من النظم الديمقراطية وتجاربها الغنية. ومن بعض أنماطها التطبيقية الرافعة. كما يؤكد أن علينا أن نُدرك وأن نُشعر في تطوير هذه التجارب وتحسينها وتهذيبها، وأن علينا - وعلى جميع سياسيينا المتسكنين بالهوية وبالقيم الإسلامية - أن نلهم ممارسات ديمقراطية متدنية كما نُصنح في منأى عن الديمقراطية اللادينية. ويُحضر الريسوني دعوى أولئك الذين يتخوفون من الديمقراطية ويُعتبرون أنها قد تؤدي إلى قرارات منافية للدين، معتبراً أن تطبيق الديمقراطية بحق كل الشعوب الإسلامية دون زيف أو تلاعب أو إكراه سيؤدي بالضرورة إلى مزيد من تطبيق الإسلام وتعزيز أحكامه. أما إذا افترضنا، حسب الريسوني، أن الناس قد اختاروا مخالفة الإسلام والخروج عنه، فذلك يعني أن هؤلاء لا يستطيعون أن يطبق عليهم الإسلام، لأن التطبيق الإكراهي للإسلام ليس وفقاً بروح هذا الدين فالإسلام لم يُمَرِّ دولته وشريعته إلا حينما تجمعت لديه قاعدة شعبية واسعة تؤمن به وتشكل السواد الأعظم من المجتمع وإذا افترضنا أن الناس اختاروا اختياراً غير إسلامي، فذلك يعني أن هناك خللاً يُلحَق على الحركة الإسلامية أن تستوعبه وأن تُعالجه بالدعوة والتوعية وبالتربية

الامر هنا لا يتعلق، عند أحمد الريسوني، بموقف تكتيكي من الديمقراطية، وإنما هو يؤسس نظرية إلى الديمقراطية من خلال نظرية «التقريب والتخليط وتطبيقاتها في العلوم الإسلامية»، والفكرة الأساسية في هذه النظرية الموجودة في كل العلوم الإسلامية، هي أنما في ما نحن نسعى إليه من أمور علمية وعلمية قد نحقّق مبتغاناً على اكمل صورة، وقد تُحقّق في تحقيقتها، مُنْجِلاً انذاك إلى نظرية التقريب والتخليط. وهذا ما نحتاج إليه ونحن نقارب أسئلة الحداث

يتميز المغرب بتجربة فريدة في ما يتعلق بالعلاقة بين السياسة والدين، وبين العلمانية والدين. وظهرت هذه التجربة أن هناك اقتناعاً من الجانبين بأن طريقاً لا يُمكن أن يَهْزَم أو أن يُلغى الطرف الآخر. هذه هي الحصلة الأولى التي يُمكن أن يخرج بها التماثل للمشهد السياسي المغربي وأهلاً

مؤيد

أما الحصلة الثانية فتتمثل في ملاحظة الإشكالات الكبرى التي تحيط بهذه العلاقة. فإذا كانت هذه الأطراف مدعوة إلى التعايش فيما بينها، فكيف يُمكن أن يتم هذا التعايش وعلى أية أسس؟ وما هي الدوائر التي يُمكنها أن توجّه مظاهر هذا التعايش؟ أعتقد أن مسيرتي الرباط والدار البيضاء اللتين نُطقتا في السنوات الأخيرة كموقف من الخطّة الوطنية لإدماج المرأة في التنمية (وهي الخطّة التي عرّضتها الحكومة على المكونات المجتمعية في المغرب) ففادت مسيرة الدار البيضاء الحركات الإسلامية وقادت مسيرة الرباط فعاليات المجتمع المدني الطماني بفصائله المتعددة الألوان والأطياف - أقول إن هاتين المسيرتين شكّلتا، في نظري، نقطة تحول كبرى في السياسة المغربية فقد بدأ، من نتيجة المسيرتين، أن المجتمع المدني، بتشكيلاته المتعددة، يواجه نفسه. والأغرب من ذلك أن النظام، هذه المرة، لم يكن هو الموجّه أو المتكلم في هذه المواجهة فالنظام يوجد على هامش اللعبة يراقبها عن بعد، ويحتفظ من التدخل فيها مباشرة.

وبعد الدراسة والتحليل من قبل الطرفين اقتناعاً برفع موضوع الصراع، الذي هو المرأة وإشكالياتها، إلى التحكيم الملكي. بعدما تبيّن لهما أن الصراع قد يطول أكثر وإن يُفضي إلى منتهز ومنهزم، بل تستغلّ الدائرة ملأى بتسجيل المواقف والمواقف المفسدة دين تحقيق صار حُرْجِي. وتتسلّل هذه القناعة إيماناً بالعودة إلى الإستراتيجية القديمة في حلّ مشكلات المجتمع، وإنهزاماً في إيجاد وسائل جديدة تقضي إلى تكريس سلطة المجتمع المدني وقوّته لحلّ المعضلات المجتمعية التي تواجهه

لكنّ العنصر الإيجابي الذي يُمكننا ملامسته، والذي صار يتبلور بوضوح خلال فترة انتظار نتائج التحكيم الملكي، هو بداية صوغ مواقف أكثر إيجابية وتقدّمها أسفرت عنها عدّة لقاءات وندوات وكُرْسُها مقالات وحوارات إعلامية. وقد اتفقت كل هذه المواقف على ضرورة إشاعة جوّ الحوار وتفعيل الجلس مع الآخر والإنصات إليه بامعان. وهذا في حدّ ذاته يمثل معطى إيجابياً ومؤشراً دالاً على تحول في الوعي وفي التفكير وفي الممارسة السياسية والفكرية لدى النخب المغربية بشتى مقاصدها وأهدافها.

في ندوة عُقدت منذ أيام في هذه القاعة، وكان قد حضرها الأساتذات الساسي والطرزي، لاحظنا كيف أن وجهات نظر جديدة أخذت في التبلور وفي التطوّر. وكيف أن فكرة المرجعية الموحدة بدأ التخلّي عنها تدريجياً وشرّع الكل يُنظر إلى أفاق جديدة للحوار وللتعايش. لكنّ في غياب طُرْح المرجعية الموحدة تُظهر معضلات جديدة من نوع: أين يُمكن أن تُجبه الأطراف المتناحرة بعد هذا الإبعاد للمرجعية الموحدة؟ وما هي الطرق التي يتمّ الحوار عَترها؟ إن المرحلة الراهنة تستوجب الكثير من الجهد لصياغة أرضية للحوار وللواصل، وتقرّض ضرورة قيام كل طرف بتقدّر ذاتي لتجربته ولخطابه. ذلك لأننا عندما نراجع التجربة المغربية في التعاطي مع مسألة الحداث انطلافاً من الانتقادات التي وجهها الساسي إلى الحركات الإسلامية، نجد أن هذه الانتقادات نفسها يُمكنها أن توجّه إلى الحركات السياسية الأخرى في المغرب. لنبحث جميعاً عن تنظيم سياسي مغربي واحد

لم يقنص النصّ والشخص، ولم يكرس مفهوم الأممية، ولم يميز نفسه بشكل معيّن وبلباس محدّد أحياناً، فنحن هنا لا نتكلّم على الحادثة في مواجهة الدّين، ولأنّنا نتحدّث عن تعبير سياسيّ بالشّكل رموز متشابهة قد تتوفّق مصالحتها ومغايرتها متباينة. والمثير أنّ الحادثة، كما مورست في المغرب، ما تزال في حاجة إلى نقد فلسفيّ. ذلك لأنّ الانتقال من الفكر الحداثيّ الوطنيّ القوميّ إلى الفكر الماركسيّ الشيوعيّ يتمّ دون مراجعة شاملة من الفكر الثّاني للفكر الأوّل ودون دراسة تحليليّة لغاياته ولانظّمته، ولأنّنا أُنجز الانتقال عبر عملية قيصريّة أجريت بدوافع وضوابط غير علميّة. والشيء ذاته يُمكننا قوله بالنسبة إلى الفترة الحاليّة، التي تتميّز بخطاب حداثيّ ليبراليّ يُشمل شعار «الديمقراطيّة وحقوق الإنسان». فهذا الخطاب احتلّ مواقفه بإقصاء الفكر الماركسيّ الشيوعيّ وقبضه دون مراجعة نقدية يلجا فيها إلى إعادة تمثيل المرحلة السابقة بإيجابيّاتها وسلبيّاتها ومحاولة دمجها ضمن سريره التفكير الجديد في مستقبل المجتمع المغربيّ الذي يُقدّرس ألاّ يعيد إنتاج معضلات المراحل السابقة. يضاف إلى ما سبق أنّ «الحادثة المغربية» كانت دوماً مُقنّنة ومحدّدة وفق معايير الحادثة في سياقها الفرنسيّ، غير منتهية إلى الانتقادات العديدة التي كانت توجه إلى هذه الحادثة من طرف فكر حداثيّ مغاير ويُنتمي إلى سياقات تاريخيّة ومجتمعيّة أخرى.

ضمن هذه الشروط يجد الأبحاهان الدّينيّ والعلمانيّ نفسيهما أمام ضرورة البحث عن أرضيّة توافقية مشتركة للتعايش تؤمّنس على مبدأ الحوار والتفاهم. واللافت للانتباه، في سياق هذا البحث الدؤوب، أنّ الجهود التي يقوم بها بعض المفكرين الإسلاميين مثل الدكتور أحمد الرسوميّ من أجل إيجاد أرضيّة للتعايش المشترك لم تُستثمر بالشكل المطلوب من طرف الحداثيين العلمانيين والظاهر أنّ السبيل الأسهل والأبسط لبناء أرضيّة للحوار وللتعايش هو السبيل العفويّ، بل المراهنة على السبيل الفلسفيّ الذي تُقرّضه معوقات عديدة في الغرب هناك تمييز واضح بين المجال العموميّ والمجال الخاصّ. وكلّ مجال من المجالين يُنظّم اعتماداً على الممارسة العمليّة قبل الممارسة الفلسفيّة الفكرية، بل لقد وجدوا في مستوى الممارسة العمليّة حلولاً فلسفيّة للعديد من المضكلات. فإذا ما أُنزّنا إشكالات مجتمعيّة كالبطالة، وحاولنا البحث عن الحلول المُمكنة له، فإنّ هذه الحلول ستكون بالأساس حلولاً فلسفيّة وفكريّة، وستستلّص الممارسات التي ستظهر، آنذاك، بين العلمانيين والإسلاميين. وستُشبع المسألة مركزاً في معرفة كيفية توظيف التراث أو الفكر المدنيّ العلمانيّ أو التكنولوجيّا أو العولمة من أجل الوصول إلى حلّ عمليّ هامّ.

وتجب الإشارة إلى أنّ فرص إيجاد هذه الأرضيّة المشتركة اليوم بين الإسلاميين والحداثيين العلمانيين متوفرة أكثر من أيّ وقت مضى. ذلك لأنّ الفترة التاريخيّة التي نهماها اليوم تُقرّض الموقف الذي لا يُقبل الآخر. وتكرّس طموحات العيش المشترك وفق آليات الممارسة العمليّة على أسس الاختلاف والمتانسة اللذين يتمّ التعامل معهما دون الوقوع في العنف أو العنف المضادّ.

يبدو لي أنّ رهان خلق أرضيّة التعايش المشترك بين مختلف مكونات الحقل السياسيّ المغربيّ نابع من واقع الانتقال السياسيّ الذي أقام المغرب أسسه منذ سنة ١٩٩٦ عندما تحقّق نوع من التوافق بين النظام الملكيّ والأحزاب السياسيّة على أسس التعاون من أجل الانتقال بالبلاد سياسيّاً إلى مرحلة التداول السلميّ على السلطة بين مختلف تلك المكونات لكنّ تجربة الانتقال السياسيّ أو التناوب التوافقيّ لم تتمّ انطلاقاً من سيرورة ذاتيّة من التحوّل والتغيير وتركيب مفردات جديدة في حقل التداول السياسيّ، وإنّما هي قرار من أعلى سلطة في البلاد أُرثت، بناءً على خياراتها وثاكيّاتها ورهاناتها السياسيّة. أنّ يُدخّل المغرب مرحلة التحوّل السياسيّ وفق ضوابط وميكانيزمات محدّدة بعدّة. وكان من شأن هذا القرار أنّ يُخلّق نوعاً من الارتجاج داخل صفوف الحركات السياسيّة وأن يُقرّض جملةً من الإبدالات في مستوى الخطاب والممارسة معاً. وهكذا صرنا نعيش تجربة إصلاح سياسيّ مجرّاً وخاضع لتوافقات وتضافات عطلت إلى حدّ ما تجربة النضال من أجل تحديث المؤسسات السياسيّة في البلاد. وهي التجربة التي لا يُمكنها أن تتمّ دون الدعوة الصريحة إلى إصلاح دستوريّ حقيقيّ تشارك فيه كلّ الهيئات السياسيّة وكلّ مكونات المجتمع المدنيّ. إضافة بطبيعة الحال إلى النظام ممثلاً في الحكومة وأجهزتها ومؤسساتها.

ومن شأن مراجعة الاستمرار مراجعة دقيقة أن تُطلق مسلسل الإصلاحات الكبرى في البلاد، وأن تحوّل الصراع المجتمعيّ القائم بين مختلف شرائع المجتمع إلى فرصة لقيام حوار وطنيّ قادر على فرض الحلول المُمكنة بين الاستجداب بالحلول العموميّة المفروضة. وفي هذا السياق يُمكن أن تكون للحركات الإسلاميّة أدوارٌ في إيجاد الحلول الفلسفيّة والعلميّة لجموع المضكلات المجتمعيّة والسياسيّة والثقافيّة، بدل أن تتلّ جبهة مواجهة لنضالات المجتمع المدنيّ من أجل تحقيق اختياراته وتوجّهاته.

إنّ السؤال الذي يجب مقارنته هنّ: لماذا كانت الحركات الإسلاميّة المغربيّة دائماً في مواجهة مع التيارات السياسيّة الحداثيّة والجمعيّة والحقوقيّة والانسانيّة أكثر من مواجهتها للنظام ذاته؟

لببيض

**المسألة** المثير في خطاب الحركات الإسلامية، خاصة في مسألتي الديمقراطية والحدثة، أن الإسلاميين في حالة الدفاع عن النفس يوظفون خطاباً غاية في الاحتراز والاحتباس، إذ تراهم يعلنون انتمائهم إلى الديمقراطية والحدثة أمّا في حالة الهجوم والإحساس بالهزيمة، فإنهم يتكشّفون عن الخطاب المُشعّر المعادي للديمقراطية والحدثة، لذلك يبدو من اللازم العودة، كلّ مرة، إلى الممارسات اليومية للحركات الإسلامية، عوض التركيز على البيانات والتصريحات والبيانات.

يردّد الإسلاميون، يوماً، كما رنّد الأستاذ يتيم اليوم، فكرة الأخذ بالديمقراطية وبالحدثة وبحقوق الإنسان في حدود، ومن خلال وضع سقف لهذا التعامل. والسؤال الذي يُطرح في هذا المقام هو: ألا يكلم هؤلاء أن الحدثة والديمقراطية وحقوق الإنسان عبارة عن نبّيات كَلِيّة لا يجوز فيها التبعيض؟ ثم ألا يعتقد الإخوة في الحركات الإسلامية المغربية أن ما يتصورون أن بإمكانهم الاستفادة عنه في منظومة الحدثة يعلّق القواعد الأساسية التي تقوم عليها تلك البنية المفاهيمية؟ وهذا السؤالان يصدّقان كذلك على مسألة ثبوت مفاهيم الحدثة التي دعا إليها محمد يتيم في مداخلة. وقد جرّبنا هذا الخطاب التجزئتي الذي يستحضر نصف الحقيقة ويغيّب نصفها الآخر في معركة «الخطّة الوطنية لإمّاج المرأة في التنمية».

**يقم**

تحدثنا، بالأساس، عن إسهام الحركات الإسلامية المغربية في بلورة أجوبة جماعية من خلال توظيف رصيدها الفكري والمعرفي والديني والتراثي. وهذا في تصوّرنا ممكن اليوم مع الحركات الإسلامية ذات التوجّه الحدّثي لكنّ عندما أقول «حركات إسلامية ذات توجّه حدّثي» فلا بد أن أضع لها سقفاً محدّداً، إذ لا أتصور يوماً ما أن مغربيّاً عندما يفكر في الحدثة يستحضر معها تلك الحمولات الفلسفية اللابكنية أو الإلحادية لبعض تجلّيات فضايلها. فسّحت في الغرب، فإنّ الدعوات التي ربطت الحدثة بهذا البعد الفلسفي ظلت دعوات محدودة؛ ولهذا جاءت فلسفات تهوّف إلى إعادة التوازن في الحياة العامة للرّمزي والثقافي والمفكر. كما لا أتصور مغربيّاً، مهما بلغت درجات اعتناقه للديمقراطية ولحق الاختلاف، يدافع عن حرية الشذوذ الجنسي، فالمعارضة كلّهم مسلمون، وانتمائهم للإسلام سيظلّ حاضراً حتى دون أن يتجلّى كقناعة نظرية، لأنّه يستحضر كثقافة وكتاتمة للإجماع وللثقافة العربية الإسلامية.

**المسألة**

وهذه في اعتقادي مغالطة كبيرة. عوض أن تريد أن تتصوّر مغربيّاً يدافع عن الشذوذ الجنسي كنت أفضل أن تحدّد لنا أسباب رفض المعارضة للشذوذ الجنسي، حيث أن نرفض الانخراط في هذه الحالة الافتراضية التي تصوّر لك إمكانية تحقّقها ثمّ أنا لا أفهم معنى حديثك عن أن المعارضة يرفضون الدفاع عن حرية الشذوذ الجنسي لأنهم كلّهم مسلمون، علماً أن المسلمين ليسوا واهدين الذين انتقدوا نتائج مؤتمرات نيروبي والقاهرة وبيكين، بل إنّ الكرسي الرسولي قام من جانبه كذلك بتقديم تحفظات مماثلة عندما نتحدث عن الحركات الإسلامية المغربية، فإنّ الأمر لا يتعلّق بالصق ويحبّ الوطن، ولا حتى بالانتماء المفترض لمناهضة الظلم والجور وبناء الديمقراطية عند قادة هذه الحركات، ولأنّما يتركّز النقاش في أن هذه الحركات وقادتها يُخفّرون في موقف ثقافي سيّئ إلى نتائج لن يتبنّاها هم أنفسهم من ضبط عواطفها - والتجربتان المصرية والجزائرية شاهدتان على ذلك. وقد ثبت أن المثليين لهذه الحركة يلتزمون خطاباً شعبويّاً في مواجهة توبة معيّنة مستعدّين للتفاعل مع هذا الخطاب. لكنّ بعد أن يُخرّج المارّة من عقله، فإنّ يستطيع هؤلاء التحكّم في هذه الحركة. وفي هذا السياق أنسأل: هل يعني هؤلاء القادة يُقلّ المسؤولية التاريخية المكافاة على عاتقهم وهم يندرجون في هذا الموقف الثقافي الذي ثبني عليه هذه الحركات؟

عادة ما يُقال إن الحركات الإسلامية المغربية لا تلتجئ ثقافة العنف والتكفير، وتُخفّل البيانات والبيانات الصادرة عن قيادات الحركات الإسلامية بخطابات اعتدالية لكنّها عندما تتألم الممارسة فإنّها تنفجج بعكس ما يدّعي في هذه الخطابات. وأريد أن أركّز، في سياق الحديث عن الممارسة، على المظاهرات والمسيرات التي شهدناها المغرب في السنوات القليلة الماضية. فقد عشنا في هذه المظاهرات، كتنظيمات سياسية وحركات حقوقية ونسائية، إلى الاتفاق على تنظيم مظاهرة موحّدة، غير أنّنا فوجئنا في آخر لحظة بنزول الإسلاميين إلى المظاهرة بشكل مستقلّ. وهذا السلوك يؤشّر على موقف ثقافي يميل إلى الخروج عن الجماعة. وهذا الخروج ذاته إلا يعني تكفير هذه الجماعة، وإنّ بشكل مُشعّر؟

**يقم**

(مقاطعة) أيّني ذلك أن هذه الجماعات ليس من حقّها تكوين كياناتها السياسية المستقلة، وأنّها إذا شات ذلك نُعتت بالمارقة عن الجماعة؟

**المسألة**

أحدث هنا عن نشاط جماهيريّ علنا جميعاً على تنظيمه، كما اتفقت فيه على أشياء محدّدة كانت ملزمة لنا جميعاً. ففي مسيرة التضامن مع كلاك الشعب الفلسطيني الأخيرة وقع الاتفاق على حمل لافتات موحّدة من توقيع والجمعية المغربية لمساندة الشعب الفلسطيني. وقد التزم الإسلاميون بذلك قبل غيرهم. لكنّ المفاجأة جاءت من حقل الإسلاميين للانفتاح تُحتمل بعض الآيات القرآنية، والتي اعتُبرت خارج نطاق حمل تشبيرة «الجمعية» لأنها ببساطة جزء من القرآن الكريم.

وعندما تتأمل مضمون هذه اللافتات نجدها تركز على الآيات التي ورد فيها نَجْرُ اليهود في القرآن، غير ابهين بثمة يوجد، في مقمّة السيرة. المناضل السياسي المغربي اليهودي أبرهام السرفاتي مدفوعاً على كرسية المتحرك ليست هذه رسالة واضحة تؤثر على ثقافة اللاسام؟

إن الغاية من المظاهرة كانت إبلاغ رسالتين واضحتين إلى الرأي العام الدولي هما أولاً: أن هناك اعتداءً على الإخوة الفلسطينيين؛ وثانياً: أن هناك إجماعاً وطنياً مغربياً حول القضية الفلسطينية. غير أن الإسلاميين طوال السيرة كانوا يربون شعار «الله أكبر»، وهو شعار لا ينطوي على أي مطلب للامم المتحدة أو للرأي العام، بقدر ما هو شعار يقين المشاركين الإسلاميين في المظاهرة من خلاله أنهم يتشون إلى الإسلام فهل يحتاج هؤلاء، دوماً، إلى الإعلان عن انتمائهم إلى الإسلام كلما كانت هناك مناسبة أو تظاهرة أو لقاء جماهيري؟ ثم أمام من يظنون عن هذا الانتماء، حين نجتمع ككنا كمسلمين للتضامن مع الشعب الفلسطيني؟ ليست هذه، أيضاً، بذرة للتطوّر في ممارسة الحركات الإسلامية المغربية؟

أشرت سابقاً إلى عنصر الأممية الإسلامية باعتباره السمة اللازمة للحركات الإسلامية عموماً. إلا أن هناك من يقول، من داخل الحركات الإسلامية المغربية وفي مستوى الخطاب النظري، إن حركتنا الإسلامية المغربية تنتمي إلى صلب الواقع وتتطور معه. لكننا عندما نختبر مستوى الممارسة، فإننا نجد الأمر يخطف. ولهذا أعود، مرة أخرى، إلى مناسبة السيرة التضامنية مع الشعب الفلسطيني لأشير إلى أن إخواننا في «حركة العدل والإحسان» كانوا قد أجبروا المساندين، باختلاف شرائحهم والوانهم وأجهاثهم، على الاستماع إلى صوت الشيخ أحمد ياسين زعيم حركة «حماس» من خلال مكبر الصوت السنا، بهذا السلوك، أمام إعلان صريح عن امتداد الأممية الإسلامية داخل الحركة الإسلامية المغربية؟

بخصوص موضوع الديمقراطية نلاحظ أن خطاب الإسلاميين بشأنها واضح، فهو يقبل بها مؤثماً، وهذا ما يؤكّد عليه عبد السلام ياسين، حين يقبل صراحة أن الديمقراطية خيارٌ فسرّي ومرحلي. وقد تظهر تجليات هذا الخطاب في ممارسة المنخرطين في «جماعة العدل والإحسان» الذين يخفون من كُتُب عبد السلام ياسين مرجعاً أساسياً لتنشيط المناضلين ولكونهم، لمن ما نتجته الجماعة من أدبيات ومرجعيات وهو ما يؤكّد غلبة الطابع السوفي على الجماعة، وغلبة علاقة الشيخ بالمرید

ما ذكره الساسي يدعّم فكرة البحث عن أرضية للتعايش بين التنظيمات السياسية الإسلامية والوطنانية. وهذا البحث يجب أن يتجه نحو تكريس تصالفات، وهذا قد لا يكون في صالح المغرب. فالتحالف قد يتحول إلى نواط: وهذا النواط يكون، غالباً، على حساب الحريات.

والظاهر أن قاعة الحوار والتعايش لم تُعرضها عوامل موضوعية واحدة ومستجدة فحسب، وإنما هي متجذرة في السلوك الثقافي للإنسان المغربي وهذا السلوك الثقافي يرفض الهدف والتطوّر. فسيكولوجياً ثبت أن الإنسان المغربي ليس مستعداً لتقبل فكرة العنف والتطوّر في الممارسة السياسية والثقافية. لكن، إضافة إلى هذه القناعة الثقافية، هناك شروط موضوعية تشجّع البحث عن صيغ التعايش، أمثلها التراجع الملحوظ في مستوى الخطاب السياسي العام، الذي كان يتجه منذ سنتين نحو بلورة عهد جديد في السياسة المغربية. فهناك استعداد قوي وملح لتجليات العهد القديم للحسم في الكثير من القضايا رغم وجود ظروف مواتية لحلها، كـ «الخطة الوطنية لإنعاج المرأة» في المستوى الاجتماعي انطلاقاً من ممارسات الحركات الإسلامية المغربية المعقولة والمتنوّرة.

أشار الساسي إلى علاقة الإسلاميين ببسطة الديمقراطية والحداثة، وأكد أنهم في حالة النفاق يتبنون خطاباً مناهياً للديمقراطية وللحداثة. وفي حالة الهجوم نجدهم يترارون من تلك الخطاب. وأنا أستاذ. وما دليل الساسي على ذلك؟ وإذا كان لا يؤمن بالبيانات والتصريحات والبلافات السياسية، فيماذا سيؤمن. علماً أن المكتوب هو الذي يُخدّك ويستقر ويتفاعل معه الناس؟ وقد يتساءل البعض: وما الذي يضمن عدم الانزلاق في ممارسات الحركة الإسلامية؟ وأنا أجيب حاسماً الديمقراطية ذاتها. فالانزلاق والتطوّر يقعان عندما يكون هناك كبت سياسي. فما وقع في الجزائر من انزلاق صيغ صنيعة وكانت ورائه أيار خبيثة: فقد فرض على المشتل أن يتطوّر حين فُتح وسُحبت من أمامه كل إمكانيات التواصل والتأطير. فماذا أنظر من حركة رمي قائلها في السجن، وخوصص تنظيمها حصراً عنيقاً؟ يجب أن نُقرّف بأن تجربة الاعتدال داخل الحركات الإسلامية مستهدفة من أطراف متعدّدة.

قد اختلف معك جزئياً في هذه الفكرة. فقد عاشت التجربة الجزائرية، بل شامت الصندف أن أكون في الجزائر وقت اندلاع الأزمة. واستطيع القول إن الأزمة الجزائرية، وإن كانت أطراف عديدة أسهمت في صنعها، قد تغذت بطريقة مباشرة من خطاب بعض القوى الإسلامية نفسها.

الطوزي

يقيم

الطوزي

لا أؤكد أن الحركات الإسلامية في حاجة إلى تطوير خطابها. وإنت نكم أن الخطاب السياسي لا يُصنَع صنعاً في مختبر ثقافي أو فكري، وإنما يولد داخل جو الحرية والديمقراطية. فلما عندما اجلس حول هذه المائدة وأسمعك وتسمعني، وعندما أصبح مسؤولاً في مواقع داخل المؤسسات وفتح لي فرصة التخاطب مع الجماهير إعلامياً، فلما، ساعها، سلكون في مواجهة محاسبة الشعب، وسُلبَ مني إلى ممارسة سياسية مثيرة ومعتلة. إن هذا هو الإطار الذي يصنع الخطاب السياسي أيضاً، لا الإرادة الثقافية وحدها التي قد يكون لها دور لكنه غير حاسم.

إن الحركات الإسلامية المغربية حيدة العهد بالممارسة السياسية، ولذلك فتحت إلى وقت كذا صُنعت خطابها... علماً أن الانزلاق والتطرف قد يظهران في كل خطاب سياسي، فاليدوي يُعْتَق إلى ارتكاب المزالق، لكن هذه المزالق تفل وتتلاشى كلما تعمقت التجربة السياسية لدى أي حركة سياسية. لذلك فإن كل مظاهر التطرف التي أشار إليها الساسي ستبقى مؤقتة ونظرية. وحتى جماعة العدل والإحسان، تُدرج اليوم في إطار تطوير ذاتها إيجابياً والمتأمل في كتابات الشيخ عبد السلام ياسين يخلص إلى أنها تتبنى خطاباً نكياً ما دامت تُفَع بالمواجهة إلى حدود معينة لا تتجاوزها إلى الاصطدام العنيف. وبشخصياً لا أتصور أن هذه الجماعة قد تُترَق إلى مواجهة صدامية، بل إنها اليوم أكثر قابلية للتطور إذا ما توقرت ممارسات ديمقراطية حقيقية. وما ذكره الساسي من ممارسات متطرفة قامت بها بعض الحركات الإسلامية، ومثلها ما قامت به حركات سياسية حديثة ومكونات مجتمعية في مناسبات عديدة، يمكن إرجاعه إلى سبب واحد وهو أننا كمكونات سياسية ليست لدينا ثقافة «النزول إلى الشارع» فما قامت به حركات المجتمع المدني في مسيرة «خطة إجماع المرأة» من شتم وقذف للحركات الإسلامية، إلا يعني أننا أمام ممارسات متطرفة تجر إلى الانزلاق إلى العنف والتطرف في الممارسة السياسية في المغرب ليست العشرات التي تصف الإسلاميين بالإجراميين والفتنة أكثر تطرفاً من ترديد شعار «الله أكبر» ومع ذلك أقول إن الحركات الإسلامية في حاجة إلى نوع من المراس السياسي، وعُزُرُها اليوم أن مناضليها لا يقرؤون قول شيء، غير «الله أكبر والله الحمد»

ويتبقى أن مشكلتنا جميعاً، كإناث حزبية وسياسية واجتماعية وحقوقية في المغرب، هي أننا لم نتعلم بعد ثقافة الحوار. وما يلزمنا جميعاً ضرورة مزاوله تمرين مستمر ومتواصل على أسس مبادئ الحوار والديمقراطية وحق الإنسان في الاختلاف وفي التعبير عن الرأي في حدود لا تُجهر على حريات الآخر.

## الطوذي

لكن لا مُمكننا أن ننهي عن الجماعات الإسلامية استثمارها للمظاهرات استعماراً سياسياً. لنأخذ مثلاً قضية «خطة إجماع المرأة في التنمية»، ولنبداً بقرارة سيروية التعبئة التي جُهرت لخوض هذه المعركة من طرف الإسلاميين، لنخلص إلى أن الإخوة في حزب «العدالة والتنمية» كانوا على رأس التعبئة. ومررت هذه الأخيرة بمراحل عديدة، بدأت بالتعبئة الشاملة غير المتجانسة الأطراف والتي خسبت الإخوة في «العدالة والتنمية» بما فيها مواقف بعض خطباء المساجد، وانتقلت، فيما بعد، إلى التعبئة المحدودة التي كان الحزب المذكور على رأسها سياسياً وإعلامياً وجماهيرياً. وقد شككت هذه التعبئة فرصة تاريخية لاستعراض الوجود السياسي للحركة الإسلامية المنضوية تحت لواء هذا الحزب

## الساس

في سياق الحديث عن المعارك السياسية للجماعات الإسلامية، أود أن أجد طبيعة هذه المعارك ونتائجها السياسية المباشرة. فقد خاضت جماعة العدل والإحسان، ثلاث معارك أساسية. معركة من أجل استرجاع الأُحد الوطني لطبقة المغرب، وإعادة هيكلته وبنيتها غير أن هذه المعركة وُوجهت بقمع شرس وللأسف، فإن الأحزاب السياسية والإعلام الوطني لم تُفَع شراسة القمع الذي قوبلت به هذه المعركة النضالية إضافة إلى «معركة الشواطئ» ومعركة «رسالة إلى من يهت الأمر» (وهي عبارة عن نصيحة وجهها عبد السلام ياسين إلى الملك الجديد) والملاحظ أن معارك «العدل والإحسان» تُهدف إلى إضعاف الأحزاب والنظام مثلاً

أما بالنسبة إلى «حزب العدالة والتنمية»، فقد خاض ثلاث معارك أساسية هو الآخر معركة ضد الخطة الوطنية لإدماج المرأة، ومعركة ضد القروض، ومعركة قضية القرآن في المعرض الدولي الأخير للكتاب. إضافة إلى معارك صفوى. والملاحظ أن هذه المعارك كانت تُهدف إلى تقوية النظام وإضعاف الأحزاب والهيئات المنتمية إلى المجتمع المدني. فهي معارك راديكالية تجاه المجتمع، اعتدالية تجاه النظام. وقد طُورت هذه الاعتدالية في الهبة التي قتها حزب العدالة والتنمية إلى العهد الجديد في شكل لائحة عُرضت في المعرض الدولي للكتاب كُتب عليها «نريد ملكية نبوية الجذور يُحكم فيها الملك ويسود» - وهي هدية لم تقفها أية جهة في ذلك الوقت إلى الملك الجديد.

وهذا لا يعني أن هذه المعارك لا تُخضع لتكتيكات سياسية مرحلية. فجماعة العدل والإحسان، نفسها كانت تُضبط معاركها على بدول المرحلة وتكتيكاتها السياسية. ومازالت تؤكد أن مناضلي هذه الجماعة كانوا قد تغافوا إهراق العلم الأميركي في مظاهرة مساندة الشعب العراقي. والرسالة هنا واضحة إلى من يهتهم الأمر. والصلاة في الشواطئ لم تكن مجرد أداء شعيرة دينية في فضاء غير ملائم، وإنما كانت تكتيكاً سياسياً تُستعرض فيه «الجماعة» نفوذها وقوتها الاجتماعية.



## الطوذي

(مقاطعة) هذه المعركة كانت حرباً خاسرة في المستوى الحركي والتنظيمي. وأربما أترك الإخوة في قيادة الحركة كاريئة هذه المعركة على الحركة ذاتها. وبالرجوع إلى الطبيعة النفسية والثقافية للإنسان المغربي، نُشكر عمق الفهم الذي قابل ذلك النوع من المعارك التي تُستغفر اعتداليّة هذا الإنسان وثقافة المهادة التي يتشبع بها.

## السامسي

الساعة في اعتقادي أكثر من ذلك. فالتكتيك السياسي قد يُغيب بهذه الجماعات إلى حد اختلاق الوقائع وممارسة الكتب السياسي. ويُمكنني، في هذا السياق، أن أسترجع ما وقع في الجامعة الربيعية التي عُقدت ما بين ١٢ و ١٣ مارس ١٩٩٦، بكلية القانون في الدار البيضاء، ونهب فيه التكتيك السياسي بالإخوة في حركة «العدل والإحسان» إلى حدود ذكر وقائع وأشياء لا أساس لها من الصحة. وقد جِدْتُني لَحْظَتُها، وكنتُ ما زِلُا كاتباً عامّاً للظبيبة الأُجَاجِيّة. اتساع. أيّ دور يُمكن أن يلعبه التحزُّب الإسلامي في المسرح السياسي المغربي؟ وكنتُ آنذاك أؤمن أنّ الأحزاب الإسلامية إذا كانت ستفيد الواقع السياسي المغربي في شيء، فإنّها ستفيدة في الجانب الأخلاقي. وذلك بجعل الطبقة السياسيّة المغربيّة تُحترم التزاماتها وتتمتع بنوع من الصدق في خطابها وممارستها.

## يتيم

يُفَسِّر الإنسان من كلام الساسي وكأنّ الحركات الإسلاميّة تصبُّد المعارك، في حين أنّنا لا نجرى وراها. قال البعض قبل اليوم إنّ حزب العدالة والتنمية استلهم معركة خُطّة إِمَاج المرأة سياسياً من أجل أهداف انتخايبية وريغية في تحقيق اكتساح جماهيري. وأصارعُكم اليوم، بصفتي مسؤولاً في موقع القرار في الحرب. أنّ الحركات الإسلاميّة ليست بهذا التكاء الذي تُصوِّفونها به. والحقيقة أنّ حكومتنا «الرشيدة، بقاء، ربّما، هي التي قُدمت لنا فرصة سياسيّة فريدة من نوعها. وكلّ ما قننا به هو أنّنا اقتنصنا الفرص – وهذا من حقنا من منطلق المناورة السياسيّة والصراع على المواقع. واؤكّد لكم، مع ذلك، أنّنا في حزب العدالة والتنمية لا نطمح إلى أن نكون قوّة سياسيّة تُركّز التوازنات السياسيّة في البلاد، ولشّما نريد أن نكون طرفاً مشاركاً ومؤثراً في القرار السياسي. فليست لدينا رغبة في الاستبداد بالمشهد السياسيّ حتى نستثمر كل هذه المعارك التي نمت الإشارة إليها.

## الطوذي

## يتيم

(مقاطعة) وهو أمر ليس في صالحكم! وليس في مصلحة البلاد أيضاً. فمن خلال المعطى السياسيّ الراهن يبدو أنّنا نستطيع أن نُهيّمن في الاستحقاقات الانتخابية المقبلة، نون الحاجة إلى تكتيكات المعارك أو المناورات الظرفية. لكنّا لا نُقبل أن نحول إلى تنظيم سياسيّ مُهيّمن. إنّنا، في المغرب، في حاجة إلى إيجاد أرضية للتعايش المشترك تكون فيها الأحزاب الإسلاميّة طرفاً في التسيج السياسيّ العام. وهذه الأرضية يُمكن أن تتشكل نوعاً من التكامل بين الفرقاء السياسيّين المغاربة.

## موون

أريد أن أعود إلى مناقشة السؤال الذي طرحه ليبيش في بداية الجزء الثاني من هذه الندوة، ويتلخص في أنّ الحركات الإسلاميّة المغربيّة توجد في تنافس مع المجتمع ومع التيارات السياسيّة والحركات الصنائية أكثر من اصطدامها بالنظام ومكوّناته. وللإجابة عن السؤال يتوجب البحث عن موقع الحركات الإسلاميّة في المغرب مقارنة بالحركات السياسيّة الأخرى. إنّ الحركات الإسلاميّة العربيّة واجهت في سبورتها التاريخية إمّا أنظمة عسكريّة جاءت لتجاه المجتمع، وإمّا أنظمة ورائيّة احادية تُرفض التعدّد في المجتمع وتلقي كلّ تعددية منظمّة. وهذه الحركات الإسلاميّة كانت في مواجهة النظام الاستبداديّ الشموليّ، شأنها في ذلك شأن كلّ تنظيم سياسيّ آخر. وإلى جانب هذين النموذجين، هناك النظام الملكيّ العربيّ ممثلاً في المليكيتين المغربيّة والأردنيّة. والظاهر أنّ المغرب يتميّز عن الأردن بكونه لا يعيش وضعيّة استثنائية كذلك التي يعيشها الأردن في علاقته بالقمية الفلسطينيّة. والملائم للانتباه أنّ أهمّ التطوّرات التي حصلت في تاريخ المغرب من بداية القرن العشرين إلى اليوم كان وراها النظام التقليديّ لا التوجّه التحديثيّ. فالاستقلال تحقّق تحت شعار «ملحمة الملك والشعب»، والمسيرة الخضراء كانت من تدبير النظام الملكيّ التقليديّ، ومشكلة الصحراء يفكّر حالياً في بناء لها على مبدأ تقليديّ وهو البيعة. إضافة إلى أنّ العلاقة بين الحركات الإسلاميّة والحركات الطلماينة لا ينظمها، في اعتقادي، الفكر الحدانيّ. ولشّما ينظمها النظام التقليديّ الذي يَدْعُوها اليوم إلى التواصل والحوار والبحث عن أرضية مشتركة للتعايش. وكلّ هذه الممارسات تصبّ في خانة إعادة إنتاج مشروعيّة النظام الملكيّ في المغرب من جهة، وإلى خلق أرضية للتنافس من جهة أخرى. وهذا التنافس هو النقطة التي أشرت إليها من قبل. والمجهودات التي يجِب أن تُبذل هي كيف يُمكن هذه التيارات أن تتفاعل دون أن يتمّ ذلك من خلال عملية مفروضة من طرف الدولة أو من طرف المنظمات العالميّة. واعتقد أنّ الانتقال الذي يمرّ به المغرب، اليوم، يؤكّد أنّ هذه العملية هي في طريق التبلور دون أن يترتّب عن ذلك تكاليف باهظة كما حدث في دول أخرى. ففي لبنان، وقبل أن تصلّ الطوائف إلى قناعة الحوار والجلوس للتفاوض، كان الثعن باهظاً تجلّى في خمسة عشر عامّاً من الحرب والمدمار. وفي الجزائر تقاطعت التنظيمات والحركات فيما بينها لسنوات، وتُضطرّ في نهاية المطاف إلى الجلوس للتفاوض وللاعتراق المتبادل. وفي المغرب يبدو أنّنا نسير في طريق البحث عن هذه الأرضية المشتركة للتعايش وبتكاليف بسيطة. لكنّ ما نَحْتَاجه هو استثمار الإمكانيّات المتاحة للقيام بهذا البحث.

وأضيف إلى ما قاله مودن أن مرحلة الانتقال السياسي التي يمر بها المغرب تتم في إطار استبعاد النموذج الفرنسي. فرغم قرب فرنسا من تاريخ المغرب، فإن هناك محاولات في المغرب لاستثمار نماذج أخرى في علاقة الدين بالسياسة وبالحدادة، بحيث لا يبدو فيها الدين في تعارض مع الحدادة، بل توحى هذه النماذج بوجود ميكانيزمات تتمكن من تحديث العديد من جوانب الحياة السياسية والاجتماعية بمساعدة الدين، بخلاف التجربة الفرنسية التي كانت تتميز بوجود ثقافة صدامية بين الحدادة والدين. وهذه المسألة مطروحة اليوم في المغرب، سواء في مستوى التفكير أو في مستوى الممارسة الثقافية المباشرة أو في مستوى الحضور المكثف لمسألة الحوار القائم بين الاتجاه العلماني والاتجاه الديني من لدن الدول المشاركة في تنفيذ شروط هذا الحوار. انبثا وإسبانيا وأمريكا، ويوظف هذا الحوار الانتقال السياسي في المغرب، كما يبحث عن موقع الكليكة في مرحلة الانتقال هاته، رغم ما يسم هذا البحث من مزايدات سياسوية بين من يريد «الملك الذي يسود ولا يحكم» وبين من يريد «الملك الذي يسود ويحكم».

سبق أن طرحت مسألة «اليمين الإسلامي» وأرد أن أرحبها في نقاشنا حول مرحلة الانتقال السياسي والسياسيويات المرتبطة بها. وأغني باليمين الإسلامي التيار السلفي الجديد، الذي يختلف عن السلفية التاريخية. وبالرغم من أن هذه السلفية الجديدة أقلية فإنها تلحظ بجدية في إطار الاتفاق السياسي للمغرب بحكم العلاقات السياسية الخارجية للمغرب، وبفعل تواصل جزر من النظام السياسي في المغرب مع هذه الحركة السلفية. وهذه الحركة لا يمكن أن تُنظفها ضمن الحركة السياسية الحزبية بمفهومها الضيق، لأنها لا تُحل في حوار لا مع الحركات الإسلامية المغربية، ولا مع الأنظمة السياسية الحزبية الأخرى. غير أنها تسجل حضورها في مستوى التعبئة الجماهيرية والاستقطاب، وفي مستوى انبثاقها بإحدى الدول العربية التي تقدم لها المساعدة. وهذه الحركة الإسلامية الوليدة تبدو في خطابها غريبة عن الثقافة السياسية المغربية. فقد أسهمت الحركات الإسلامية المغربية، على مدى خمسين سنة، في تكوين الثقافة السياسية المغربية، وفي الحفاظ على مقبرة الخطاب الحركي الإسلامي. فما كتبه عبد السلام ياسين في كتابه الإسلام غداً كان مفهوماً ومنسجماً مع التربة الثقافية المغربية، بل إن عبد السلام ياسين نفسه الذي كان أول من بارك الثورة الإيرانية، وفرض - في المقابل - تطبيق هذه التجربة في المغرب معتبراً أن السباقيين التاريخي والثقافي بين إيران والمغرب مختلفان؛ وكُنّا ننظر النقاش المثير بين ياسين وشرعيتي في الموضوع. أما الإخوة في السلفية الإسلامية الجديدة، فإن خطابهم غامض ومغامبة غريبة. ومما يزيد من خطورة هذا التيار أنه ليس تنظيمًا متكاملًا، وإنما هو عبارة عن جماعات صغيرة منفصلة ولها أسلوب رهيب في الاستقطاب

يتيم

هناك مقولة في علم الاجتماع مؤداها أن المتطرفين يُحركون التاريخ، وأن المعتدلين يُصنعون التاريخ. وهذه المقولة تصدق على المغرب وما يهيم، كحركات سياسية إسلامية منظمة وحركات سياسية حزبية، هو تقوية تيار الوسط والاعتدال بكل أشكاله وتلاويته. أما الفتوات فستظل موجودة دون أن تؤثر في سيرورة التاريخ والحوار من أجل مؤسسة حركات الإسلامية، وإمراجها في الواقع السياسي والاجتماعي. هو الكفيل بإبعاد شبح التطرف والعنف، إضافة إلى العمل جماعياً على التفكير في العضلات الاجتماعية التي من شأنها أن تشجع على وجود تلك الفتوات التي تحدث عنها الطوسي. إن الحركة السلفية الجديدة هي حركة الهامش، وكل الإسلاميين مروا بهذه المرحلة فالسلفية الجديدة هي نوع من الظهور بالتزام زائر في الشكل واللباس، لكن مع مرور الوقت تتغير هذه الحركات من تلقاء ذاتها. لهذا، فإن ظاهرة السلفية المتطرفة في المغرب محكوم عليها بالموت سوسيوولوجياً وثقافياً.

وما يجدر الاهتمام به راهناً هو محاولة الدفع بمسألة التوافق الاجتماعي إلى حدود قصوى، وعلى أسس أرضية ثقافية مشتركة تضمن حداً أدنى من القواسم المشتركة تكون الية فاعلة في خلق التحالفات التاريخية. فنحن لا يمكننا أن ندخل مرحلة الحدادة السياسية بدون أرضية فكرية تتوافق عليها جميع أطراف المشهد السياسي المغربي. وهذه الأرضية لا بد لها من مرجعية حضارية وثقافية تكس مؤامراتنا الدينية والاجتماعية والفكرية، ولا يمكن أن تكون غير المرجعية الإسلامية.

لبيض

تبقى مسألة المرجعية الموحدة قابلة للنقاش وتحتاج إلى اختبار مدى فعاليتها في تدبير الاختلاف والتنوع اللذين يُعقّل بهما الواقع السياسي المغربي. فالمعسر الإسلامي يظل وارداً في صياغة أي مشروع يُهدف إلى بلورة أرضية فكرية للتعايش، لكن لا يجب لنا أن ندعي أن المرجعية الإسلامية هي المرجعية الوحيدة المظرة لهويتنا ولشخصيتنا التاريخية والحضارية؛ وطرح هذا السؤال الإزمي قبل بداية أي حوار في قضايا تخص الهوية، وحق الاختلاف، والشخصية المغربية، وحرية الاعتقاد، والديمقراطية.. إلى غيرها من القضايا التي لا ينبغي أن نُسند فيها إلى المرجعية الإسلامية وحدنا

أشار يتيم إلى موضوع «مفسسة الإسلام السياسي» والاعتراف بالكيانات السياسية الإسلامية تنظيمات حزبية مشروعة وإمراجها ضمن النسق السياسي العام. ونعتقد أن معضلة مؤسسة الإسلام السياسي لا يمكن لفتنصارها في الإرادة السياسية للأعبين

السياسيين، وإنما هي ترتبط بإشكالية شرعية النظام القائم في المغرب. فهذا النظام يشترع إزاء الإسلام السياسي بنوع من المنافسة في شرعية وجوده وهويته القائمات على المرجعية الدينية الإسلامية. ووجود أحزاب سياسية ذات شرعية وحيوية وتطبيقية إسلامية قد يترك التوازنات السياسية التقليدية. وإن كان النظام الملكي اليوم يميل إلى تقبل فكرة الحركات الإسلامية والتحرر الإسلامي بفعل ضغوط محلية وبنوية وتحولات عميقة في بنية المشهد السياسي في المغرب وفي الخارج، فإنه غير مستعد لأن يقدم لها اعترافاً اجتماعياً وروحياً وتنظيمياً مستقلاً. وقد ظهر ذلك في الطريقة التي تعامل بها النظام مع حركة الإصلاح والتجديد، وهي طريقة تميزت بنوع من المناورة السياسية التي تمتص حركة إسلامية دعوية ترويه داخل حزب مهيكل سلفاً وله قيادة تاريخية أسهمت في صناعة شعار من تاريخ المغرب المعاصر حتى لا تشجع لها بتشكيل حزب مستقل. وتأسيساً عليه، فإن الحديث اليوم عن تحديث الممارسة السياسية وتحقيق الانتقال السياسي الديموقراطي لا بد أن يأخذ في أفق تفكيره بموضوع شرعية التحزب الإسلامي ويتوسيع نسق النظام السياسي المغربي، وذلك بإعادة إجماع القصص والمهتس من الفعل السياسي المغربي.

والسؤال الذي نطرحه في هذا السياق هو: إلى أي حد تصورون أن الملكية المغربية قادرة على التنازل عن جزء من سلطاتها الدينية والروحية للإسهام في خلق الأرضية التاريخية المشتركة، وفي إعادة تثليث المشهد السياسي المغربي وفق شروط الهدنة السياسية؟

خلال المرحلة التي امتدت ما بين ١٩٩٩، وهي السنة التي اعطى فيها محمد السادس عرش المغرب، وبين اللحظة الراهنة، وقعت أمور كثيرة في مستوى صورة الملكية في المغرب. فقد ظهر أن هناك قابلية للتطور داخل هذا النظام السياسي التقليدي، وذلك من خلال بلورة رؤية جديدة للحكم والطبيعة التوازنات السياسية العامة، ومن خلال تبني واضح لثقافة المغايرة في مستوى اسلوب الحكم فهناك ملك جديد يمتلك اسلوباً ورؤية جديدين. غير أن هذه الأجواء تغيرت الآن، وظهرت شروط جديدة فرضت الاحتكام إلى ميكانيزمات الاستمرارية - وهذه الميكانيزمات تقوى يوماً بعد يوم تحت إلهام الطبقة السياسية التي تدعو إلى التشتيت بضوابط الاستمرارية خوفاً من شبح المستقبل ومن ضبابية الأفق. وفي ظل هذه التحويلات يتراجع اليوم التغيير في مستوى المجال العام، ليقتصر في المجال الخاص الذي يهم شخصية الملك وسلوكياته ومواقفه وتعاملاته. والسؤال الذي يطرح هو: إلى أي حد تستطيع الممارسات الجديدة والهامشية للنظام أن تعطينا مؤشرات شئهم في تغيير الوضع السياسي العام؟

نملك أن نقاشاً ساخناً عرفته بداية المرحلة الجديدة حول مكانة الملكية في النظام السياسي العام وحول التفكير في مبدأ «الملك يسود ولا يحكمه» ولا يحكمه» ولا يحكمه» ولا يسود... غير أن هذا النقاش انشعب بالصدمة التي تهادف إلى نوع من الاستثمار السياسي - واطن أن الاستمرارية في المجال العام ظلت محكمة بالتوازنات السياسية وبالمصالح الكبرى. وفي ظل هذه الاستمرارية يتم التراجع عن العديد من المؤشرات التي برزت في بداية العهد الجديد. فعندما نتأمل الصراع في موضوع «الخطة الوطنية لإنعاش المرافئ» نتفاجئ أن الملك في البداية لم يجرؤ على التدخل المباشر في الصراع، لكنه، في النهاية، سيخضع إلى ذلك تحت إلهام الأطراف المتصارعة والقوى السياسية. وهذه الممارسة سنتبعنا إلى الأسلوب القديم في حل المشاكل والتدخل في تدخل شخصية الملك لإحداث تغيير فوقي... رغم أن الملك الجديد يبدو أنه لا يسعى إلى استثمار هذا الأسلوب: فممارساته كلها، على عكس ممارسات الملك الراحل، هي ردود أفعال أكثر منها فعلاً أو محاولة تدخل مباشرة في القضايا التي تخص المجتمع.

ما قاله الطوزي يظهر بوضوح عجز الفخبط السياسية عن خلق أرضية للتعايش المشترك، واحتكامها في ممارستها إلى منطق الإقصاء. علماً أن أطرافاً أخرى (تسمى بمرکز مقاومة التغيير) تعمل على تكريس فكرة وجود أخطار آتية من الحركات الإسلامية للحفاظ على الاستمرارية وعلى مواقفها في السلطة. ونحن نتساءل: هل هناك خطر إسلامي في المغرب؟ يبدو لي أن الأمر مبالغ فيه، وأن الخطر الحقيقي الذي يهددنا هو الفراغ؛ حيث تلك الدولة التي ستنهض وسطها إذا نحن لم نبادر إلى تثبيت دعائم ثقافة العيش المشترك. وكذا نتمنى أن تسهم التجربة السياسية الجديدة في المغرب في بلورة مشروع ثقافة العيش المشترك وخلق المؤسسات الضامنة لحمايته ولشريعته. وأمام فشل هذه التجربة في مهمة بناء صرح هذا المشروع، فمن الضروري أن يتم الاستنجاؤ والاحتفاء برمزية الملك، وأن يظل المجال العام محكوماً بالاستمرارية باعتبارها مطلباً وحاجة سياسية لدى الفخبط السياسية العاجزة عن القيام بوظيفتها ومعهاها التاريخية الجسيمة.

أشكر الإخوة الاساتذة على تفضلهم بإغناء حوارنا الفكري. وأؤكد أن احتمنا واستنتاجنا في هذه النقطة كان برمزية اللثة من أجل مقاربة موضوع سياسي وثقافي غاية في التعقيد والحساسية. لقد كان منطلقاً في الحوار المقاربة الموضوعية لواقع الحركات السياسية الإسلامية، بعيداً عن سجالية المناير الحزبية وعن المزايدات السياسية المرحلية، رغم ما تخلل هذه الحلقة النقاشية من سجالية فرضنا سياقاً للتأمل في قضايا خلافية.

## سعيد عقل وإيمان الخطيب

سهيل إدريس\*

يجب أن يُنصَّب له تمثالٌ في وسط بيروت كما روى الدكتور سويد حتى إنَّ سعيد عقل، في جواب على سؤال سألته إياه الشراع حول الدعوة إلى قتل «إسرائيل» التي تحتلُّ جزءًا من لبنان، قال: «سعيد عقل يكون جبانًا إذا انخرط مع الجبناء الداعمين إلى مقاومة إسرائيل».

وهل يُشَبَّه عاقلٌ في العالم الجبان إلا مَنْ تأمر على وطنه وشعبه وفتح صدره مرحبًا بالمحتل!

وهل يكون إنسانًا سويًا من يُجْهَل أقصى طموحه أن يُلقي خطابًا في الكنيست الإسرائيلي، كما فعل أنور السادات؟ فسعيد عقل توسَّط عام ١٩٨٢، ويعدُّ مقابلاته الشهيرة مع التلفزيون الإسرائيلي، الكاتب الإسرائيلي أمارون أمير كي، يُلقي خطابًا في الكنيست. وعندما جاء الردُّ سلبيًّا، إذ لا يحقُّ لمدير رؤساء الدول إلقاء خطاب هناك، بنكَل ما في وسعه كي يُلقي خطابًا على جبل الهيكل كما فعل السيِّئ الذكر اللورد بلور صاحب الوعد المشؤوم إلا أنَّ لَمْلَمه في الوصول إلى هذا الشرف قد تلاشى مع اغتيال بشير الجميل، إذ كان مقرَّرًا أن يُلقي سعيد عقل خطابه بعد أيام. وكما يُنكَّر سلمان مصالحه في مقاله الممنون «سعيد عقل خطيبًا في الكنيست؟ فإنَّ القرآن الذي عمل سعيد عقل جاهدًا على عقده بين الفينيقيَّة والكنعانيَّة، بين لبنان وإسرائيل، نُكِر في لحظة واحدة تحت حطام المقرِّ في الأثرافيَّة».

❖ كنتُ أُرَوِّدُ معروضًا للكتاب أقامته «الرابطة الثقافية في أنطلياس» في الشهر الماضي حين سمعتُ مذيعةً في العرض يرحِّبُ بشاعر لبنان الكبير سعيد عقل، ويصفه بأنَّه فوق ذلك «شاعر العرب». وقد علَّقتُ يومذاك (أمين عام «الرابطة» الصديق عصام خليفة على هذا الترحيب، واقترحتُ عليه أن يضيف إلى صفة شاعر لبنان وشاعر العرب سعيد عقل عبارة «شاعر الجيش الإسرائيلياني».

❖ في هذه الأيام التي نتابع فيها استمرارَ شارون في ارتكاب جرائمه في أرض فلسطين، لا يسعنا إلا أن نتذكَّر أيامَ صبرا وشاتيلا، حين اجتاحت جيوشُ أرضِ لبنان عام ١٩٨٢.

وحيثُ نتذكَّر تلك الأيام لا نستطيع أن ننسى موقفَ تلك الفِئَةِ من اللبنانيين الذين هلكوا للاجتياح الإسرائيليَّ ورهبوا بالسفاح. ولا ننسى خاصةً صورةَ ذلك الشاعر اللبناني سعيد عقل الذي ظهر في تلك الفترة على شاشة التلفزيون وهو يرحِّبُ بالاجتياح الإسرائيليَّ، ويصف بيَّن بأنه بطلٌ أتى يقدِّم لبنان من «العنصرية» الدموية الفلسطينية، ويُنشد جميع اللبنانيين أن «يرهبوا بالجيش الإسرائيلياني» ويقاتلوا معه لأنَّه جيشُ خلاصٍ للبنان وليس جيشُ غزو... وكل من يقول إنَّو جيشُ غزو لا زُموه راسًا... ويوسط سعيد عقل صورةً صفحةً من جريدة لبنان التي كان يُصدرها آنذاك وقد رُحِّب فيها بدخول الجيش الإسرائيلي إلى لبنان، وأُذِف أنه لو كان يملك قوَّةً عسكريَّةً لقام الآن ليحارب مع هذا الجيش.

وحيثُ سبقَ سعيد عقل عن المذابح التي ارتكبتها السفاح شارون في صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢ أجاب «أنا مع قتل مَنْ قاتلنا وفكَّلنا، وأعني بهم الفلسطينيين». وإنَّ الكلام على مقتل عدد من اللبنانيين أيضًا في مجازر صبرا وشاتيلا ليس صحيحًا؛ فهذه دعاية فلسطينية.<sup>(١)</sup>

وبالمناسبة، كنتُ قدَّمتُ نسخةً من مقالة بعنوان «مَنْ يحاسب سعيد عقل» لكتِّبة الدكتور ياسين سويد، أمين عام الهيئة الوطنية لمقاومة التطبيع في لبنان، بحث بها إلى عتبة مسحف لبنانيَّة وعربية فامتدَّت في محطتها، مع الأسف، عن نشرها. وفيها يُشجِّب موقفَ سعيد عقل حين استقبل بالتهليل اجتياح الجيش للشاروني لوطنه.

إنَّ مواقف سعيد عقل لا تُخرُج من إطار مرض نفسيٍّ مستفحل فيه وفي بعض أتباعه الذين لم يحفظوا يومًا في حياتهم سوى بشرف مدح الصهيانية، والذين اعتبروا محتلَّ بلادهم منقذًا ويطلاً

\* أديب ومترجم ومعجميٌّ وناشر من لبنان. مؤسِّس مجلة الآراب ورئيس تحريرها (١٩٨٣ - ١٩٩١). وهذا فصل صغير من الجزء الثاني من مذكراته، نكترات الألب والحب، التي تصدر قريبًا من دار الآلاب  
١ - مجلة الشراع، ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٥.

قال عصام خليفة: فهمت عليك.

ورفضت طبياً أن أصالح الشاعر الذي كان قد رحّب بشارون  
ويظهر في إحدى حلقات قناة «الجزيرة» وهو يعلّل له.

ولم يكن من العسير أن أتذكر ماضي هذا الشاعر وموقفه من  
معادة العرب والعروبة، وأن أثبت أنّ كل قصائده التي تحدّث فيها  
عن القدس والشمام ومكّة لم تكن إلّا ضرورياً من النفاق والكتب  
وكثيرون يذكّرون أنّه قد ندم على تلك القصائد وتمنّى لو لم  
ينشرها.

III - والحقيقة أقول إنّ صهيونية سعيد عقل ليست جديدة  
وعارضة، وما يصحّح به ويقول على الدوام قديم متاصل في نفسه  
ولذا كانت معركة الأرباب معه قديمة كذلك. واليوم إذ أكتب هذا  
الفصل عن سعيد عقل تعود بي الذاكرة إلى العام ١٩٥٥ عندما  
كتب أول هوليسات: «للبنان رسالة فذة في العالم نخبنا لبننة  
العالم». فز على الاديّب أحمد أبو سعد، أحد مرافقي الأرباب في  
مسيرتها الطويلة، بمقالة أولى بعنوان «خرافة الإشعاع»<sup>(١)</sup> عزا  
فيها ما ينحو إليه سعيد عقل إلى «مرض الفطام» الذي يثيره  
على لسان طبيب نفسيّ بله «مرض يصيب عاطفة الفرد فيتمتّع من  
الوصول إلى درجة النضوج العاطفي، فيظلّ ملتصقاً بله (أو أمه)  
يستمدّ منها كلّ شيء». لا بل إنّ أحمد أبو سعد يفتّخر أنّ سعيداً  
يمارس الشيوعية والتفويض الفخاطيسوي، ويمرّ جملته بتهمج بين  
يُكشّف في الوقت نفسه ويدين ويوجّه. أصبح الاتهام ميكراً عندما  
يقول: «وهلّا انتفعت معي يا سيدي القارئ بلنّ كلمة الشيوعية  
ليست قوّة مني جلبتها معي من بيت أبي، إنّما من فعلك أدبيك يا  
إسرائيل؟»

ويؤغل أبو سعد في تهكمه أكثر فأكثر عندما يتحدّث عن المقدّمة  
التي صدر بها سعيد عقل ديوان «روح للسيدة إيفيك جريشيني  
شيبوب». فاعتبر المقدّمة «اقرب إلى الكلام الفارغ منها إلى مفدّمة  
تثير لنا الكتاب ثم لا تقتصر على الدعوة للمصنّر والتبجّع والنفخ  
[نفخ الأرنب أو اليربوع: آثار وعدا، ونفخ الإنسان نفجاً: فخر بما  
ليس عنده]».

ولقد كان أبو سعد مستشرقاً حقاً لما سقّول إليه هوليسات عقل.  
ففي مقالة ثانية كانت ردّاً على د. عبد القادر القط يقول بعد أن  
يتحدّث عن الشعر في العراق وسورية ومصر: «أمّا لبنان،  
فواحدنا على لبنان، فتشوّط وعجميّة وتغرّ بالإشعاع، وأرجو  
أن لا يضطرّني أحد إلى نشر الفصيل أكثر من ذلك، فإنّ لي في  
هذه الأجيال الصاعدة لأملاً يقف في وجه هذا اليأس ويحوّل  
بيني وبين أن أقطع الرجاء». ما كنت يوماً متدنّزاً، ولا أنا فريسة  
للكرامية. أمّا أنا أشدّ المؤمنين بالحدّ، وإنّ حتّى لبلادي لهو الذي

نقّصني إلى الكتابة وحكّني على إطلاق هذه الصرخة بوجه  
الشاردين العامينّ المُقترين ليكلّوا عن تضليلهم ويرجعوا عن  
غوايتهم، ولاكتشف للشُعْبَلين من الأجيال فراغ منْ تقدّمهم  
وإنفلاتهم.<sup>(٢)</sup> والحقيقة أقول إنّ أحمد أبو سعد استطاع باكراً  
أن يكتشف انمحاء اللعين، ويرمي تبجّعهم الذي لم يَجب لبنان  
سوى الخسائر والويلات.

IV - لم تكن معركة الأرباب مع سعيد عقل أنية أو عابرة - كما  
أشرت - بل كانت وظلّت خصوصاً فعلية تعود إلى التزام الأرباب  
معركة المصير القومي، وإلى التزام سعيد عقل للعداء للقضايا الأمّة  
والدعوة الدائمة لحياد لبنان واعتباره «قطعة سماً». ولأنّك أتذكر  
ذلك اليوم الذي جاسني فيه الصديق الراحل، الشاعر الكبير نزار  
قبياني، أيام العنوان الثلاثي على مصر، وهو يمثّل صحيفة يبعثني  
إيها قاتلاً: «خذ اقرأ ما كتب سعيد عقل عن العنوان الثلاثي على  
مصر». ومنْ يُقرّف أو سيتعرّك على تاريخ سعيد عقل لن يُلجأ  
بله داعية للاستعمار ولاعداء الأمّة العربية منْ يوم كان. ولا بأس  
أن يعلّق القارئ على موقف سعيد عقل من العنوان الثلاثي على  
مصر: «علم هذه الضمّة الكبرى، هنا، في لبنان؟ لقد عُزيت مصر،  
فما ضلّنا بذلك نحن؟ أكلمنا حدث في انحاء المعمورة حادث،  
تحرّكت بعض العناصر في لبنان؟ لقد أُمّعت مصر قنّة السويس،  
فخرقت بذلك الاتفاقات الدولية. فلنصفّ الصاب بيننا وبين الدول  
المتّية، ولنتشاق وشقنا». نحن هنا في لبنان نريد الهدوء والسلام،  
هنا في لبنان، بلر فيناغورث وهوميريس، لبنان...»

وقد أثبت هذا المقطع لسعيد عقل في روايتي «أصابنا التي تحترق  
(ص ٢٧٥)، وظلّت يومها عليه قائلاً: «سذّج أولئك الذين يفتقدون  
أنهم يُحِبّون لبنان حين يريرون عزّله على هذا النصر. لقد أصبحت  
أشكّ في إخلاصهم لوطننا، وبثّ آميل إلى الظنّ بأنهم مدفوعون دفعاً  
إلى اتّخاذ هذا الموقف الذي يُنقّصني على لبنان لا محالة...»

وأبّ أن أشير إلى أنّ الحبيب نزاراً حَمَل إليّ مع مقالة سعيد عقل  
الأنفة الذكر قصيدته «رسالة جندي» من جهة السويس، التي أعيد  
نشر مقطع منها هنا لعق دلالته مقارنة بموقف الشاعر «اللبناني»<sup>(٣)</sup>  
مات الجراد...

أَبَتَا، ماتت كلّ أسراب الجراد  
لم تبق سبيّة.

ولا ظلّ...

ولا شيخ قعيد

في الويف، في اللّبن الكبيرية.

في الصعيد.

إلّا وشارك يا أبي

١ - الأرباب، العدد السابع، تموز ١٩٥٥

٢ - الأرباب، العدد التاسع، ايلول ١٩٥٥.

في حرقُ أمواب الجرادُ

في سقفة.

في نجر حتى الوريدُ

هذي الرسالة يا أبي، من بور سعيدُ

من حيث تمتزجُ البطولةُ بالجرارُ وبالصعيدُ

من مصنع البطال أكثر يا أبي..

من بور سعيدُ

VI – ولا أستطيع أن أنهي هذا الفصل عن الاجتياح الإسرائيلي من غير أن أتذكر ذلك المشهد الذي رأيته بأم عيني يوم دخل الجيش الإسرائيلي إلى أحياء بيروت ووصل في توغله إلى محلة دعين النخبة التي كنا ومازال نسكن في إحدى بناياتها. فقد خرجنا ذلك اليوم على أصوات جنود إسرائيليين يطلبون من السكان أن يهربوا إلى الشارع حاملين ما كان لديهم من سلاح خفيف. ثم سمعنا إطلاق نار، وسمعنا صراخاً، وأتينا طُلُفاً

كانت الطفلة إيمان الخطيب، التي كان أهلها الفلسطينيون يُعانون في الطابق الخامس من بنايتنا، قد رجّت حارس البناية «أبو سميح» أن ترافقه لإطفاء مولد الكهرباء. حين سمع أبو إيمان صوت ابنته الباكّة هرع إلى السلم، ثم سمعنا صراخاً رجلاً وكا توقف الرصاص نزلنا من بيوتنا. كان أبو سميح مرمياً على الدرج، يُحمل إيمان بين ذراعيه. وكانت إيمان تودّع بيروت، وهي تُخضم نفاحة ملوثة بدمها ودمه. وكان أبو صالح (أبو إيمان) مصاباً، لكنه لم يمت شأنهما. وكان يُنهي فوق إيمان، ويكي.

كنت أتذكر، ولا أزال، الطفلة إيمان كلما استعدتُ مشهد محمد الذرة وهو يسقط شهيداً في حضن والده في فلسطين، والوالد يلوح بيده محاولاً منع الجنود الإسرائيليين من قتل ابنه، في ذلك المشهد الذي نشرته شاشات العالم كلها يومذاك. ولم أشعر بالانتقام لإيمان الخطيب ومحمد الذرة إلا يوم رأيت جيش شارون يُسحب من الجنوب تحت ضربات المقاومة التي حققت أول نصر حقيقي على العدو الصهيوني، مُثبِتة أن «ما أخذ بالقوة لا يُستردّ بغير القوة».

بيروت

V – وفي مناسبة الحديث عن ترحيب سعيد عقل باجتياح الجيش الصهيوني للبنان، لا يسعنا إلا أن نتذكر موقفَ شاعر لبناني آخر هو المرحوم خليل حاوي الذي روت الصحف أنه يوم الاجتياح لم يتحمل رؤية الصهاينة يغزون لبنان على مرأى من الأنظمة المستسلمة، فما كان منه إلا أن تناول بندقيّة صيد كان يفتتها وأطلق منها رصاصة على رأسه فخر قتيلاً، فكان من أوائل الذين سقطوا احتجاجاً على اجتياح العاصمة العربيّة الأولى بعد القدس وعلى الضعف الذي وصل إلى الأتة في مقابل هذا الاجتياح.

اليسست المقارنة بين موقفَي شاعريّ من لبنان، يُثمني أحدهما إلى فكرة الانبعاث العربي، ويصرّح الآخرُ بعدائه المكشوف للعرب والعربية، اليسست هذه المقارنة ذات دلالة عميقة؟ ألا يستحقّ موقفَ الشاعر خليل حاوي وسام التقدير، بينما لا يشكّل موقفُ سعيد عقل إلا وصمة في جبين الشعر اللبناني والعربيّ؟

## من موادّ العدد القادم من الآداب

- ملف الرقابة العربيّة (١): اقرأ في هذا العدد الجزء الأول من ٤ ملفات تتناول الرقابة في المغرب وسوريا ومصر لبنان.

اشترك، كي يصلك العدد!

## إحياءات واهنة بالطمأنينة

عدنية شبلي\*

٢٠٠٢/٣/٢٩

الحفنية. يا إلهي! ما أبشع شعري، كانه وُضع طوال الليل في قلب على شكل مكث.

هذا هو. لن أصحو أبداً وأجده مصفحاً كما حين تصحو أغلب المثلثات

ثم رايت قليلاً من السواد تحت عينيّ عدتُ ووضعت بعض الماء عليهما علّه يزول، وبعدهما جففتُهما بيطة وبلطف، لكنه بقي. بعد تدقيق يائس، استسلمت، ورحتُ أرى فيه إحياءات واهنة لعينيّ تلك المرأة.

٢٠٠٢/٣/٢٣

لا أعرف ماذا كان اسمها، ولكنّ اسمها ربما كان سلمى التقينا بها بينما كنا، أنا وصحيفة فنلندية، نزور مخيم بلاطة كان كما لا يبدو منها سواد شديد تحت عينيها، لا يتماشى مع نشاطها وحماسها الجسديّين، فيبدو كما لو أنّه مجرد خطأ في المكياج.

جلستُ إلى جانب كومة من الأغنية يُصدر من همها أنثى مفزع وراحت تطيط عليها دون فائدة، فيما العتمة تحيط بنا من كل جانب. حتى الصباح الضياء والمطق بالسقف بمسمار، كان يبعث بظلام وبرودة وإحباط إلى مكان جلوسنا. ثم أخذتُ تتحدث عن ليلة اقتحام الجيش الإسرائيلي للمخيم، فلبيتها، بصوت لا يمتدّ إلى هذا العالم بصفة، مشيرةً خلال ذلك إلى الطاقات التي لقحها الجنود بواسطة التفجرات في جدران بيتها. تصرّخ من حين إلى آخر باتجاه أحفادها وزوجها المتكوم تحت الأغنية كي يهدأوا حتى تُفهم ما الذي نريد الاستفسار حوله

صرّخها والسواد تحت عينيها كأنها يرحبان لا محالة بتعب شديد لا تخضع له ولا تعترف به أساساً. إنها تتصرف بمسؤولية، تحاول الإمساك بزمام الهمم والدمار ومن ثم الإصرار على أنّ هناك شيئاً ما يستحقّ للعيش من أجله.

بعد وقت، وعلى إثر طلب للصحفية، أخذتُها في جولة لرؤية الحفر التي لم يَعمّها الجنود، لأنّ البيت احترق فجأة إثر إصابة خط

افقدتُ على اجتياح موجة شديدة من الضوء للفرقة، حتى اعتقدتُ أنّي لم ألق الستائر قبل نهائي إلى النوم ليلة أمس، ثم عدتُ إلى النوم

صحوّت مرة أخرى على اعتزاز باب الحمام بشكل عصبيّ ومفزع، وتنبّهتُ بعدما لصوت مطول المطر وارتطام قطراته بجدران البيت وزجاج النوافذ، فانتابني خوف شديد من أن يُجرّف المطر بيتي امعقول هذا؟ ثم عدتُ آنام.

صحوّت نهائياً الساعة الثامنة والثلاث تقريباً، ثم بدأتُ مباشرةً بحساب مجمل الساعات التي نمتها، مع إنقاص الوقت الذي صموتُ فيه، وحاولتُ إقناع نفسي بأنّها كانت سبع ساعات، كي انتحل إحساساً بالراحة الجسدية فأمضيتُ في يومي.

وشعرتُ بسعادة عندما دخلتُ إلى المطبخ ورأيتُ أنّ الحرن يظلو من أية أوان عليّ غسلها. يبدو أنني أحياناً إنسان لا يسّ به، قادر على أن يفعل بعض الأشياء التي تعود بالخير عليه لاحقاً. إذ إنني عندما نطقتُ المطبخ عصر أمس لم أعرف أنّ ذلك سيسبب لي مثل هذه السعادة في صباح هذا اليوم. لكنّ هل يعني ذلك أنّي لم أستخدم منذ ذلك الوقت أيّ صحن أو سكين أو حتى كأس؟ ألم انتاول أيّ طعام؟

ثم عدتُ وتذكّرتُ أنني كنتُ مدعوةً ليلة أمس إلى العشاء؛ أجل، أكلت. وعدتُ أشعر بالراحة والطمأنينة مرة أخرى

إبريق القهوة على النار، ثم دخلتُ إلى الحمام. فتحتُ الحفنية وراحت المياه تنزل بشجات وإصرار ويرد. عليّ غسل وجهي بالماء البارد كي أغلق مساماته. وهذه الرغبة في إغلاقها تعود في الأساس إلى ما أخبرتني به سيدة كانت تجلس معي في للسونا، وهو أنّ القدس مدينة قذرة جداً، والوجود المستمر في السونا يؤدي لاحقاً إلى تقطع مسامات الجلد وتسللّ التلوث إلى الجسم في طريق العودة إلى البيت.

كانت المياه لاتزال تنساب باردة. انتشلتُ بعضتها ورفعتها إلى وجهي. عندها رايتُ للمرة الأولى انعكاس في المرأة الملطقة فرق

\* كاتبة فلسطينية شابة. تعيش حالياً في القدس.

الكهرياء المركزي بشظية من إحدى القنابل التي ألغوا بها دحل البيت، ثم فروا هاربين، تاركين خلفهم النار تشتعل في حطام لم يكتمل

هي وابنائها وأحفادها أجبروا على إخلاء البيت لحظة اقتحمه الجيش، لكن زوجها بقي في اللطعة يراقبه، وعندما راه يحترق أسرع يحاول إطفاءه عبثاً، أما هو فقد اختنق وأغمي عليه، لكنه لم يمت؛ فقط حدث شيء ما لمناعه بسبب انقطاع الأكسجين عنه لفترة طويلة، وفقد عقله

تصعد سلمى الدرج أماناً لترينا آثار اللهب، والطرحه البيضاء فوق رأسها لا تعرف راحة مثل روجها، فتبهيط وتنزل وتهب وتواسيني بحلاوة ونعومة لا ترضخان لهذا اليأس الذي لا مخرج منه

كل شيء احترق، أوراقها الشخصية كلها احترقت، وبطاقة هويتها أيضاً - ويرجعها هذا أكثر، تتحدث غير مصدقة وغير مستوعبة أنها الآن بدون بطاقة، وأنا لا أترجم ذلك للصحة التي بالنسبة إليها كل هذا الدمار المادي؛ أشد أهمية من احتراق بطاقة هوية. بينما البطاقة لسلمى كانت هي الشيء؛ ربما الشيء الوحيد والآخر الذي كان يعترف بوجودها كإنسان.

تستدير لتبسط الدرج وتنهبها، وأن طرحها البيضاء تصعد وتطير وتتوجج بئثال، فتأخر قليلاً حتى تهدأ ويستقر لي النزول بدوري، وعندما يعين الوقت أخطر وأضعف قديمي اليسرى فوق الدرجة الأولى، فإذا بها تستل تحت قدمي وأوس طرفها يا إلهي، ماذا فعلت!

استدارت سلمى لي لأن طرحها العالقة تحت قدمي قد شذت رأسها إلى الخلف. لم تقل شيئاً ولم أعرف ماذا أقول. رفعت قدمي بسرعة وحاولت أن أمسك بها حتى أنفض قدرة حذائي عنها، بل علي أن أقبّلها كحدّ أدنى؛ دون جدوى. فرت. صادت تهرب في الهواء. كلتاها، سلمى وطرحتها، كانتا قد ابتعدتا عني، بينما أنا ألك داخل حرجي بقرعة.

لقد كانت تلك الطرحه الخفيفة تحفظ فوقها البياض الأخير من عتمة اللّحم، وتبعث في مثل خفتها أملاً وأهناً، فيما يملاني بياض الغيوم المنكس في السماء بسلم شديد، يزداد في كل مرة أطل فيها من نافذة المطبخ الغربية، أبحث عن نهاية لها، ولكنها لا تزال تتحرك، غيمة خلف غيمة بلا نهاية ولا هد.

٢٠٠٢/٣/٢٥

لا يهّم كم يبدو هذا الاحساس بريئاً، لكنّي بقيت ذلك اليوم الذي يحصد فيه وأحدنا حركة الغيوم المتسابة في السماء، وحركة العصافير في الانتقال من مكان إلى آخر.

انزلت عيني من السماء، وعدت أنظر إلى صف السيارات الذي كنا عالقين فيه عند حاجز بيت لحم. إلى يميني وقف رجال متراصون خلف حاجز حجري يقف أمامه جندي يقب بطاقات الهوية بين

يديه طالباً من كل واحد أن يفتح جاكبته ويرفع قميصه. إن استطاع الوقوف هناك، أفكر، وأفكر بكل الطرق الممكنة المتبقية غير هذه الطريق، وبون فائدة.

أحوّل أنظاري إلى العمار هذه المرة، وأثبتها على بقعة وحل كبيرة لا يهدّد سكنها شيء، ويتبعو حثاً مثل قطعة شوكولاتة ذاتية ولذيذة. عندما أعمل إلى البيت، أقرر: سأذهب لشراء شوكولاتة مع بندق واوز. تعود الغيوم وزرقة السماء تنعكس على وجه المياه الموحلة، فتعود إلى زخني صدور حطام البيوت التي أصيبت من جراء قصف معينة بيت لحم، حيث يبدو الدمار منذ الأزل وكأنه لم يلف نفساً حيّة ذات يوم، رغم أنني جلست قبل شهر فقط على شرفة أحد تلك البيوت، وشربت ماء. بل كان للماء طعم بيتي، قدمته لي صاحبة البيت.

٢٠٠٢/٣/٢٨

لم أكن فناناً قهوتي، وخجلت أن أقول ذلك للفنانة التي رفعت الصينية وابتعدت مع بقية الفنانين باتجاه المطبخ. قهوتي!

عدت إلى وعبي وإلى جليسي، الصحفية الفنلندية وأحد قادة «حماس» السياسيين الذي استهم لثوره، إذ لا يزال شعره مبلولاً.

قبل أكثر من ثلاثة أسابيع، في ٢٠٠٢/٣/٢٤، حاولت الحكومة الإسرائيلية اغتيال، فقام الجيش بإطلاق صاروخين أرض-أرض على سيارته التي كانت تقبّر أحد شوارع رام الله. هو لم يكن في السيارة، إنما زوجته وثلاثة من أولاده كانوا عائنين من المدرسة إلى البيت. هو كان في البيت عندما سمع صوت الانفجار وأحسار في مكانه. ثم جاءه الخبر. خرج إلى موقع الحادث، وكان قد سبقه إلى هناك العديد من الناس. شقّ طريقه بينهم واقترب أكثر، وأكثر. كان يريد أن يراهم، واقترب. لكنه لم يجد شيئاً. كل ما رآه كان أجزاء لسيارة مصطمة. لم ير أي شيء آخر. لم ير زوجته وابنتيه وابنه كانوا قد تحولوا إلى أشلاء.

قال إنه في تلك اللحظات كان يقف صامتاً يصلي داخله ألا ينهار، أن لا يفقد عقله. وحمله الناس بعيداً.

في الحادث نفسه قُتل أيضاً طفلان كانا يجلسان في السيارة الخلفية.

٢٠٠٢/٣/٢٩

عدت إلى فراشي بصحبة قهوتي، بعيدة عن المطبخ والفكار. لكنني لا ألتجع بالابتعاد، إذ بينما يركد الحث في الغلاية، يعود الخدر إلى حواسي مصحوباً بذكريات الأيام السابقة لإرادتي

٢٠٠٢/٣/٢٤

أقف بانتظار انتهاء الصحفية من الحديث مع أحد الرجال كي نغادر مخيم بلاطة. في تلك الأثناء سألت أحد الأولاد الواقفين قربي دون سبب، كم عمره، فدفّع بكل كفه المفتوحة أمامي وقال: ٥٠



سنوات.. فجأةً اقترب إلي وقال إنه رأى جندياً إسرائيلياً يدخل ويصنع دوائر في الهواء عندما ينفتخ الضخان إلى الخارج. كان الجنود قد اختلفوا بينهم أيضاً خلال موجة الاقتحامات السابقة وجسروا لمدة ثلاثة أيام ثلاث عائلات معاً في غرفة واحدة قام على حراسيتها ذلك الجندي الذي كان من المدجنين. بينما الطفل لا يزال مهوداً حتى يومنا هذا مما كان الجندي قادراً على أن يصنعه من دوائر متعاقبة من الدخان.

٢٠٠٢/٣/٢٧

عملية انتحارية بنقلها أحد ناشطي القسم العسكري لحركة «حماس» في فندق في נתانيا تؤدي إلى مقتل ٢٩ إسرائيلياً وإصابة العشرات ليلة عيد الفصح.

أشعر بضيق شديد في صدري ولا أستطيع التنفس جيداً. لا أريد أن اتحدث مع أحد. لكن بعد عشر دقائق أحاول الاتصال بصديقة لا أدري لماذا. بين الهاتف من الجهة الثانية، دون تأثير.

الضباب، الذي نطقت المعطلة، من طولكرم في موجة الاجتياحات الإسرائيلية السابقة للمخيمات، قتل الجيش ما يقارب الخمسين من أهل المخيم واعتقل أكثر من ستمائة شخص، في فترة عيد الأضحي يقول تشكيك إنه إذا ظهر مسدس في يدلية مسرحية ما، فلا بد أنه سيتم استخدام هذا المسدس في نهايتها. بينما، في الواقع، إذا فاحت رائحة الدم هنا فلا بد أنها ستفوح هناك. ومن هنا، في هذه الليلة، أذكر أن الاحتلال لم يحتلنا جسدياً فقط، بل احتل دأنا وملاها بـ «سهولة القتل». كل ما أحلم به هو ألا تكون أحلامي ببشاعة الحياة.

٢٠٠٢/٣/٢٦

انهينا العمل باكراً أوصلت الصحيفة إلى الفندق وجلست أفكر في بقية يومي. كان أمامي ما يقارب ثلاث ساعات قبل المغيب، يمكنني التجوال خلالها، إذ مع قدوم العتمة ياتي الرصاص من داخل مقعد الحمام نفسه.

رام الله؟

أشربت إلى اليسار ثم إلى اليمين، ومباشرة إلى اليسار وبعدها إلى اليمين. ثم يمين، ويسار، ويسار، ويمين، ويسار، ويسار، ولا انتبه لزيادة السرعة المتواصل إلا لحظة يبدأ اللقود بالارتجاج بين يدي. ١٥٠ كيلومتراً في الساعة، بينما السرعة المسموح بها هي ٨٠. انظر حولي في الشارع: لا مع شرطة لمراقبة حركة السير، بل لا توجد حركة سير أساساً.

إذاً، أنا الوحيدة القادرة على الحركة، أستطيع عبور الحواجز ودخول نابلس ورام الله وطولكرم والخروج منها جميعاً لأن يمزجتي بطاقة صحافة مؤقتة تمنح (على مضض) للصحفيين الفلسطينيين حاملي الجواز الإسرائيلي. بينما هناك أكثر من ثلاثة ملايين فلسطيني لا يستطيعون ذلك لأنهم محاصرون.

ومع هذا السكن وهذا الفراغ يبدو الحصار أكثر حقيقة. فجأةً، حين التفتت في إحدى المرات إلى اليسار، اكتشف أنني كنت أقود السيارة منذ وقت في الحصار المعاكس. وهكذا بدل الإحساس بالاتجاهات حل إحساس بالغربة. والان إلى أين؟

أقود السيارة ببطء في الشارع الرئيسي لمدينة رام الله. ربما إلى صديقتي وولديها التوامين؛

لحظة وصلي إليهم، بدأت صديقتي تحثني عن الأيام التي قضوها في البيت محاصرين والديابات متمركزة حول بيتهم، فشعرت أنني لا أطيق سماع قصص الحصار هذه أكثر من ذلك. لكل واحد قصة، ولا أملك إلا الإحساس بالعجز والسلام تجاهها. استأنتن وأقول إن علي المغفرة. ترافقني وبابتها وابنها إلى الخارج، فنقيب الحديقة وتتفقد الربيع والأزهار حول البيت، ثم ترفع رؤوسنا إلى السماء محاولين معرفة مكان العصافير التي كانت تفرح. ويدت الفلوجم فطناً خفيفة مقسمة إلى مريمات صغيرة، فطشارت إليها الصغيرة قائلة إن شكلها يبدو مثل الديابة

لم أفهم ماذا كانت تعصد. وأتفهمني، فغضب بنفسها أمامي تقولني بنشاط إلى الشارع خلف باب الحديقة. عندما وصلنا أشرقت بإصبعها الصغير إلى آثار الديابة على الأسفلت. كانت الأثار تشبه شكل الفلوجم. كلنا بحق مرت بديابة على السماء. جاعاً الفلوجم تبدو على ما كانت تبدو عليه. تأت لها إن السماء تغار من رام الله وتريد أن يكون لها ما يوجد عندهم! أما هي فضحكت بخجل لخدعتي البسيطة والتصقت بساقي.

عند باب السيارة وثقت صديقتي مكتوفة اليدين كلنا كانت تشعر بالبرد. عيناها تدوران كمابتها من السماء، وإلى الأشجار، وبينما هي كذلك، توهت فجأة ثم قالت: أنا تعبة جداً.

ركبت السيارة ونهبت. لا أعرف ماذا كان يمكنني أن أفعل غير ذلك.

فُتت السيارة وفي راسي تدور فكرة لحاوله أخيرة للاطمئنان على صديقة تبلغ من العمر ثمانين عاماً، على الأقل.

عندما وصلت كانت رائحة البنفسج تملأ الحديقة فرحت بابها. اغلب الأزهار كانت قد فتحتت. لا ترو. رويحت أكتب لها ملاحظة أتركها على الباب أو بين الأزهار. فجأة جاسي من الخلف صوت خطي بطيئة تبها نداء. ديا أنسة صغيرة

ابتصمت وبرت براسي. كانت امرأة كبيرة السن صغيرة الحجم ترتدي ملابس تتلام جداً والموضة الحالية. تنورة فوق الركبة، بقليل، وجزمة حتى الركبة. قالت ميمتمة جداً إنها رائتي أفرع الباب، فقالت ربما تاتي لتخبرني أن الأسد د. قد انتقلت إلى ملجأ للعجزة منذ أكثر من أسبوعين. إذ سقطت مضرباً عليها لأكثر من يوم دون أن يعرف أحد بذلك، وأعطتني عنوان الملجأ الأسد د. في الطابق الثالث، وصعدت معي إحدى الممرضات.

ماثلتا بداية احتلات مبنى مقاطعة رام الله وتحت محاصرة عرفات في أحد الطوابق.

عدت إلى المطبخ، ثم تذكرت أنني لم انتبه إلى نشرة الأحوال الجوية. ولكنّها بعد لحظات بدأت تمطر بغزارة.

لقد سقطت إنداً بتلات الأزهار من على أشجار اللوز دون أن أفرها. كل ما وددته في هذه النهاية من الحياة هو مشاركة هذا الربيع نفسه والتمتع بزهده، رغم أنني لا أعرف كيف وأين وبأي حق.

وددت أيضاً لو استطعت أن أخرج من هذه الحيادة التي وصلت إليها، حيث تناول الطعام وعدّه يتساويان، الحديث وعدم الحديث، الحب وعدم الحب، وعلى المسار ذاته، الحياة والموت. بل لم يعد يهمني حتى أصنعاني تحت الجصار. صار لا يهمني. الإحساس المللزم صار أقسى من أي إحساس بالذنب وأخطر منه؛ فإن اتصلت بهم فعلت ذلك لجرّد التأكد من أنّ عيدهم لا يزال كما هو، لا أكثر.

تركّت النافذة ورحت أفق أمام الثلاثة أفكر. بعد تفكير لا بأس به، وجدت أنّ كل ما أملكه من أفكار لدعم ناسي في هذه الفترة هو تغيير كلمة السر من اسم آخر صديق لي إلى «عرفات». لكنني لا أعرف بماذا أعرفه حتى إذا ما نسيت كلمة السر أعود واتذكرها.

القدس

كانت تجلس صامتة بصحبة عدة سيدات يشاهدن ممّا فيلماً مصرياً. كان شعرها طويلاً على غير عابته، فهدت أكثر وحدة وإهمالاً. حتى نظراتها من خلف نظاراتها أوجت بالوحدة والاستسلام.

لم تكن مفاجئتها بي أقل من مفاجتي بها، وسالتي مباشرة كيف عرفت بمكان وجودها. بعدما أخبرتها، لم يعد هناك موضوع للحديث كان كل شيء حزناً ومسناً. وددت لو اختطفها من هناك فأعزها عن كل هذا. إنها د. الخاصة، لا إحدى النساء المسكّات في الملجأ.

لكنني رحت أعطى عيني بشاشة التلفاز.

بعد وقت مدّت إحدى السيدات يدها باتجاه الأزهار البلاستيكية الموضوعة على طاولة في مركز الغرفة وأخذت تتحسسها، ثم تركتها قائلة: «مسارة أنها ليست أزهار حقيقية».

٢٠٠٢/٣/٢٩

كانت الساعة تقترب من التاسعة، فاشططت جهاز الراديو لأسمع أيضاً حالة الطقس، فريما كانت هناك أخبار حسنة بخصوص الشمس.

## من مواد العدد القادم من الآداب

- الدولة الديمقراطية العلمانية في فلسطين التاريخية: إقرأ ٧ إسهامات عربية في ضرورة إحياء هذا الهدف الأنبل على أنقاض أوسلو وأخواتها

## إلى أين في معركة صراعنا، معركة الأرض والإنسان؟

رشاد أبو شاور

### أوسلو - البارحة واليوم

في آذار من العام ٩٤ نشرت مجلة الأرباب البيرونية العريقة نصّ ندام وجهته إلى المثقفين من أبناء أمتي العربية. ومما قلته في ذلك النداء: «إن مواجهة كامب دافيد تحتم بالضرورة نقد الساداتية، التي ليست هي السادات كفراد».

وقلت: «هذا الخراب لم يهبط على حياتنا الفلسطينية والعربية بالمصادفة. وإذا فلا بدّ من دراسة أسبابه... لنصل إلى استخلاصات جدية تمكّننا من لفظ هذا الخراب، فلسطينياً وعربياً...».

ومما قلته في ذلك النداء: «اتفاق أوسلو، والتوقيع في واشنطن، صفقة سوق. هذا ما أوسلوا قضيتنا إليه! قول هذه هي أهداف شعبنا! وهل بهذا تتحقق حرية، وكرامة؟».

واختتمت ذلك النداء بالكلمات التالية: «فلنواصل، نحن المثقفين والمبدعين والمثقفين العرب، في كل قطر من أقطار وطننا العربي الكبير، ملاحقة اتفاق أوسلو - واشنطن، والفكر السياسي الذي أنشأه إليه، والمصالح والدوافع والارتباطات. لأنّ هذا أخطر من كل ما تقدّم، وأكثر ضرراً، وتزويراً، وفحشاً».

هذا ما كتبه قبل عقد من الزمن تقريباً، عندما ارتفعت أصوات المثقفين يُفترض أنهم يتمتعون بدرجة عالية من الحصافة والخبرة والأطلاع السياسي، تحضن على الانضباط في عملية «السلام». مبررة هذا الطرح بقدان العرب لطيفهم الاتحاد السوفيتي، الذي انهار، ممكّن الولايات المتحدة الأمريكية من الانتصار ومن الهيمنة على العالم. ولقد كان ممّا ساقه المتحمسون لأوسلو أنّهم إنما يؤمنون إلى إنقاذ الأرض، لأنّ اقتلاع المستوطنات، وجرمان الكيان الصهيوني من التوسع، وحصولنا على دولة فلسطينية، كل ذلك سيكون حدثاً تاريخياً يذمّ معاناة شعبنا الفلسطيني ويثبت في أرضه!

لن نضرب في بنود اتفاق أوسلو، الذي يتلخّص في إنهاء الانتفاضة الفلسطينية الأولى (وهو ما حدث فعلاً)، وكسب الوقت لتدمير حياة الفلسطينيين، والاستحواذ على الأرض في ظلّ عملية

سلام، تتمّ والعرب في أدنى حالات ضعفهم، والفلسطينيون يفاوضون بفتح من نظم حكم مهثا التلخّص من القضية الفلسطينية للتدرّج الحفاظ على امتيازاتها، وذلك بتقديم المزيد من الولاء والطاعة للولايات المتحدة الأمريكية، والفرد بالرضى الإسرائيلي.

لم نشارك من روجوا لحالة الانكسار أراهم، ومبرراتهم، التي استغلّوا بها وهم يتقدمون إلى هاية التفاوض مع عدوّ خبيث مستغفٍ بالدعم الأمريكي الملق. ولقد رأينا أنه بمقدور شعبنا الفلسطيني أن يحصل على ما هو أفضل بكثير من اتفاق أوسلو.

ومع ذلك، وحتى لا نضيع في مناقشة أوسلو نظرياً، فلننا ندعو إلى رؤية أوسلو على أرض الواقع، على الأرض الفلسطينية التي نُقّلت الجرفات أشجار حقولها، وتجتاحتها شائلاً طرّاً التلافية للمستوطنات التي لم يتوقف بناؤها رغم وعود أوسلو، ورغم زفّ بشائر ولادة شرق أوسط جديد، بحسب شمعون بيريس، العمالي، وزير خارجية شارون الحالي، ومجرم قانا، وصاحب الدور المشهود في تمكين «إسرائيل» من امتلاك شُغال ديمونا النووي الذي سلّح الكيان العدواني بكثير من مئتي رأس نووي مسلّط على المدن العربية، مشرقياً ومغربياً.

لقد ضاعت الأرض بعد أوسلو، أيّ بعد إعلان السلطة الفلسطينية، وبعد افتتاح مكاتب وسفارات لـ «إسرائيل» ورفقة علمها في سماء عواصم عربية عريقة. وما لم تكن دولة العدو قادرة على تحقيقه في زمن الانتفاضة، حققته في زمن «السلام».

### الأرض هي التعمية

منذ بداية هذا الصراع مع عدونا، في نهايات القرن التاسع عشر، كان اللغز يُختصر بكلمة واحدة: «الأرض». فالصهيونية التي تسالت إلى وطننا أدت أن فلسطين أرض بلا شعب، وأن اليهود شعب بلا أرض. وهكذا التفت الأسطورة التوراتية بوجد الله (الذي يخصصهم وحدهم) بالأكاذيب الدعائية المستندة إلى دعم غربي، بريطاني خاصة.

♦ روائي وقصاص ومناضل فلسطيني

وبالتعاون مع الاستعمار البريطاني الذي اجتاحت فلسطين عقب انهيار الرجل المريض تركيا، ومع اندفاع قوات الجنرال اللنبي، كان يعدّ بلفور - لا وعد الرب - قد انتقل نكبة جديدة، محمولا بقرّة بريطانيا ومتسللا برعايتها، الامر الذي ادى إلى ان يهب الشعب الفلسطيني وينفض. وإلى هذا الشعب وقد ثوار عرب، منهم الشيخ عز الدين القسام، وسعيد العاص، والافوف من المناضلين والمجاهدين العرب الذين رأوا بياض فكرهم أنّ فلسطين هي أرض للمركة الإستراتيجية مع مسكر العداة من صهيانية وإنكليز وفرنسيين

والأرض هي الكلمة المقدسة التي تختصر الصراع وهي الكلمة المعمة بالدم والنضاميات والبطولة وروح الغداة على امتداد القرن العشرين. وما نحن نمضي في القرن الحادي والعشرين، الذي تريده أمريكا قرناً أمريكياً، ويريدوه العربي الفلسطيني قرناً لحريته، وسيادته على أرضه، ولهمزمة الشروع الصهيوني المعاجز عن بسط هيمنته رغم كل ما يُخضع في عروقه من دم مالي وعسكري وسياسي وبيلوماسي، ورغم كل عوامل التفكك العربيّة

كان رهاق عسكنا الدائم هو أنّ الفلسطينيين الذين يولدون في الخافي سيسبسون فلسطين بعد موت الآباء وسيدويون، وأنّ الفلسطينيين الذي يولدوا تحت الاحتلال سيتلاشون وسيتميزهم وإخضاعهم. فعاداً حدث؟

الفلسطينيون تمت الاحتلال تضاعف عددهم مركات، حتى إنهم نفيوا على اللبون، في حين كان عددهم ١٥٠ ألفاً عام ١٩٤٨. والفلسطينيون في المنافي لم ينشروا ولم يذروا، وقاوموا مشاريع التطوين في سبناه عام ٥٥، ومشايخ تهجيرهم إلى كندا، وأستراليا ومشايخ تطويعهم في قرى بُني خصيصاً لهم في الضفة الشرقية من الأردن وفي الضفة الفلسطينية نفسها. لقد تشبّروا بالمخيم، وكان شعارهم الضمني، والمعلن: من هنا، من تحت النيام، إلى فلسطين.

من المخيم تفرّجت الثورة الفلسطينية المعاصرة في العام ٦٥، ومن المخيم - مخيم جباليا - تفرّجت الانتفاضة الكبرى عام ٨٧. وفي المخيم تدور الآن معركة مصير بين الدم الفلسطيني واليدع والطائرة والصاروخ الإسرائيلي.

والمركة عنوانها الأرض. ويطلق الإنسان الفلسطيني العنيد، الذي لا يُؤمّر لأن ابن الأرض، وحافظ أسرارها، والضارب جذوره فيها. الفلسطينيون الذين أراد لهم العدو الصهيوني أن يركعوا له، وتمسك ثقافتهم وهويتهم، ويرفضوا بالتحويل إلى غريبا. في أرضهم، كما لو أنهم الهنود الحمر في المعازل التي حشرهم فيها الرجل الأبيض الأمريكي، هؤلاء الفلسطينيون هم أبطال الأرض وأبنائها ومحاتها.

لم ترهبهم المجازر. وتمسكوا السجون، وسياسة التمييز العنصري. وصمدوا في الجليل والمثلث وحيفا والرملة واللد وعكا الشريفة، وعلى اسم الأرض ساروا، متحنيين منها التيممة التي تصون

ذاكرة الأجيال الطالعة، والقوة التي توحدتهم، والعنوان الذي يعلونه ويثبسون تمشة مرفوعي الرؤوس.

وفي ٢٨/٩/٢٠٠٠ فجر شعبنا الفلسطيني انتفاضة الأقصى، التي كانت ستتفجر سواء دس المجرم شارون المسجد الأقصى ام استجاب للنصع بالامتناع عن الزيارة. فلقد استفحلت سياسة مصادرة الأرض الفلسطينية، حتى صارت فلسطين أشبه بيساطر يعلو من تحت اقدام شعبنا. ولقد أراد قادة الكيان الصهيوني السلطة الفلسطينية أن تتحول إلى آلة لقمع المجاهدين والمناضلين، تماماً كما كان سمع حداد وجماعته المملاّ يفعلون في جنوب لبنان. غير أنّ شعبنا بخبراته لم يستجب لمؤامرة استتراجة إلى حرب أهلية ومضى لمواجهة عدوه.

انتفاضة الأقصى هي انتفاضة تصحيح مسار اوسلو، وتغيير للواقع الذي نجم عنه. والهدف من هذه الانتفاضة المباركة: دولة فلسطينية كاملة السيادة، عاصمتها القدس الشريف، مع ضمان حق العودة للأجتن الفلسطينيين.

### حق العودة

إنّ حق العودة حق مقدس، وشرعي، وقانوني، ويمكن. فهو مقدس لأنه حق شعبنا في أرضه. وهو شرعي لأن الشرعية الدولية بحسب القرار ١٩٤ أقرته. وهو قانوني لأنه ينسجم مع القانون الدولي الذي يضمن حقوق البشر في أرضهم وحياتهم الكريمة في أوطانهم. وهو ممكن كما كتب الدكتور سلمان أبو ستة، الذي أثبت بالوثائق والأرقام أنّ القرى الفلسطينية التي شُردت عام ٤٨ فارغة تماماً من اليهود، وأنّ اليهود يتجمعون في المدن لأنهم ليسوا أبناء الأرض وهم يستغلون شغل زراعيين من الفلبين وتايلاند وبعض دول أوروبا الشرقية ليشتغلوا لهم.

أذكر بحملة الهجرة التي نظمها الكيان العنصري الصهيوني عام ١٩٩٠ مستغلاً انهيار الاتحاد السوفيتي، بحيث تمّ شحن حوالي مليون شخص، فيهم اليهودي، والمسيحي الأوروذكسي الهارب من المجاعة، والباحث عن مكاسب للعيش أفضل. وأذكر بأنّ شارون قبل فترة بسيطة أعلن أنه يصدد التوجه إلى الأرجنتين لإقناع اليهود بالهجرة. فماذا يعني ذلك ؟ يعني أنّ الأرض الفلسطينية تتسع لأصحابها، الذين مازالت بيوتهم وقراهم وحقولهم تنتظرهم فالاجدن، والأعدل، والأكثر واقعية أن ينقل فلسطيني الشتات إلى ثورهم وأرضهم

في الشهور الأخيرة صدرت تصريحات من مسؤولين فلسطينيين، وبخاصة من حامل ملف القدس بعد رحيل المناضل فيصل الحسيني، يقول فيها بعدم واقعية المطالبة بحق العودة. ترى: كيف تتسع فلسطين لليهود والأوروذكس السوفيتية، والفلاشا، وتُلق أربابها لليهود الأرجنتين وغيرهم. ولا تتسع لأصحابها الشرعيين؟

أنتبه إلى أنّ حق العودة هو حق فردي لكل فلسطيني، ولا يحق لأي فرد أو جهة أو دولة أن تنوب عن الفلسطينيين بالتنازل عن

هذا الحقّ، الذي يتوارثه الفلسطينيون إبا عن جدّ إلى يوم  
العودة.

إلى المخيمات الفلسطينية، من جباليا والشاطئ، إلى الغوّار،  
والدهيشة، وبلاطه، وجنين، وعابدة، والعزّة، والأمري، وعقبة جبر،  
وعين السلطان، وعين الحلوة، والميّة وميّة، والبارد، والبكوكي،  
وشاتيل، واليرموك، والتبريد، وعشرات غيرها، تخوض اليوم  
معركة العودة التي هي حقّ مقدّس، والتي هي معركة الأرض التي  
يتشبّث بها الفلسطيني تحت الاحتلال، ويُفرض على جمرة الإيمان  
بها كلّ فلسطيني حيثما كان وحيثما شامت له الأقدار أن يكون في  
بلاد الغربة التي لا تنسبه حقّه في العيش الحرّ الكريم. ومن داخل  
فلسطين ١٩٤٨ كانت الاستجابة السريعة لنداء الأرض والحرية.  
وفي غضون ساعات أُعطي فلسطينيّ الداخل ثلاثة عشر شهيداً،  
ميرهنين أن الشعب الفلسطيني هو شعب واحد، وأنّ معركته هي  
معركة واحدة، وأنّ مصيره واحد، وأنّه لن يرضى بأن يمزق ويحوّل  
إلى شعوب وأقليات يتم تدويرها في الكيانات الإقليميّة العربيّة  
المحيطة بفلسطين والمتواطئة مع العدوان، والتي تُلقك الحدود في  
وجه الفلسطيني ليتمكّن العدو الصهيوني من الاستفراء  
بالفلسطينيين في فلسطين.

#### فلسطين والأنظمة

الإنسان الفلسطيني يلقب اليوم موازين القوة. فهو بقليل من  
السلاح، ويكثر من العزيمة والإيمان، يوجه الطمات المزعزعة لعدو  
متجبر مسنق بما بين يديه من أسلحة متطورة تُحقّقه بها الولايات  
المتحدة الأمريكيّة - عدو العرب رقم واحد.

نساؤنا بلدن عند حواجز جيش العدو، وتحت نظراته الحقيرة.

أطفالنا يُقتلون، وتمزّق الكتب والدفاتر بين أيديهم. ينزفون دماهم  
الطاهرة، تُسرق طفولتهم. ولكنهم يصمدون، وهم يرفعون صور محمد  
الدرة وإيمان حجّو. ويمضون إلى وطن بلا موت، وأرض مزروعة  
بأنشجار الزيتون، وسماز بلا طائرات، وبحر بلا زوارق حربيّة.

محاربونا الشباب يُحمّل واحدٌ منهم رفيقه أو أخاه، وهو يُهتَف باسم  
فلسطين. يمضي الشهيد وفي عينيّه حيّات من تراب فلسطين، وفي

يده حجر يُقابل به ربه يوم الحساب؛ فحجره هو كتابه الذي في  
يمينه!

أُمّهاتنا يودعن أبنائهنّ إلى الميدان. فأمّ محمد تتوجّ رأسها بـ «لا  
إله إلاّ الله محمد رسول الله». والشّابة إيمان إدريس تُشّف  
جسدها في العدو، ليتركها فجر فلسطين مجدداً، وفوتة، وكرامة  
تُشرح جنالات العرب المخطّاة صدى بهم بأوسمة معاركة لم  
يخوضوها إلا من أجل نبع الجماهير.

هذه فلسطين قضيتها قضايا العرب، سؤال وجودهم ومستقبلهم.  
إنّها القضية التي قرّرتها نظم الحكم العربيّة إلى مسألة نخس  
الفلسطينيين وحدهم لتدفع بهم، ولسان حالها يقول «انهبوا انتم  
وربكم فقاتلوا إنا هنا قاعدون».

نُظم حكم في أحسن الأحوال تدعي الوساطة، وتُصبح بالتوسل  
لأمريكا، وتتواطأ، وفي سماء عواصمها ترفرف رايات «إسرائيل».

نُظم حكم تُترك الشعب الفلسطيني، العربيّ بامتياز، نضالي  
جهادي، جانفاً، مقاتلاً بجزء من قوّته، لأنّ خمسة ملايين ينتشرون  
في الأقطار المحيطة بفلسطين مقبدين، مراقبين، محاصرين في  
مخيماتهم، حتى إنهم ممنوعون أحياناً من التظاهر؛ فدُمهم يسيل  
إن تظاهروا، وفي السجون يُزج بهم إن رُفخوا أصواتهم بندا  
فلسطين.

#### قضيتنا هي الحق بعينه

في ختام خدائي في مجلة الآداب قلت: «إننا لن نغيّر ونبدل إيماننا  
بوطننا لمجرد أن نفرأ منا أصابه التعب، أو لأنّ قوّة عاتية تمك  
أسباب التفوق المادي والصنعيّ علينا. فالوطن باق، والحرية قيمة  
إنسانيّة خالدة. وما هو طائر لا يد أن يزلزل وينهدح ويبيد،  
بالخسران، ومعه من يريجون لجبروته».

ثمّ أعود، بعد عقد من الزمن تقريباً، للتاكيد على جبره هذه  
الافكار. فقضيتنا هي الحق بعينه، وإنساننا العربيّ الفلسطيني  
صلب ومجرب. وهما في قلب الميدان، يواصل الفداء، من  
أجل الأرض، وحريرتها، والعيش بكرامة في فلسطين العربيّة  
الحرّة.

عمّان



## عن الصهاينة واليهود

المحتلة. ففي هذه الحال لا بدّ للسياسة أن تسير في خطّ القوة التي لا تبعد عن المبادئ ولا تتطّلق في الجانب التجريدي بعيداً عن رصد الأرض والواقع الميداني.  
مع خالص تقديرنا واحتراسنا

المكتب الإعلامي لسماحة السيد  
محمد حسين فضل الله  
بيروت

جانب إدارة التحرير في مجلة الأرباب المحترمين، تحية طيبة وبعد،  
في العدد ٣ - ٤ من مجلّتكم الغراء مقال للاستاذ صفر أبو فخر الذي تقدّر فيه كتاباته ومواقفه في المسألة العربيّة والإسلاميّة العامّة، أقرب فيه عن «مهمته» لقول سماحة العلامة المرجع السيد محمد حسين فضل الله: «يصعب جداً أن نجد امرأة في الكيان الصهيونيّ أو المستوطنات لا تمثّل حالة عسكريّة». وشبّه الاستاذ أبو فخر هذا القول بـ «التفكير الصهيونيّ» تماماً. فالصهيونيّون يقولون الأمر نفسه عن السوريّ مثلاً: ليس شئاً مدنيّ في سورية مادام أيّ مواطن فيها يتحدّم في جيش بلده...»

إنّنا بدورنا نعضدنا لهذا الاستنتاج السريع من جانب الاستاذ أبو فخر، ولهذه المقارنة غير الدقيقة بين الموقف الصهيونيّ من العرب والمسلمين ومن الآخر عموماً - وهو موقف يتطّلق من خلفيّة صهيونيّة تلعمدية معقّدة - وبين حديث سماحة السيّد الذي يمثل توصيفاً لواقع الصهاينة في فلسطين المحتلّة وممارساتهم ضدّ الشعب الفلسطينيّ التي تتطّلق أولاً وأخيراً من خلال كونهم سلطّة احتلال تستمدّ قوّتها في الأساس من العنصر البشريّ اليهوديّ الذي يحتلّ فلسطين أو يوافق على هذا الاحتلال. ولذلك لا نجد مجالاً للمقارنة بين الذهنيّة الصهيونيّة التي لا تجد مدنيّاً في سوريا «مادام كلّ مواطن سوريّ يتحدّم في الجيش»، وبين التوصيف الإسلاميّ لواقع الصهاينة في فلسطين المحتلّة. فالسوريّ لم يحتلّ أرضاً هؤلاء، والمسألة برمتها تدور حول الاحتلال ونصحه بطريقة «مباشرة أو غير مباشرة»، كما أشار سماحة السيّد في حديثه، مع تفرقة المستمرّ بين اليهود كيهود - باعتبار أنّهم من أهل الكتاب الذين يقرّون الإسلام بديانتهم - وبين أولئك الذين احتلّوا فلسطين واغتصّبوا أرض الفلسطينيين ونظّموا إنسانها. فالمشكلة هي مع هؤلاء وما يمثّلونه من حالة ظلم، لا معهم على أساس انتمائهم الدينيّ. وقد سبق لسماحة السيّد أن تحدّث في أكثر من مناسبة قائلاً إنّنا «لا نذهب إلى قتل كلّ يهوديّ في فلسطين المحتلّة بدم بارد»، ولاسيّما أنّ في فلسطين يهوداً هم من سكّانها الأصليين. وهؤلاء بنظر سماحة السيّد ممّن لا تطّبق عليهم صفّة المحتلّين، وبخاصّة إذا كانوا لا يوافقون على هذا الاحتلال.

ثم إنّ المسألة التي يتحدّث عنها سماحة السيّد تشلّ في حالة الحرب ومقتضياتها، والتي تدور رحاها في هذه الأيام في فلسطين

ابراهيم سعدي

بوح  
الرجل  
القادم  
من  
الظلام



رواية

دار الآداب





# مَرْثِيَةُ الْحَمَلِيَا

رَوَايَةٌ

علوية صُبح

دار الآداب

دار الآداب

